

وزارة الثقافة والارشاد القومي

الادارة العامة للثقافة

فلسفة اليوجيا

تأليف: يوجي راماشاراكا

ترجمة: عريان يوسف سعد

مراجعة: دكتور محمد مصطفى حاسي

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

فلسفة الـيوجيا

تأليف: يوجي راماشاراكا

ترجمة: عريان يوسف سعد

مراجعة: دكتور محمد مصطفى حلمي
امناذ الفلسفة الاسلاميه بجامعة القاهرة

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة والادب
الاقتليم الجنوبي (أهد)
الإدارة العامة للثقافة
رقم التـ

ADVANCED COURSE
IN
YOGI PHILOSOPHY
AND
ORIENTAL OCCULTISM

By

YOGI RAMACHARAKA

Author of "Science of Breath" "Hata Yoga"
"Fourteen Lessons" Etc.

إيماء

الى الذين هزّ ما أوتوا من علم أركان دينهم وزعزع أسس
ايمانهم .

والى الذين ليس لهم ايمان مثل حبة الخردل أقدم هذا الكتاب .
هذا الكتاب يجعل الايمان بالله مبدع الكون ونور السموات
والأرض أمرا يحتمه المنطق ويتقبله العقل .

أما الذين حفظ الله عليهم نعمة الايمان ايمان العجائز فانه يرتفع
بايمانهم الى مراتب اليقين .

انه يلقي الضوء على الطريق .

ويهد السبيل الى الصراط المستقيم .

عريانه يوسف سعد

كلمة الناشر

الدروس الاثنا عشر التي بين دفتي هذا الكتاب أقيمت محاضرات شهرية في الفترة بين أكتوبر سنة ١٩٠٤ وسبتمبر سنة ١٩٠٥ وكانت دراسة عليا واستمرارا للدروس الأربعة عشر التي أقيمت في السنة السابقة لتلك الفترة ، ولقد أصدرنا هذا الكتاب بناء على الكثير من الرجاء والالاحاح مشتتلا على هذه الدروس تعميما لفائدتها .

والدروس الأربعة الأولى شرح وتحليل للكتيب المسمى « ضوء على الطريق » وقد صادفت ارتياح محبى ذلك الكتيب وتقديرهم ، كما صادفت اعجاب طلاب التصوف وأساتذته حتى لقد قيل ان هذه الدروس الأربعة تفوق كل ما كتب عن هذا الموضوع .

والدروس الخامس والسادس والسابع تعالج مختلف نروع اليوجا وتحوى بيانا وافيا في كثير من الايجاز .

والدرسان الثامن والتاسع يتناولان فلسفة الأخلاق في اليوجا وقد استقبلهما أساطين الأخلاق في مختلف المدارس أحسن استقبال فانهما يهيئان صعيدا مشتركا يلتقى عليه المختلفون .

والدروس الثلاثة الأخيرة تتناول نظريات اليوجا في « ما وراء المادة » وتعاليمها المبنية على أسس علمية في عبارة يدعو وضوحها واحاطتها الى الاعجاب : فيها اجابة جزلة سهلة مبسطة لأعقد المسائل النفسية والروحية ، اجابة توحى بها فلسفة اليوجا المتوغلة في أقدم القرون بعبارة واضحة وتعبير يتمشى مع عصرنا هذا .
وكل ما تتمناه أن يصادف هذا الكتاب من الرضى ما قوبلت به تلك الدروس عند القائها .

والكاتب جريا على عادته أبى أن يقدم لهذه الدروس ، اذ يفضل أن يتركها تتحدث عن نفسها .

جمعية نشر اليوجا

الدرس الأول

بعض الضوء على الطريق

تحياتنا للطلبة القداماء الذين عادوا الينا لمواصلة الدرس شاعرين بأننا لن نجد داعيا لتكرار ما سبق أن فصلناه في الدروس الماضية من المبادئ الأساسية التي كانت موضوع تلك الدروس ومادتها ولذلك فانا سندخل في صميم الموضوع اعتمادا على استعداد كل طالب منكم لتقبل ما يلقي اليه .

لقد قرأ البعض الدروس السابقة يدفعه حب الاستطلاع فمنهم من أغرته طرافة الموضوع فتعلق به يريد مواصلة درسه ومنهم من لم يجد فيه المثيرات التي توقعها وتطلع اليها ففصل عن القافلة ، ذلك هو الشأن دائما . كثيرون يتقدمون ولكن قليل منهم من يواصل السير . فمن ألف حبة تبذر في الأرض لا تثبت سوى مائة ، ولكن حسب الزارع تلك المائة فان في ثمارها ما يجزيه على تعب ، أما نحن فانا حين نبذر بذورنا هذه نشعر بارتياح أعظم مما يحسه زارع المائة النامية فان التسعمائة التي تتخلف ستدرك سابقاتها المائة أو تلحق بها في وقت ما في المستقبل فان التعاليم الروحية لا يصل الى

شئ منها الفناء والعدم بل تثمر وتؤتى أكلها في أوان لا بد
وأن يحين .

نرحب بالطلاب - طلاب هذه الدراسة العليا - ونهنيء
أنفسنا بهذا العدد الكبير منهم ، كما نهنيء الطلاب أنفسهم بما
وصلوا اليه من مرتبة تحفزهم الى مواصلة الدرس وتجعلهم
مستعدين للتقدم .

سنتخذ من « السبيل الى الوصول » أو الطريق . موضوعا
لدرسنا الأول ولسنا نجد منهجا لتسديد خطوات الطلاب على
الطريق خيرا من الاشارة الى المبادئ التي حواها الكتيب المسمى
« ضوء على الطريق » الذي وضعته « مابل كولنز » وهي سيدة
انجليزية وضعت تلبية لطلب عقل قطع في الطريق شوطا بعيدا
(لا ندرى ان كان صاحب ذلك العقل في هذه الدار أو في الدار
الآخرة) وبوحى منه .

لقد أشرنا في آخر درس ألقيناه الى عزمنا على اخراج كتاب
يوضح (معالم الطريق) ولكننا بعد ترو رأينا أن نجعل ذلك الكتاب
مادة لهذه الدروس بدل طبعه . ذلك لأننا رأينا أننا بهذه الطريقة
نستطيع أن نتحدث في اسهاب وفي غير تحفظ اعتمادا على أن
الطلاب الذين أتموا المرحلة الأولى سيتفهمون ما نلقيه اليهم أكثر

مما يصل اليه فهم جمهرة القراء ، لذلك فإن الكتاب لن يطبع
وستلقى مادته في هذه الدروس .

سنقتطف من الكتيب (ضوء على الطريق) مبدأ بعد مبدأ
أو قاعدة بعد قاعدة مردفين كل قاعدة بشرح يلقى على مبهمها
ضوءاً يوضحها ويظهر ما خفى من معانيها .

ومن الخير في هذا المقام أن نعلن أن « ضوء على الطريق »
كتاب من نتاج الالهام وأن عباراته صيغت صياغة معنيا بها الى
الحد الذي يجعلها تحتل الكثير من التأويل والتفسير ، انه يحمل
رسالة تصلح لمستويات متفاوتة من مستويات الحياة يأخذ منها كل
قارئ ما يتفق والمستوى الذي بلغه من التقدم ، فهو من هذه
الناحية يختلف عن غيره من المؤلفات ويجب أن يتها القارئ لهذا
الكتيب بشيء قبل ان يكون قادرا على أن يحصل منه على شيء .
لقد وضع كتاب « الطريق المضاء » تفسيراً لهذا الكتاب على
أسس نفسية أو (كوكبية) شبه روحية ولكن تفسيرنا له سيوضع
بحيث يكون هادياً للطالب المبتدئ وقد هم بدخول الطريق ،
سيوضع هادياً للمريد .

سنحاول أن نفسر قواعد الأولى ونشرحها في ضوء
ال « كارما يوجا » (العمل) أولاً بأن نشير الى معناها القريب
ثم المعنى المتصل بالغايات السامية والرغبة في المستويات الرفيعة ،

وأخيرا نوضح هذه القواعد بالنسبة لتفتح الوعي الروحي ، وهو لب ذلك الكتيب ومفتاح مغاليقه في نفس الوقت .

سنحاول أن نوضح للقارىء ما خفى من معانى ذلك الكتيب وأن نضع فى كلمات بسيطة ، من غير تجميل ، تلك المعانى والأفكار الخلاية التى يصوغها الشرق من خياله الشعرى .

لن يتعارض عملنا مع التفسير الذى جاء فى كتاب « الطريق المضاء » بل سيسير معه جنبا الى جنب فقط على مستوى من مستويات الحياة غير المستوى الذى وضع ذلك التفسير عليه .

وقد يلوح للبعض أنها جرأة منا أن نحاول تفسير تلك الدررة من درر التعاليم الروحانية الخفية « ضوء على الطريق » ولكن هذه المحاولة حازت موافقة أولئك الذين تظفر آراؤهم بكل احترامنا وتقديرنا ، كما أنها—وهذا ما يهمنا نحن أكثر—تصادف هوى فى (نفسنا العليا) ومهما كان عملنا غير ناضج فلا بد من أن يكون قد قدر للبعض أن ينتفع به والا ما ألهمنا أن نعمله .

(هذه القواعد أعدناها لكل الطلاب . فالتزموها)

هذه القواعد وضعت حقا لكل الطلاب وانه لمن الخير لنا جميعا أن نلتزمها ، فان القواعد التى وضعت لهداية الروحانيين أهل الباطن وارشادهم كانت وستظل دائما واحدة فى كل عصر وفى كل بلد مهما اختلفت أسماء المذاهب . لأنها تركز على الحق ، وقد

جربت واختبرت على مر العصور منحدره الينا عبر الأجيال الطويلة حتى تسلمناها وعليها آثار من تداولوها في رفق وعناية من اخواننا في الروح ، أولئك الذين قطعوا الطريق التي نهم الآن بدخولها ، الذين عرجوا على المرتفعات التي سنصل يوما لارتقائها . هذه القواعد لكل السائرين في الطريق وضعت لهم وليس ثمة خير منها ، وقد جاءتنا من أولئك الذين يعلمون .

(قبل أن تستطيع العين الابصار يجب أن تجمد فلا تستطيع أن تسكب الدموع ، وقبل أن تستطيع الأذن السمع يجب أن تفقد حساسيتها ، وقبل أن يستطيع الصوت ارسال الكلام في حضرة المعلمين يجب أن يفقد القدرة على الايلام واثخان الجراح ، وقبل أن تستطيع النفس أن تقف في حضرة المعلمين يجب أن تغسل قدميها في دم القلب) .

قبل أن تستطيع العين أن تبصر بصفاء ابصار الروح ، يجب أن تتخطى مرحلة البكاء على الكرامة المجروحة والنقد الجائر والاساءة بغير حق والملاحظات العدائية واللمز والهزاء والسخرية الى آخر مضايقات الحياة في كل يوم والفشل وخيبة الأمل التي تحملها أطواء الحياة . لسنا نريد بذلك أن تقسو النفس وتتجبر ازاء هذه النازلات ، فان القسوة على النقيض ليست من التعاليم الروحانية في شيء . الانسان في حالته العادية على الصعيد المادى يجد نفسه

دائما تحت رحمة الغير من أمثاله وكلما ازداد احساسا بالآلام الحياة التي تنصب عليه ممن حوله ، وكلما حاول رد الكيد بمثله ودفع الشر بالشر والوخز بالوخز ازدادت شبكة الحياة المادية اطباقا عليه وتقييدا له .

ان فرصته الوحيدة في النجاة تنحصر في ارتفاعه بنفسه عن مستوى الحياة المادية وتحليقه في آفاق العقل والروح العليا ، وليس معنى ذلك أن يفر من العالم ، فان الانسان اذا حاول الفرار من العالم قبل أن يتم تعلم دروسه رد على أعقابه اليه مرة بعد مرة حتى يستقر فيه ويؤدي واجبه نحوه — يؤدي رسالته . ولكن مع هذا فان الانسان الذي وصل الى شيء من صفاء الروح يستطيع أن يعيش في غمرة الحياة ، لا بل يستطيع أن يكون من زعماء هذه الغمرة وهذا الصراع ، ومع ذلك يحلق مرتفعا بنفسه عنها فيرى انديا على حقيقتها المجردة ، يرى فيها لعبة أطفال بين أشباه الأطفال من الرجال والنساء ، فهو وان اشترك في اللعبة كأحسن ما يكون الاشتراك ، الا أنه يعلم علم اليقين أنها لهو ولعب وليست هي حقيقة الحياة ولا لبها . في هذه الحالة يبتسم والدمع يترقرق من عينيه حين يتجدد في زحمة اللعب ثم يكف عن البكاء اطلاقا وتحمل الابتسامة مكان الدموع ، ذلك لأن الأشياء اذا نظرت على حقيقتها لم يجد الناظر اليها بدا من الابتسام ساخرا من نفسه ومن غيره .

عندما يجيل الانسان النظر حو اليه ويرى الدمى الصغيرة التى أوقف الناس عليها جهود حياتهم متناحرين فى سبيلها كأنما هى أهداف الحياة الحقيقية وغاياتها ، لا يتمالك نفسه عن الابتسام اذا استيقظت فى الانسان القدرة على تعرف الأشياء على حقيقتها ، يرى فى الدور الذى رسمه له القدر لكى يقوم به على مسرح الحياة ما يدفعه الى الابتسام . ليس هذا الذى نقوله أحلام حالم أو آراء فى مستحيل الخيال . فلو علمتم عدد كبار الرجال ، الذين يلعبون أدوارا رئيسية فى مسرحية الحياة ، الذين كشفت لهم هذه الحقيقة لعجبتم من كثرتهم .

كثير من هؤلاء الرجال يدل ظاهر الحال على أنهم يقومون بدورهم فى الحياة فى كثير من الحيوية والنشاط كأنما يسعون كغيرهم لتحقيق أطماع وآمال ، ذلك لأنهم يعلمون أن وراء هذه الحياة غاية وأن لها حكمة وأنهم أجزاء ضرورية فى آلة التطور ولكن فى قرارة نفوسهم لا يقدررون ذلك كله أكثر من قدره ويعلمون أنه خيال زائل .

يجب أن يكون سالك الطريق شجاعا وأن يكون مسيطرا على عواطفه الطبيعية ، والدموع التى أشير اليها ليست الدموع نفسها فان هذه الدموع قد تظفر من العين بغير ارادة فى وقت يشرق الوجه فيه بالابتسام . الغرض هو ادراك أن شيئا فى الوجود لا يستحق

البكاء ، ان الغرض هو الدافع على البكاء ، الدافع على سفتح
الدموع لا الدموع نفسها .

والدرس الذى تتعلمه من هاتين القاعدتين هو أن نرتفع فوق
الأحداث الشخصية وأن نعمل على تحقيق الفردية ، وأن نسمى
للوصول الى الوعى ، الى معرفة الذات = الأنا ، الى الشعور
بالذات (أنا كائن) . وتكوين الشخصية الحقيقية التى تسمى على
مشاغل الانسان الفردية وأن نعلم أن هذه المشاغل لا تؤثر فى
الروح ولا تصل اليها وستغسلها مياه الأبدية من رمال الزمن .

كذلك يجب أن تفقد الأذن قوة احساسها بتفاهات المسائل
الشخصية التى لا تسر قبل أن تستطيع الانصات الى الحقيقة
فتسمعها واضحة ، خالصة من الأصوات المتعالية من احتدام معركة
الحياة .

يجب أن يسمو الانسان حتى يستطيع أن يسمع هذه الأشياء
وهو يتسم مطمئنا لعلمه بحقيقة النفس وقوتها وبما قدر لها (١) .

يجب أن يكبر الانسان حتى يكون قادرا على أن يسمع الكلمة
القاسية والنقد الجائر والتعريض الممض اللاذع بدون أن تترك
فى نفسه أثرا ، يجب أن يدع هذه المنغصات فى مستواها المادى

(١) هذا هو صاحب النفس المطمئنة . (المترجم)

الذى يخصها ولا يسمح للنفس أبدا أن تهبط الى حيث يمكن أن
تأثر بها .

يجب أن يتعلم الانسان أن يسمع عبارات السخرية والاحتقار
توجه الى مثله العليا ممن لا يفقهون اذ لا لوم عليهم لأنهم يفعلون
مالا يدركون . دعوا الأطفال يلعبون فهذه طبيعتهم وسيأتي يوم
يعانون فيه آلام النمو الروحي ويجتازون هذه المرحلة التي
تجتازونها أتم الآن . لقد كنتم يوما مثلهم وسيكونون مثلكم يوما
ما . اعملوا بالقول القديم ودعوا هذه الأشياء تدخل من أذن وتخرج
من الأخرى ولا تدعوها تصل الى الاستقرار في النفس ، عند ذلك
تستطيع الأذن أن تسمع ما أعد لأن تسمعه وتهىء ممرا خاليا
لدخول الحق .

نعم (وقبل أن يستطيع الصوت أن يرتفع بالكلام في حضرة
المعلمين يجب أن يفقد القدرة على أن يجرح) .

ان الصوت الذى يقدح ويكذب ويسىء ويشكو ويجرح
لا يمكن أن يصل الى المستويات الرفيعة التي يقيم فيها الذين أوتوا
العلم وارتفعوا درجات .

قبل أن يتكلم بحيث يسمعه أولو الأبواب الذين سموا الى
المستويات الرفيعة يجب أن يكون قد نسى منذ أمد بعيد كيف
يهجو فيمض ويجرح .

الرجل السامى لا يتردد فى قول الحق حتى ولو كان قوله غير
سار ان كان الصواب فى ذلك ، ولكنه يقوله بلهجة الأخ المحب
الذى لا يوجه النقد ولسان حاله يقول أنا خير منك وأتقى . ولكن
كمن يرى أخاه قد ضل فيرشده ويمد له يد العون .

مثل هذا يكون قد باعد بين نفسه وبين الرغبة فى المشادة وطعن
الغير بالقاسى من الكلم ، يجب أن تنزع هذه الأشياء وتلقى جانبا
كما ينزع الثوب البالى ، فإن الرجل السامى ليس بحاجة اليها .
(قبل أن تستطيع النفس أن تقف فى حضرة المعلمين يجب أن
تغسل قدميها فى دم القلب) .

هذا (قول قاس) على الكثيرين ممن يهمون بدخول الطريق
وكثيرون يضلون عن حقيقة معنى هذه القاعدة لما يفهمونه من معنى
كلمة القلب ، انهم يظنون أنه يعنى (خاصية الحب) ولكن ليس
هذا هو المقصود ، فالتعاليم الروحانية لا تهدف الى قتل الحب
الحقيقى ، انها تعلمنا أن الحب من أعظم خصائص الانسان وانه
ينمو مع نمو الانسان الروحى حتى يسيطر على حياته كلها .

القلب هنا يراد به الشهوة الجنسية الغريزية التى تتبع من
العقل الحيوانى ، وهذه تكون فى حياتنا العادية ، قبل أن تتقدم ،
جزءا له من الأهمية ما يجعل التخلص منها يشبه انتزاع القلب من
بين الضلوع حتى ليكاد أن يتمزق .

فاذا تخلصنا من هذه الأشياء واحدا بعد الآخر ، تلك الأشياء التي كان يتعلق بها القلب ، شيئا بعد شيء كنا منتزعين القلب منها بكثير من الألم والعذاب حتى لكأن القلب يراق دمه فتغسل النفس قدميها في دمائه المهرقة . فالشهوات ونداء الطبيعة الحيوانية لتلبية حاجات الجسد والعادات القديمة والعرف والتقاليد والأفكار المتوارثة وغرور الشعوبية وما يحسه الانسان كذبا من سمو جنسه على غيره من الأجناس كل هذه الأشياء غرائز سرت في الدم وامتزجت باللحم والعظم والتخلص منها شيئا بعد شيء يصحبه أسى ولوعة وشكوك تدمى القلب في أول الأمر حتى يصل الانسان الى درجة يدرك فيها حقيقة كل شيء .

ليست الغرائز البهيمية وحدها هي التي نتزعها من القلب ونتزع القلب من تلافيفها ولكن يجب أن تتخلى عن الكثير من الأشياء التي كانت تبدو عزيزة علينا ومقدسة لدينا ولكنها تحت الضوء الذي يبدأ العقل الروحي يفيضه علينا تبدو كأنها تصورات صيانية ، ومع ذلك وبالرغم من اكتشاف حقيقتها هذه فاننا نجد من المؤلم أن نفارقها فنبكى لفراقها وينفطر القلب أسى عليها .

وكثيرا ما نصل الى مفترق الطرق حيث نودع زمالة عقلية عزيزة اذ تترك الأصدقاء الأعزاء يسرون في طريقهم القديم أما نحن فنتخذ طريقا جديدا من طرق الفكر لا عهد لنا به من قبل

وفي هذا لنا ألم يزيد هـول الوحدة العقلية والروحية التي نواجهها بعد أن نخطو الخطوات الأولى على الطريق الجديد ، انها احساسات (العهد) عرفتھا نفوس الكثيرين من القراء الذين دخلوا الطريق ، شعور رهيب بوحدة موحشة لا تجد فيها أحدا يفهم حالك أو يقدر ما بك .

ثم يأتي بعد ذلك الاحساس الذي تولده رؤية معضلات الحياة بينما لا يرى الناس في الحياة معضلة واحدة في حاجة الى حل ولذلك يقطعون مراحل الحياة متحاربين متنافسين متباغضين تبدو عليهم كل مظاهر العمى الروحي ، بينما تقف أنت وحدك تشاهد المنظر المفجع وعندها ينسكب دم القلب للشعور بالآلام العالم والنشل في فهم سرها والعجز عن الوصول الى علاج لها ، كل هذا يدمى قلبك ومصدره يقظة روحك . أما الفارقون في المادة السائرون في فلك الحياة العادية فانهم لا يرون شيئا من هذه الأشياء ولا يحسون بوجودها .

حينئذ وقد اغتسلت قدما النفس في دم القلب تبدأ العين ترى الحقائق الروحية وتبدأ الأذن تسمع أصواتها ويستطيع اللسان أن يتحدث بها للآخرين وأن يتجاذب أطراف الحديث مع الذين تقدموا سائرين على الطريق ، وتستطيع النفس أن تنتصب واقفة وجهها لوجه مع نفوس من سبقوا على الطريق لأنها بدأت تفهم أسرار

الحياة ومعنى ما يدور فيها ، لقد وقفت على شيء من الخطة العظمى للوجود وبدأت تدرك حقيقة نفسها وتقول (أنا موجودة) وهي تعنى ما تقول ، لقد وجدت نفسها وقهرت الألم لأنها سمت فوقه . اصطحب هذه الأفكار فى (الصمت) ودع الحقيقة تترسب فى عقلك عسى أن ترسل جذورها وتنمو وتزهر وتؤتى ثمارها .

١ - اقل الطمع (أو الطموح) .

٢ - اقل رغبة الحياة .

٣ - اقل الرغبة فى الترف .

٤ - اعمل كما يعمل الطامعون الطامحون واحترم الحياة كما يحترمها الراغبون فى الحياة وكن سعيدا مثل أولئك الذين يعيشون وهدفهم السعادة .

كثير من حقائق الروحانيات الخفية يدون على شكل الأحاجى أو الألغاز لتظهر جانبى الدرع وهذا يتفق مع خطة الوجود ، وكل تعريف للحقيقة إنما هو تعريف جزئى ولكل قضية وجهان سليمان فابحث تجد لكل حقيقة وجهها آخر غير وجهها البادى . كل شيء كائن وغير كائن ، فكل تعبير يقصد به أن يشمل الحقيقة بوجهيها ، يجب أن يتخذ شكل الأحجية ذلك لأن وجهة نظرنا المحدودة تمكننا من ادراك ناحية واحدة فى الوقت الواحد ، أما لوجهة النظر غير المحدودة اللانهائية فإن كل النواحي تظهر دفعة واحدة . أن

الكرة تظهر للنظر غير المحدود من كل جانب وحتى داخل الكرة يبدو لهذا النظر غير المحدود كما يبدو ظاهرها .

هذه القواعد الأربع أمثلة لما ذكرنا وهي في نظر الرجل العادي لا تستحق الالتفات لتناقضها ولأنها غير مفهومة ومع ذلك فهي صحيحة يقرها العقل فلنجرب تفسيرها .

ان مفتاح فهم هذه الحقائق وما يماثلها انما هو القدرة على التمييز بين (النسبي) أو الأدنى ، (والمطلق) أو الأعلى من وجهات النظر ، اذكر ذلك جيدا فانه سيساعدك على الرؤية خلال زوايا تسودها الظلمة الكثيفة وتسهل فهم الكثير من الأقوال المستعصية ولنبدأ بهذه القواعد الأربع .

قيل لنا (اقتل الطمع أو الطموح) . ان الرجل العادي سيستمز من هذا القول ويصبح قائلًا ان اتباعه يحيل الرجل مخلوقًا تافها لا روح فيه فان الطموح هو أساس كل ما يحقق الرجل من غايات فاذا هم بالقاء الكتاب جانبا وقرأ القاعدة الرابعة (اعمل كما يعمل الطامحون) واذا هو لم ينظر الى القول بعين العقل الروحي فان الأمر يزداد عليه التواء وتعقيدا ولكن الأمرين سليمان وقابلان للاتباع . فالطموح أو الطمع المشار اليه في القاعدة الأولى هو التفاخر والزهو والأنانية التي تدفع الانسان الى سحق كل من يعترض طريقه في غير رحمة . هذا طموح زائف يختلف عن الطموح

الحقيقى وهو شبيه بالجوع الكاذب أو الرغبة الكاذبة فى الطعام اذا قيست بالجوع الحقيقى الذى يعبر عن فراغ المعدة وحاجة الجسم الى عناصر البقاء فى صورة الطعام ، وهو شبيه كذلك بحب الزينة الذى يدفع الناس الى ارتداء السخيف من أنواع الثياب بدل سد الحاجة بقليل من الثياب التى تدفع عن الانسان أذى الطقس ، أو كالرغبة فى اقتناء القصور الباذخة وما تجره فى أذيالها من أعباء مالية ثقال تهد الأعصاب وتقض المضجع بالتفكير فى الحصول عليها والاحتفاظ بها بدل ما يحتاج اليه الانسان من دار معقولة يأوى اليها ويسكنها . ونراه فى صورة أخرى فى اندفاع الكثير من الرجال والنساء فى مغامرات غرامية معريدة صاخبة بدل الصلة الطبيعية المشروعة بين الرجل وزوجه التى وضعت أصلا لحفظ الجنس واستمراره .

ان الرجل الطموح الطامع الشره يجن حبا فى الوصول الى أهدافه لأن الرغبة الطبيعية تحولت الى شذوذ وسعار ، انه يظن أن الأشياء التى يجرى وراء الحصول عليها ستجلب له السعادة الحقيقية ، انه يربط نفسه بهذه الأشياء التى صنعها خياله وتخيل فيها سعادته فيصبح عبدا لها شقيا بها ، بدل أن يكون سيدها الذى وجدت لخدمته .

انه لا يجمع المال لأنه وسيلة الحصول على الضرورات اللازمة

لغذاء الجسم والروح له ولغيره ، ولكنه يجمعه لذاته ، انه يجمعه بعقلية البخيل الشحيح ، انه يسعى لأن يصبح ذا نفوذ ارضاء لكبريائه وغروره ، حتى يرى الناس أنه أكثر من غيره جاها وأعز تقرا .

كل هذه أطماع صبيانية تافهة صغيرة لا تليق بالرجل الحقيقي ولا بد للرجل اذا أراد أن تنمو رجولته وأن يتقدم بين الرجال أن يكبر وترفح عن هذه التفاهات والأمجاد الزائفة .
لعل هذه الدروس التي يتلقاها هي الدروس التي يحتاجها لينمو وعيه وينضج .

ان الرجل ذا الأطماع غير العادية يعمل ليحصل على الأشياء جريا وراء المنفعة الشخصية حتى اذا حققها خاب فآله لأنه انما يعتمد على أشياء لا خير فيها متى جد الجد ، ولا تنفعه ، انه يستند على قصبه مرضوضة تجرح يده ولا تسنده .

والآن لنلق نظرة على الجانب الآخر من الدرع . تقول القاعدة الرابعة (اعمل كما يعمل الطامعون الطامحون) ، ان من يعمل بهذه القاعدة يبدو للناس وكأنه نفس ذلك الطامع الطامح ولكن الشبه ظاهري فهذا رجل حقيقي وذاك مزيف .

الرجل الذي يعمل العمل استجابة لما يجيش في نفسه من الرغبة في العمل لارضاء غريزة الخلق والابداع الكامنة فيه هو الرجل

الحقيقى ، هذا الرجل ينتج ما هو خير وأبقى مما ينتجه الآخر .
ثم هو يظفر فى عمله بالسعادة لأنه يشعر بأنه يمكن قوة الخالق
المبدع من الابداع بواسطته فيصنع العظام ، انه ينجز عمله وهو
سعيد به وبما ينتجه ، وما دام مخلصا لمثله العليا فانه يظل مطمئنا
ثابتا فى سعادته هذه قائما بما فرض عليه من عمل حق القيام .

ولكن قد يحدث له وهو يرقى سلم النجاح فى الطريق أن يقع
فريسة مغريات شديدة الاغراء . فيجربى وراء المطامع الدنيوية
ويجعلها تتمكن منه .

ونتيجة هذه السقطة أنه يعود الى تعلم الدرس من أوله مرة
بعد مرة حتى يحسن تعلمه .

ان كل رجل له فى الدنيا عمل يعمله وعليه أن يعمله كأحسن
ما يستطيع وأن يعمله منشرح الصدر بكل ما يملك من حذق
ومهارة ، وأن يترك لنفسه العنان لتجيد العمل كل اجادة وتبذل
فيه كل مقدراتها حتى تبرز كل من سبقها اليه لانبغية الظهور على
الغير والانتصار عليهم ، ولكن لأن الدنيا تحتاج الى التحسين
والتجديد .

ان الروحانية الحقيقية والتصوف الصحيح لا يدعوان الرجل
الى أن يجلس طول يومه لا يعمل عملا الا التأمل وقد ثبت عينيه
على (سرته) كما يفعل بعض جهلة فقراء الهنود ودرأويشهم الذين

يقلدون اصطلاحات أساتذة اليوجا وكلامهم تقليدا غير صحيح
يمرغون بذلك تعاليمهم في الوحل ، بل على العكس ان من تعاليمها
ان واجب الانسان والذي ميزه به الله هو أن يساهم بعمل من
أعمال الدنيا وان من ينفع الناس بعمل لا عهد للناس بمثله يكون
مباركا بين الرجال ويعتبر من المحسنين الى الانسانية .

انها تؤمن بوجود قوة الهية دافعة الى الخلق والابداع في كيان
كل رجل وكل امرأة وتحض على تمكين هذه القوة من أداء رسالتها
على أحسن وجه ، وان الحياة التي لا يتم خلالها عمل ينفع الناس
لا خير فيها وان العمل المنتج النافع سبيل الى التقدم الروحي بل
هو عنصر من عناصره .

انها لا تجد جمالا في القيام بالعمل كآلة الصماء ، فهذا عمل
لا خير فيه ولا جمال . ولكنها تعلم الناس أن أحط الأعمال وأقلها
قيمة ، فيها متعة اذا أقبل عليها الانسان مخلصا وجدها ووجد في
أدائها سرورا يهديه الى طريقة أحسن لأدائها فيضيف بذلك الى
الوجود جديدا من الخبرة والعلم .

انها تعلم الطموح الحقيقي ، العمل حبا في العمل ، لا العمل
جريا وراء الفائدة الدنيوية الزائلة . ولذلك فحين تقول القاعدة
(اقتل الطمع أو الطموح .. اعمل مثل ما يعمل الطامعون الطامحون)
تدرك الغرض منها الآن . ان هذا الطريق من الحياة سهل على تابعي

(الكارما يوجا) وهى فرع عظيم من فروع اليوجا ربما وفقنا
للكتابة عنها فى المستقبل .

اقرا هذه الكلمات مليا حتى تتمكن من معانيها وأدم قراءتها
حتى تتذوقها وتحس أثرها مثل رؤيتك لحروفها .

ان خلاصة هذه التعاليم عن موضوع الطمع هى :

اقتل الطمع الذى يربطك بنتائج العمل وأجره والذى لا يجر
فى أعقابه الا الحسرة وعدم التقدم الروحى .

ولكن تمسك بالأمل الذى يدفعك الى أن تعمل لترضى بعملك
غريزة حب الخلق والابداع التى وضعها الخالق فىك فتؤتى ثمرتها
على أحسن وجه ، وأن تؤدى رسالتك التى خلقت من أجلها أحسن
أداء حتى تبرز من سبقك ان استطعت وأن يكون ذلك منسجما
فى توافق وتناسق مع تيار الخلق والابداع الذى يتدفق فى الحياة
من حولك .

دع قدرة الخالق التى أودعها فىك تؤدى عملها على أحسن
وجه وتظهر نفسها للملا ، افتح كيانك كله لها لتجوس خلالك حتى
تتذوق شعور الفرح الذى يسببه العمل الذى تؤديه تلك القدرة ،
ان هذا هو الطموح الحقيقى . أما العمل الذى ينظر صاحبه الى
أجره قل أو كثر فهو عمل زائف يسبب انكماش الروح وتصغيرها .
والقاعدة الثانية تقول (اقتل الرغبة فى الحياة) ، وتردد القاعدة

الرابعة صدى القول (احترم الحياة كما يحترمها الراغبون في الحياة) . وهذه حقيقة أخرى صيغت في أحجية .

يجب على الانسان أن يمحو من العقل فكرة أن الحياة الدنيا هي كل شيء فان مثل هذه الفكرة تحول دون الادراك الأسمى للحياة ، حياة النفس ، وتجعل حياة الجسد هذه كل شيء بدل أن تكون مثل حبة رمل على شاطئ البحر الذي لا نهاية له .

يجب أن يعلم الانسان أنه سيظل حيا دائما سواء كان في الجسد أو خارجا عنه وان هذه الحياة الجسدية الفانية شيء تستعمله النفس التي لا تموت . لذلك يجب أن تقتل تلك الرغبة في الحياة التي تحملك على الخوف من الموت والتي تجعلك تولى هذه الحياة الجسدية فوق ما تستحق من الاهتمام الذي يبلغ حد الافتئات على الحياة الأوسع حياة الروح ووعياها .

اقتلع من عقلك تلك الفكرة القائلة بأنك تنتهي حين يموت الجسد ، لأنك بعد موته تظل حيا كما أنت الآن بل ربما كنت أكثر حياة ، اعرف للحياة الجسدية حقيقة قدرها ولا تكن مخدوعا وكف عن النظر الى الموت نظرة الرعب والهلع سواء أقبل عليك أو أطبق على من تحب . ان الموت طبيعي كالحياة تماما (في مرحلتنا هذه من التطور) نسعد به بقدر ما نسعد بالحياة .

انه لعسير أن ننفذ عنا الشعور القديم بالفرع من فناء

الجسد ولا بد للانسان من قتال مرير قبل أن يصرع هذا الوهم البالى الذى علق بالبشرية بالرغم من الايمان بحياة أخرى ذلك الايمان الذى يتردد باستمرار على لسانها .

تبشر الديانات بالحياة الأخرى التى يجب أن يصبوا اليها المؤمنون جميعا ، ولكن هؤلاء المؤمنون يرتجفون ويرتعدون من فكرة الموت ويلبسون السواد حزنا عندما يموت لهم صديق بدل أن ينثروا الزهر لأنه انتقل الى دار أحسن (هذه الكلمة التى تلو كها الألسن فى مثل هذه المناسبة وليس فيها تعزية للمحزونين) . يجب أن يحس الانسان بالحياة الدائمة المستمرة وأن يعيها وعيا ايجابيا قبل أن يستطيع أن يتخلص من هذا الخوف القديم (الخوف من الموت) . ولن يستطيع دين أو عقيدة أن يحقق هذا الهدف حتى يصل الانسان الى تحقيق هذا الاحساس ويعي هذا الوعى .

ان الشخص الذى يصبح هذا الاحساس فى نفسه وعيا باستمرار حياته بعد الموت ، هذا الشخص يتجرد الموت فى نظره من رهبته ، والقبر من هوله ، وبذلك يكون قد قتل الرغبة فى الحياة القصيرة هذه اذ حل محلها العلم بأن الحياة دائمة لا نهاية لها .

ولكن ليس لنا أن ننسى الجانب الآخر من الدرع . اقرأ القاعدة الرابعة (احترم الحياة كما يحترمها الراغبون فيها) ليس معنى

هذا احترام حياة الغير فقط بل يشمل احترام الانسان لحياته الجسدية أيضا فعند التخلي عن فكرة الاهتمام والتعلق بالحياة الدنيا يجب أن لا نصل الى تقيضها باهمال الجسد وعدم توفير حاجاته .

جسدك هبة من القوة الخالقة لحكمة ، وهو في الواقع هيكل الروح ، فلو لم يكن من الخير أن يكون لك جسد لما كان لك ذلك الجسد . انك محتاج له في مرحلتك هذه من مراحل التطور وبدونه تكون غير قادر على العمل للوصول الى الصفاء الروحي فاياك أن تنساق الى ضلالة احتقار الجسد والحياة الجسدية على أنهما مما لا يليق بك . انهما خير ما يليق بك في هذه المرحلة وبهما تستطيع تحقيق أهداف سامية . ان احتقارك لهما مثله كمثل رفضك السلم الذي يساعدك على الوصول الى العلا . يجب أن تحترم الحياة كما يحترمها الراغبون فيها وأن تحترم الجسد كأولئك الذين يحسبون أن الجسد هو كل شيء .

يجب أن يعتبر الجسد آلة النفس والروح وعدتهما وأن يحتفظ به نظيفا صحيحا قويا الى أبعد حد ممكن من القوة والصحة والنظافة .

ويجب الالتجاء الى كل وسيلة لاطالة مدة الحياة في الجسد الذي أعطيته .

يجب احترام الجسد واستعماله على خير وجه . لا يجوز أن
تقعد محزوناً على هذه الحياة وقيودها فانك لن تمنح فرصة أخرى
للقيام بما يتاح لك الآن من اختبارات فاغتنم هذه الفرصة أحسن
اغتنام .

ان حياتك شيء عظيم له خطره وقدره ويجب أن تعيش دائماً
في وقتك الحاضر (الآن) مستنفداً من كل لحظة من الحياة ما فيها
من مسرة تحملها للرجل الواصل البصير .

« الحياة — الحياة — مزيداً من الحياة » ، قال ذلك كاتب
ولقد أصاب .

عش كل لحظة من حياتك معيشة قوية صحيحة معتدلة عارفاً
لها حق قدرها غير آسف على ماضٍ أو خائف من مستقبل . انك
في الأبدية الآن كما ستكون في أي وقت قادم فلم لا تتمتع بها
لأقصى حد ، الآن هو الحياة دائماً ، (والآتات) لها معين لا ينضب
ولا نهاية لها .

فان سألتنا اجمال فكرة قتل الرغبة في الحياة والجانب الآخر
للفكرة (احترامها كالراغبين فيها) قلنا ان الرغبة فيها خطأ اذا
اعتبرت الحياة الحالية كل شيء ، والرغبة حق اذا اعتبرت حياة
الانسبان هنا حلقة في سلسلة الحياة الخالدة .

فإذا كان الانسان الواعى لايتعلق بالحياة ، فعليه فى نفس الوقت ألا يحتقرها لأنها ليست كل شىء فيركز اهتمامه بها وهى ليست لاشىء فيزهد فيها ويهمل أسبابها ويحتقر مقوماتها حاسبا أنه بذلك الزهد ينفذ مشيئة الخالق . وقد أراد الخالق له هذه المرحلة من الحياة حلقة فى سلسلتها يعنى بها عنايته بالخلود . فليس له أن يهملها فانها جزء من الكل ، ولا أن يستغنى بها عن الكل فما هى الا جزء منه .

الرجل الواعى لا يخاف الموت ولا يطلبه فهو لا يهاب الحياة ولا الموت ولا يتعلق بأيهما ، ويرحب بهما جميعا . ومثل هذا الرجل أو المرأة لا يقهر وليس فى الحياة أو الموت ما يرهبه ، ان من يصل الى هذه الدرجة يمتلىء بقوة ينبعث اشعاعها وأثرها فى العالم المحيط به .

أذكر هذه الكلمات :

لا تخف الحياة ولا الموت ولا ترهب الردى ولا تطلبه ، فان بلغت هذه الدرجة عرفت حقيقة الحياة وحقيقة الموت ، انهما فى الواقع مظهران (للحياة) .

وننتقل الى القاعدة الثالثة .

(اقتل الرغبة فى الترف) ، ظاهر هذه القاعدة حض على الزهد الشديد ولكن ليس هذا حقيقة معناها . ان الكثير مما

يسمى تقشفا وزهدا ما هو الا فرار من الأشياء التي نعتبرها مسارة ممتعة .

يعتقد معظم الذين على شىء من التمسك قل أو أكثر بأى دين من الأديان أن الشىء الذى يبعث فى النفس السرور واللذة يجب حتما أن يكونه شرا ، حتى لقد كتب كاتب (انه لشىء محزن حقا أن نرى كل الأشياء السارة الجميلة فى الحياة شرورا ، والتمتع بها خطايا وذنوبا) .

ويبدو أن هناك عقيدة سائدة بأن الله يجد مسرة فى مصائب الناس وفى رؤيتهم تعساء عاملين مالا يسرهم حتى ان الكثيرين ممن يوصفون بالتدين يعبسون لمباهج الحياة العادية يعيشون وكأنهم يؤمنون بأن الابتسامه ، مجرد الابتسامه عمل يغضب الله . وهذا خطأ فكل ما يسر من الطيبات قد أعطى للانسان حلالا يتمتع به على ألا يصبح الانسان خاضعا لشىء من هذه الأشياء .

يجب أن يكون الانسان دائما سيدا لا عبدا لمباهج الحياة .

فى بعض الطرق توصى التعاليم بتنمية الارادة وتقويتها وفى سبيل ذلك تفرض على المريدين رياضات تتضمن أمورا كريهة قل من يستطيع الصبر عليها ، ولكن فرض هذه الرياضات ما هو الا لتقوية الارادة فى الانسان ، وليس لأن فى الأمور الكريهة

نفسها فائدة أو لأن الحرمان نفسه فيه فضيلة ، انما الفكرة كلها في أن تتمرس الارادة بالمقاومة والصبر على الحرمان من الأشياء ، والصبر على الأعمال التي لم يتعودها الانسان ، فان ممارسة تلك الخطة واتباعها يولد حتما قوة الارادة .

ان الامتناع عن متعة أو القيام بعمل فيه مشقة كالامتناع عن الطعام في الصيام أو قيام الليل للصلاة رياضة شبيهة بتمرين عضلة على تحمل مالا عهد لها به حتى تقوم به في يسر وسهولة . هذه رياضات ومناسك فيها خير وربما نعود للحديث عنها ان أتاحت الفرصة في الدروس القادمة . ان الصيام أياما والصلاة دأبا لهما قيمة على هذا الأساس المشار اليه ، قيمة كبيرة لمن ينعم النظر .

ونعود الى موضوعنا ، ان القاعدة لم توضع للحض على التقشف ، فالروحانية لا تصر عليه حتما ، انها تأمر الرجل بعدم الانهماك في ملذات الحياة ومتعتها والتعلق بها حتى تستهويه فيصرف اليها فيتوقف عن التقدم وعن الوصول بالنفس الى علاها ، فان الانسان قد تبطره النعمة اذا زادت فتدمره . ولقد عرفت حالات كثيرة عمدت فيها القدرة العليا الموكول اليها الاشراف على (الطريق) ، عمدت الى الرجل فجردته من تلك الأشياء

التي عاقت تقدمه ووضعته تلك القدرة في المركز الذي يرغبه على الحياة العادية وبذلك يمكنه أن يتقدم في سبيله .

ان الروحانية تدعو الى البساطة في العيش فانها ترى أن الانسان اذا كثرت الأشياء التي يملكها كان عرضة لأن يدع تلك الأشياء تتملكه بدل أن تكون ملكا له فيصبح عبدا لها بدل أن يكون سيدها .

(قتل حب الترف) لا يعنى أن ينام الانسان على الخشن من الفراش كأننا ذلك فضيلة يتقبلها الله بالرضى ، ولا أن يأكل الانسان كسرات يابسات طامعا من وراء ذلك في رضى الله ، فليس في أى العاملين في ذاته مرضاة الله ، ان الله سبحانه لا يرضى أن يرى أحد عياله (والخلق عيال الله) قائما بعمل فيه جهالة تقرب من العته . ولكن القاعدة تفرض علينا ألا نجري وراء أى نوع من الترف وألا نتصور أن السعادة الحققة تكسب بمثل هذه الوسائل . تمتع بالعادى المعقول من مباحج الحياة ، ولكن كن دائما محتفظا بسلطانك عليها ولا تسمح لها بأن تجمع بك واذكر دائما أن السعادة تأتيك من داخلك وان هذه المتع وهذا الترف ليسا من مستلزمات الرجل الحقيقى . وانها يجب أن تستعمل فيما جعلت له وألا يجعل لها شأن أكثر من قيمتها .

ان المتع وأسباب الترف من أعراض الدنيا الزائلة ولا يصل تأثيرها الى الروح والرجل المتقدم في الطريق يستعمل هذه الأشياء كآلات أو عدة وربما استعملها كلعبة يلهو بها عندما يجد ألا محيص من المشاركة في لهو الحياة الذي يشغل الناس ولكنه في هذا كله يعرفها على حقيقتها فلا ينخدع بها ويجد من السخف الظن بأنها ضرورية لاسعاده .

وكلما تقدم الانسان روحيا مال ذوقه الى البساطة ، قد تعجبه الأشياء الممتازة في صنعتها ونوعها وتصلح لما خلقت له خيرا من مثيلاتها ولكن القليل منها يفي بحاجاته فان الاستكثار لغرض التفاخر والتظاهر يصبح غريبا على ذوقه وميوله . انه لا يقتل في نفسه هذا الذوق وهذه الميول ولكنها من نفسها تتحول عنه وتتركه لأنها تجد ربوع عقليته أصبحت غير صالحة لاقامتها فيها .

واذكر أن القاعدة الرابعة تأمرك بأن (تكون سعيدا مثل أولئك الذين يعيشون من أجل السعادة) ، فهذا يضع حدا للعبوس والتجهم ، انها تقول (كن سعيدا) ولا تقول تظاهر بأنك سعيد ، انها تأمرك بأن تكون سعيدا كمن يتخيلون السعادة المزعومة في الأشياء المادية المحيطة بهم .

هذا هو التعليم الصحيح ، فيجب أن تعيش مرحا مستخلصا ما استطعت من السعادة الصحيحة من كل ساعة تمر بك .

الرجل الروحاني ليس ذلك المتجهم للحياة المتبرم بها ، العابس
المقطب جبينه اظهارا لنفوره منها ، ولو أن السائد هو تقيض
هذا القول .

ان تفهمه للحياة يرفعه فوق مخاوف البشر ، وعلمه بمصيره
يرفع معنوياته ويمكنه من أن يعلو فوق العاصفة ، ويتسنى موج
بحر الحياة مستسلما لاندفاعها ترفعه كل موجة على صدرها
فلا يتلعه الموج ، حتى اذا أصبحت الحياة ثقيلة العبء كرية الحمل
فما عليه الا أن يرتفع بنفسه الى هدأة رحاب العقل العليا حيث
يجد السلام والطمأنينة اللذين يلازمانه عندما يقفل راجعا لمواجهة
تجارب الحياة وأعباء الأيام من جديد .

انه أسعد الناس لأنه تخلص من الخوف ، اذ علم أن ليس
في الوجود ما يخشاه ولأنه جاوز طور خرافات الناس ، تلك
الخرافات التي تنقص حياة الكثيرين وتجعلهم في هم مقيم .

انه نبذ الكراهية والحقد وراء ظهره وأحل مكانهما الحب ،
ولا شك أنه أصبح بهذا التغيير أسعد من ذي قبل .

انه يعلم أنه صنيعه الله وأنه من عياله الذين خلقهم لغرض
جليل وان الله مثله كمثل الأب الرحيم ، نعم بل والأم الرؤوم
لا الحاكم القاسى .

انه أدرك أنه قد بلغ أشده وأن مصيره الى حد ما قد أصبح
في يد نفسه ، ان الرجل الروحاني متفائل بطبعه يرى أن كل ما في
الوجود خير يعمل لما فيه الخير وأن الحياة تتطور نحو الكمال وأن
الحب يملأ الوجود فوقه وتحتة وفيه كله .

هذه كلها حقائق تشرق معرفتها على الروحاني وهو يتقدم
بالروح ويزداد تقدما في الطريق فيسعد ، انه أكثر سعادة ممن
يعيشون منقطعين للبحث عن السعادة .

ابحث في القلب عن مصدر الشر واقتلعه . ان الشر ينمو
ويترعزع في قلب المرید المخلص وقلب صاحب الأطماع على
السواء ، وأولو العزم دون غيرهم هم الذين يقضون عليه ، أما
الضعاف فانهم يتركونه ينمو ثم يثمر ثم يجف ويموت . والشر
شجرة تعيش وتنمو حتى تؤتي ثمرتها بعد مراحل عدة فمن أراد
سلوك طريق العزم فعليه أن يقتلع هذا الشيء من قلبه وعند ذلك
يدمى القلب حتى تكاد الحياة أن تبدو في طريق الزوال . هذه
تجربة لا بد من اجتيازها ، قد تحدث عند أول درجة من
درجات السلم المحفوف بالمكاره ، الذي يؤدي الى الدخول في
طريق الحياة وقد لا تحدث الا في المراحل الأخيرة . ولكن أيها
المرید تذكر أنه لا بد من اجتيازها ، فاجمع همتك واعقد عزيمة
نفسك لمواجهةها .

عش لا في الحاضر ولا في المستقبل ولكن في الأبد ، ان هذه
النبته الجبارة لا تعيش في ظلال الأبدية . ان هذه الوصمة في جبين
الوجود تمحى في جو التفكير الأبدى .

هذا التحذير مجمل للقواعد الثلاث كما أوضحته القاعدة
الرابعة . انها تأمر الطالب أن يبحث في قلبه عن التفكير في الحياة
على المستوى المادى وأن يقتلع هذا التفكير . ان هذا التفكير يحمل
معه الجانب الأنانى من طبيعتنا ، ذلك الجانب الذى يجعلنا نحسب
أنفسنا خيرا من اخوتنا وأنا منفصلون عن الكائنات المماثلة وان
لا اتصال بيننا وبين سائر المخلوقات ، وانا مستقلون عن موكب
الحياة . ان هذا تفكير الجانب السفلى من العقل أو طبيعتنا الحيوانية
مهذبة نوعا ما ، هذا الجانب الذى فيه الشهوات والرغبات
والعواطف التى توجد على مستوى منخفض . ان هذه الأشياء
ليست شرا في نفسها ولكنها خاصة بمستوى منخفض من
مستويات الحياة ، المستوى الحيوانى الذى فرغنا من اجتيازه
أو نعمل على الفراغ من اجتيازه لترقى الى مستوى الانسان
الصحيح .

ولكن هذه النزعات الحيوانية تكونت في أجيال طوال ،
فاستقرت في قاع طبيعتنا ، ولذلك فان استئصالها يتطلب جهد
الأبطال ، والسبيل الوحيد لزعزعتها هو أن نحل محلها طريقة

تفكير أعلى منها ، ويحسن في هذا المقام أن نلفت النظر الى مبدأ مقرر في التربية الروحية ، تقصد بذلك أن العادة السيئة من السهل التخلص منها اذا استعضنا عنها بعادة طيبة مضادة لها . فان الاقلاع عن عادة سيئة بقوة الارادة عنوة واقتدارا عمل يحتاج الى قوة فوق طاقة البشر ، ولكن ازهاقها بالتضييق عليها بغرس عادة مضادة لتنمو وتحل محلها أسهل بكثير ، وتلك هي الخطة التي تسلكها الطبيعة ، فان العادة الطيبة ستزحم العادة السيئة حتى لا تستطيع البقاء وعندئذ وبعد معركة في سبيل الحياة تجود بالنفس الأخير ، وهذا هو خير طريق للتخلص من العادات والميول غير المرغوب فيها .

ونعود الى هذه النزوات الحيوانية فنذكر منها الرغبة الجنسية (على المستوى الجسدى ، لأن الرغبة الجنسية لها نواح غير هذه الناحية الجسدية) والبغضاء والحسد والحقد والغيرة والرغبة في الانتقام وأخذ الثأر وحب السلطان وتمجيد النفس ، فكلها من هذه النزوات . أضف اليها داء الكبرياء فانه من أخطر أدوائها وأخفها ، لأنه يرجع كرة بعد كرة بعد أن نطن أننا تخلصنا منه وأنه ذهب الى غير رجعة ولكنه في كل مرة يرجع في ثوب جديد فاذا تغلبنا عليه في المحيط المادى ، عاد وبرز في المحيط العقلى ثم يعود كبرياء بما أحرزنا من قوى النفس ثم يعود كبرياء بما

أحرزنا من تقدم روحى ، فهو دائم العودة ، اذ تحدثنا النفس بما حصلنا من علم بزنا به الغير فاذا رددناه عاد يخطر فى القلب متحدثا عما بلغنا من قوة الخلق والتعفف ثم عن الدرجة التى وصلت اليها الروح من المعرفة وتفوقنا فى الصلاح والتقوى على غيرنا وهو فى كل مرة شر اذا استسلمنا له اقطع بنا السبيل ، وأساس وجوده فى كل حال اعتقاد الانسان بأنه منفصل عن الوجود وأنه قائم بذاته ، مما يولد فى النفس حب المنافسة مع الغير وما يتبعها من خصومة وتناحر وعلاجها الاعتراف بأننا وأخوتنا أجزاء فى الوجود ، البعض متخلف مازال يقتلع أقدامه من أوحال المادية فى أسفل مراحل الطريق والبعض يسير مكافحا على نفس المستوى الذى نجتازه نحن ، كما أن بعضا آخر قد سبقنا بمراحل ولكن الجميع على الطريق ، نحن وأخوتنا جزء من الحياة العظمى . احذر الكبرياء الباطل ، العدو الأكبر للتقدم ، اقتلعه وانغرس مكانه التفكير الأسلم والأصح وهو أننا جميعا من أصل واحد أمامنا جميعا مصير واحد وان أمامنا طريقا واحدة علينا أن نقطعها . نحن جميعا اخوة وأخوات وكلنا عيال الله ، كلنا تلاميذ صغار فى روضة أطفال الحياة .

ونحن وان كان كل منا سيواجه امتحانا قاسيا بمفرده عليه أن ينجح فيه قبل أن ينال اجازته ، الا أننا جميعا متشابكون مترابطون كأعضاء الجسد الواحد ، اذا شكا منها عضو تداعى له سائر

الأعضاء . وان خطيئة الفرد خطيئة المجتمع وأنا أفراد جنس يسعى
كله للتقدم نحو الكمال وأن الحب والشعور بالأخاء خير ما يتطلع
اليه الانسان .

ان الغرائز الحيوانية مازالت فينا تفرض نفسها دائما على
تفكيرنا ويتعلم الروحانيون الحد من هذه الغرائز والسيطرة عليها
واخضاعها للمثل العقلية العليا التي تشرق على أفق تفكيرهم
ووعيمهم ، فلا يفتن في عضدك انك لا تزال تجد في طبيعتك الكثير
من طبيعة الحيوان فانها فينا جميعا والفرق الوحيد هو أن بعضا
منا استطاع السيطرة على الحيوان فقيده ووضعته تحت سلطان
الجانب الأسمى من طبيعته خاضعا له ، بينما يسمح البعض الآخر
للحيوان أن يسيطر عليهم ويتحكم فيهم فيرتعدون وتعلو وجوههم
صفرة الخوف اذا كشر الحيوان عن نابه ، غير عالمين أنهم اذا أظهروا
الحزم وحكموا سلطان العقل خنس الوحش ولاذ بركن ناء أو رضى
أن يجثم وراء قضبان كبح النفس .

فاذا بدت من الحيوان انتفاضات متتالية محاولا أن ينطلق
ليعود الى سابق سلطانه عليك فلا يهولنك الأمر ، فليس هذا دلالة
على ضعفك وانما هو دليل على أن نموك الروحي قد بدأ ، فانك
الآن بدأت تتعرف وجوده وتخجل منه بينما كنت من قبل لا تشعر
به ولا تتخيل وجوده لأنك كنت الوحش نفسه ، ان خجلك من

وجوده فيك دليل على أنك بدأت تفرق بينه وبين نفسك وتنفصل عنه . انك لا تستطيع أن تراه إلا اذا بدأت تختلف عنه . تعلم ترويض الحيوانات المفترسة فان في كيانك سر كما كاملا منها . ان فيك السبع والنمر والضبع والقرد والخنزير والطاووس وغيرها من كل نوع ، كل منها يحاول أن يظهر فيك شيئا من خصاله ، لا تخفها ولا تخشها . ابتسم لها كلما ظهرت لأنك أقوى منها وأنت على اخضاعها قدير . وظهورها يفيدك لأنه ينبهك لوجودها دائما . انها ثلة مسلية عندما تبلغ المرحلة التي تستطيع فيها أن تقف جانبا تراقبها وهي تقوم بحركاتها وتظهر خصالها عند ذلك تتأكد بأنك لست اياها وأنتك شيء آخر غيرها منفصل عنها فلا تحفل بها لأنك أنت السيد المسيطر عليها .

بينما يحوى الجزء المتقدم الذى اقتبسناه من (ضوء على الطريق) كل المظاهر المشار اليها من الطبيعة الحيوانية ، يبدو أنه يركز الضوء على ذلك الوهم الذى يسيطر على النفس السفلى ، وهم الانفصال عن الوجود ، ذلك المظهر الذى أطلق عليه (تمثيلية الوجود) التى تحملنا على أن نتخيل أنفسنا أشياء منفصلة عن بقية المخلوقات وأن نتصور أنفسنا أحسن وأعلى وأقدس من بقية الجنس البشرى . ان مظهر هذا الوهم هو احساس الكبرياء أنه طبيعة الطاووس في تلك الجماعة من الحيوانات الموجودة فينا ،

والكبرياء كما أسلفنا من أخطر غرائزنا لخفائه عنا والحاحه علينا .
وقد قالت المؤلفة عنه (انه يعيش في قلب المرید المخلص كما يعيش
في قلب رجل الشهوات) . وقد يبدو هذا لك عجبا ولكن تجارب
كل الذين قطعوا في الطريق مرحلة أكسبتهم خبرة ومعرفة تؤكد أنه
بعد أن اعتقد السالك أنه ترك الكبرياء وراءه اذا به يذهله أن يراه
وقد عاد للظهور في ثوب جديد ، التيه بقوة النفس — الكبرياء
بقوة الفكر — الكبرياء بما أحرز من تقدم روحي . واذن فعليه أن
يعود الى الطريق من أوله وأن يعيد العمل من جديد . ولكن لا بد
من التنويه بأن هناك نوعا من الكبرياء ليس من مظاهر النفس
السفلى يمكن تسميته الكبرياء المطلق أو المجرد absolute pride اذا
وافقتم ، نريد بذلك ، الاعجاب بالأشياء مجتمعة ككل ، والاعجاب
بأن هذا الكل عظيم عظمة تدعوننا الى الكبرياء والتيه بأنا جزء من
هذا الكل العظيم ، وأن قوتنا المفكرة انما هي جزء من العقل
الكلّي ، وأن ما وصلنا اليه من تقدم روحي انما هو جزء من
امكانيات البشرية . وأن مستقبل البشرية ينتظرها فيه من العظمة
شيء كثير ولكن حد الخطر في هذا التفكير لا يبدأ الا عندما
نستبعد فريقا من البشر من هذا الاعجاب وننظر اليهم نظرة الكبير
الى الصغير . عندما تفصل جانبا ولو ضئيلا ونجرده من هذا

الكبرياء الكلى فى هذه اللحظة نجعل منه كبرياء شخصيا .

عندما نقيم على الكبرياء سورا خارجه ولو فرد واحد من البشرية نراه غير جدير بهذا الكبرياء ، نصبح مصابين بداء الكبرياء الممقوت . ان الوجود لا خارج عنه . ما دمت تحس بعظمة الوجود كله بدون استثناء فلا كبرياء فيك ، أما اذا أفردت نفسك وحدك أو مع طائفة تشمل البشرية كلها وتركت فردا واحدا لم تشمله هذه الطائفة فأنت فريسة الكبرياء . يجب ألا يترك آخر رجل انه لا يمكن أن يترك ، ليس فيك ولا فى أى انسان صفة أو استعداد لصفة ليست لسائر البشر يصلون الى التحلى بها مع الزمن ، وكل ما تخاله سموا أو امتيازا انما هو مسألة وقت ، انه مزيد من الخبرة لاغير ، ان كبرياءك هو غرور الطفل الذى غادر لتوه روضة الأطفال ودخل المدرسة الابتدائية اذ ينظر باحتقار الى الأطفال الذين يهرعون للدخول الى المكان الذى غادره هو لتوه ، كما أن الأطفال الذين فى الفصل الأعلى من فصله ينظرون اليه نفس نظرتهم ، ولكنه لا يدرك ذلك انه يتخيل أنه (كبير) تاركا خيلاء الطاووس تملكه .

وقبل أن تترك هذا التشبيه نود أن نقرر أن للطفل الحق فى تيهه بما أحرز من تقدم ولا جناح عليه أن يتيه ولكن خيلاء الطاووس تبدأ عندما يتحول تيهه واعجابه بنفسه الى احتقار من هم دونه . ان هذه هى مادة السخف فى الكبرياء . الشعور بالتفوق

على من لا يزالون في الدرجات الدنيا . فالشعور بالفرح وبالرضى
عن النفس لما أنجز الانسان من عمل وما أحرز من تقدم لا ضير فيه
ولا لوم على صاحبه ولكن الذى يجب أن نحذره هو ما يصاحبه
من شعور التعالى على الذين ما زالوا يتسلقون السلم صاعدين الينا
فهنا سم الكبرياء اقتلع حمة عقرب الكبرياء يصبح الكبرياء
ولا ضرر فيه .

إذا أحسست فى وقت ما ميلا الى الاعتزاز بالنفس أو الغرور
فاذكر أنك بالقياس الى بعض الذين سبقوك منذ أمد بعيد فى
اجتياز هذا الدور الذى ما زلت فيه أذكر أنك بالنسبة اليهم
كالحشرة اذا قيست بك ، وان أرفعنا مقاما يبدو لتلك الأرواح
السامية كما تبدو لنا مجموعة من الجراء تقع على بعضها وهى
تقلب وتنكفئ وتتقاتل وقد تفتحت عيونها على الحياة منذ لحظات
قصار . اذكر ذلك اذا حدثتك نفسك بالعظمة الكاذبة فان ذلك
يكف عنك غربك ويريك مكانك على سلم الارتقاء ولكنه لا يحقر
شأنك ولا يصغر قدرك فانك مهما انحط مكانك قد قطعت مرحلة
طويلة وبلغت درجة من التقدم لك فيها أشياء عظام وانك لن
تظلم فتىلا ، ولكن اعلم أيضا أنك لست وحدك الذى يسير قدما
نحو تلك الأهداف ، ان الناس جميعا فى موكب الحياة يسرون نحو

هذه الأهداف السامية حتى آخر انسان في هذا الموكب^(١) . واعلم ان المستوى الأبدى لا مكان للكبرياء فيه ، ان الادراك الصحيح قد قضى عليه ، وهذه النبتة العاتية لن تزهر ولن تثمر هناك . ان هذه الوصمة على جبين الوجود يمحوها مجرد التفكير الأبدى ، وسنواصل الحديث في الدرس القادم تنمة لتعليقنا على هذه النبذة من الكتيب .

(١) دعوت الناس الى الله أربعين سنة فلما يئست منهم اتجهت الى الله فوجدتهم سبقونى اليه (الجنيد)
(المترجم)

الدرس الثانى

مزيد من الضوء على الطريق

قبل أن ننتقل الى دراسة القاعدة التالية يجب أن نوجه النظر الى تلك النبذة من كتيب (ضوء على الطريق) التى كنا بصددتها فى نهاية الدرس السابق واضطررنا لتأجيلها لهذا الدرس لضيق المقام .

(عش لا فى الحاضر ولا فى المستقبل ولكن فى الأبد) . لقد حيرت هذه الجملة كثيرين من الطلاب نظرا لأن التعاليم أوجبت عليهم أن يعيشوا فى الآن وأن ينظروا الى المستقبل على أنه ميدان التقدم والرقى وهذه العبارة تبدو كأنها تتجه اتجاها مضادا للتعاليم السابقة ، ولكن الأمر كله يتوقف على وجهة النظر ، ان كانت الناحية المطلقة أى المجردة Absolute أو النسبية Relative وسنحاول أن نوضح هذا لكم .

انه خطأ أن يعيش الانسان فى الحاضر على أنه شىء مختلف عن المستقبل أو أن يعيش فى المستقبل (فى الخيال) على أنه شىء منفصل عن الحاضر ، خطأ ناشىء عن النظر نظرة نسبية الى الحياة .

انها الغلطة القديمة التي تجعلنا نفرق بين الزمان بأقسامه الثلاثة
والأبدية ، النظرة المطلقة تجعلنا نرى أن الزمان والأبدية شيء
واحد ، انها ترىنا أننا في الأبدية الآن في هذا الوقت الحاضر تماما
كما سنكون في أى وقت في المستقبل . انها تمحو الخطأ الناشئ
عن وضع خط عريض فاصل بين وقت الحياة الفانية والأبدية التي
ندخلها عندما تترك هذا الجسد . انها ترىنا أننا في الأبدية هنا في
هذا الجسد من اللحم والعظم ، انها تكشف لنا عن أن هذه الحياة
ما هي الا جزء ضئيل متناه في الضآلة - ذرة - في الحياة
الكبرى ، انها ترىنا أن حياتنا هذه ما هي الا شروق الشمس في
اليوم العظيم ، يوم الوعي . وان اعتبارنا حياتنا القصيرة هذه كل
شيء انما هو أبعد السخف في الجهالة البشرية . ولكن حذار من
السقوط في خطأ الذهاب الى النقيض باحتقار الحياة الراهنة جريا
وراء الحياة الأخرى ، اذكر أن اللغز دائما يستعمل في التعبير عن
الحقيقة ، واذكر الجانب الآخر من الدرع . ان احتقار الحياة
الدنيا لا يقل سخفا عن التعلق بها واعتبارها كل شيء . فان اخترنا
هذا السبيل ارتكبنا خطأ (الحياة في المستقبل) الذي حذرنا
الكتاب من الوقوع فيه . ان هذه الحياة (مهما كانت قصيرة وتافهة
بالنسبة للحياة الكبرى) لها أعظم الأهمية بالنسبة لنا . انها دور من
أدوار تطورنا ، نحن في أشد الحاجة اليه ويجب ألا نغفله أو نحقره

اننا وضعنا في مكاننا حيث نحن الآن لأنه خير مكان لنا في مرحلتنا هذه من التطور ولا يجعل بنا أن نضيع هذه الحياة في مجرد الحلم بالمستقبل ، فان علينا واجبات تؤديها ودروسا تتعلمها ولن نستطيع التقدم حتى تقوم خير قيام بأداء ما علينا من التزامات وواجبات في الوقت الحاضر .

ان هذه الحياة ليست هي (الكل) ولكنها جزء من الكل ، اذكر ذلك جيدا . وتزول الصعوبات الناشئة عن التفرقة بين المستقبل والحاضر عندما ننظر اليها من وجهة النظر المطلقة ، فعندما تتحقق من أن الأبد هو الشيء الوحيد الحقيقي وأن (الآن) هو كل ما نستطيع أن ندركه من الأبد بقوتنا الواعية وأن (الآن) يرافقنا دائما ومهما قطعنا من الوقت فنحن في (الحاضر) دائما ، عندما نعي ذلك يزول ما كان (للمستقبل والحاضر) في أنفسنا من معان ويصبح (الزمان) و(الأبد) ويصبح الأمس واليوم والغد ، يصبح هذا كله مظاهر مختلفة اختلافا بسيطا (للآن) الأبدى العظيم الذي نعيش فيه كل لحظة من لحظات وجودنا .

ان عيشنا في الأبد يجعلنا تتمتع بكل لحظة من الحياة الحاضرة ويجعلنا ننظر الى المستقبل بغير خوف لأننا نعتبره جزءا من هذا (الآن) الذي نعيش فيه ويجعلنا نحس الحياة الحقيقية وماهيتها ويجعلنا نشعر بمعنى (أنا موجود) ، وأن ندرك الأشياء على

حقيقتها ، وبالاختصار يجعل للحياة واقعية ليست لها بغير هذا
الوعى ويجعل الاعتبارات السابقة العتيقة تتساقط كأوراق الورد
الذابلة . وكما تقول مؤلفة كتاب (ضوء على الطريق) :

« ان هذه النبتة الجبارة لا تستطيع الازدهار هناك . هذه
الوصمة على جبين الانسانية يمحوها جو التفكير الأبدى » .

٥ — « اقتل كل احساس بالانفصال » .

٦ — « اقتل الرغبة في اشباع الحواس » .

٧ — « اقتل الرغبة في النمو » .

٨ — « ومع ذلك قف وحيدا معتزلا فما من كائن ولا شيء
ما يحس بنفسه منفصلا ولا شيء غير الأبدى يستطيع أن ينفك
أو يساعدك . تعلم من رغبات الحواس وراقبها فبذلك وحده تستطيع
أن تبدأ علم معرفة النفس فتضع قدمك على أول درجة من درجات
السلم . انهم كما تنمو الزهرة بلا وعى ولكن شغوفة مشوقة
لتفتح نفسها للهواء ، كذلك يجب أن تشد الرحال نحو تفتح نفسك
لما هو أبدى ، ولكن يجب أن يكون ذلك الأبدى هو الشيء الذى
يجذب قوتك وجمالك نحو النمو ، لا أن تكون الرغبة في النمو
هى التى تدفعك ، فان نموك فى الحالة الأولى يكون كسبا فى ميدان
النقاء والازدهار ، وفى الحالة الثانية تقسو وتزداد صلابة بتأثير
الشهوة القوية فى تضخم القوام الشخصى .

هنا — مرة أخرى — تواجهنا مجموعة من القواعد الثلاث الأولى الملهمة تشير علينا بأن نقتل أشياء معينة ، ورابعها تأمرنا (في الظاهر) بأن تفعل نفس الأشياء التي نهينا بالثلاثة الأولى عن فعلها ، وهذا مثل آخر للغز الإلهي الذي يقف وراء التعاليم الروحانية — انه جانباً الدرع .

اقرأ ما قلناه في الدرس الأول من جديد فان ما قلناه هناك عن هذا الموضوع ينطبق على كل قواعد (ضوء على الطريق) .
تقول لنا القاعدة الخامسة (اقتل كل احساس بالانفصال) .
والقاعدة الثامنة تظهرنا على الجانب الآخر للدرع فتقول (ومع ذلك قف وحيداً معتزلاً فما من كائن ولا شيء مما يحس بنفسه منفصلاً ولا شيء خارج عن الأبدى يستطيع أن ينفعك أو يساعدك) .

هنا تلقى الينا حقيقتان حيويتان ، وما الحقيقتان الا جانبان مختلفان لحقيقة واحدة ، فلنتدبر ذلك الشعور بالانفصال الذي يجعلنا نشعر كأننا نحن من طينة غير طينة غيرنا من الرجال والنساء والذي يجعلنا نشعر بأننا بررة أتقياء ، ويجعلنا نحسد الله على أننا نختلف عن الناس وأننا أحسن منهم ، شعور خاطيء سببه النظرة المقيدة النسبية .

ان الروحاني الذي قطع مرحلة من الطريق يعلم أننا جميعاً أجزاء (الحياة الواحدة) نختلف فقط تبعاً لنمونا الذي يتيح

الفرصة للعناصر السامية من طبيعتنا أن تبدو علينا وتظهر فينا .
أما الأخ المتخلف فانه الآن حيث كنا فيما مضى ، ولا بد يوما أن
يحتل المكان الذي نشغله نحن الآن ، وكلانا ، نحن وهو ، سنواصل
التقدم متسامين الى مدارج أعلى . فاذا أحسن تعلم دروسه خيرا منا
فقد سبقنا ويتقدم علينا ، وعلاوة على ذلك فان حياتنا مرتبطة بحياة
غيرنا من النساء والرجال ؛ فاننا نشارك في الظروف التي تؤدي بهم
الى الخطيئة والعار . اننا نسمح بوجود حالات وبيئات في حضارتنا
تساعد كثيرا على الجريمة والشقاء . ان كل لقمة ناكلها وكل ثوب
نلبسه وكل قرش نكسبه كلها كانت على صلة ما بغيرنا من البشر .
فحياتنا وحياتهم تتشابك . نحن نمس البشر جميعا في ألف نقطة
ونقطة .

ان قانون العلة والمعلول أو السبب والمسبب قد يؤلف بين
الرجلين ، وبينهما ما بين القطبين من فارق ، فيجعل منهما شريكين
متلازمين ، وما يسمى خطيئة قد يكون نتيجة الجهل أو المواهب
الموجبة توجيهها خاطئا ؛ فلو أننا كنا مكان الخاطيء — في نفس
ظروفه — من مزاج وتعليم وبيئة وفرص ، ترى أكنا نتصرف خيرا
من تصرفه بكثير ؟

ان الحياة كلها تسير على الطريق — نحن جميعا نتقدم ببطء
تزل بنا القدم فنرجع للوراء خطوتين من كل ثلاث خطى نخطوها

للأمام ، مسجلين رغم هذا التقهقر تقدما صافيا قدره خطوة واحدة ،
وكل فرد في الحقيقة يبذل قصارى جهده ليعمل خيرا ما يستطيع
وان دلت ظواهر الحال على غير ذلك . ليس بيننا من هو صالح
(جدا) أو كامل فلماذا التسرع اذن في ادانة الغير ؟ ليكن رائدنا
أن نسدى يد العون كلما وجدنا الى ذلك سبيلا ، ولكن لتتحاشى
أن تقول لأحد (أنا أتقى منك وأطهر) ولتتبع قول المعلم العظيم
الذى نهانا عن أن نقذف الخاطيء بأول حجر الا اذا كنا بلا خطيئة .
يجب أن نتقى الشعور بالتفرد فانه شر حائل السقوط وأصل
كل خطيئة .

والآن لنعد الى الجانب الآخر من الدرع (لتتعلم أن تقف
وحدنا) — هذا الدرس الذى يجب أن تتعلمه لترتقى ، هو أن
حياتنا ملكنا الخاص بنا ، ويجب أن نحياها نحن أنفسنا ، فلا يمكن
أن يحمل عنها أحد ، كما أننا لا نستطيع أن نحمل عن غيرنا عبء
حياته . يجب أن يقف كل واحد على قدميه لا يستند على أحد فكل
يؤدى حسابه عن أعماله وكل سوف يحصد ما زرع وكل يسعد
أو يشقى تبعا لعمله ، والانسان مسئول أمام الله وضميره فقط
ولن يجد عوننا بعد الله الا نفسه ، وكل نفس عليها أن تنسج بيديها
مصيرها ولا تستطيع نفس أنه تقوم عن نفس بسعيها .

ان كل نفس تحوى فى كيانها نور الروح الذى يمدّها بكل

ما تفنقر اليه من عون وسند ، ويجب على كل نفس أن تتعلم التطلع الى النجدة في حنايا نفسها .

يجب على النفس التي تريد أن تنمو أن تتعلم دروس الشجاعة والاقدام والاعتماد على النفس ، وكما تعلم أن شيئاً من الخارج لا يملك لها تمعا فان شيئاً من الخارج كذلك لا يملك لها ضرا . فان استقر هذا في الروح (الأنا EGO) كان استقراره درعا يحمى من الضر والأذى . ان النفس أبدية غير قابلة للفناء لا تفرق في الماء ولا تحرقها النار انها كائنة وستظل كائنة الى الأبد .

ان على النفس أن تتعلم أن تقوم منتصبه على قدميها هي . فان احتاجت الى عون لا يخذلها ، عون له قوة وحكمة لا حدود لهما فلتتجه الى الفرد الصمد ، هناك كل ما تحتاج اليه .

القاعدة السادسة تقول (اقتل الرغبة في اشباع الحواس) «kill out desire for sensation» . وتقول الثامنة (تعلم من رغبات الحواس وراقبها فبذلك وحده تستطيع أن تبدأ دراسة علم معرفة النفس فتضع قدمك على أول درجة من درجات السلم) . هذا لغز آخر فلنبحث عن مفتاح حله .

التحذير في القاعدة السادسة يأمرنا بأن نكف عن الرغبة في اشباع رغبات الحواس . فلذات الحواس تتعلق بمستوى المادة النسبي اذ نبدأ أول الأمر مباشرة ما تستريح اليه الغرائز

الدنيا ثم مع الوقت تتدرج الى ما تستريح اليه احساسات تسمو على الأولى ، وبذلك نسمو على الاستمتاع ببعض هذه اللذات الدنيا وتتدرج من اللذات الدنيا الى متع أسمى وأرفع .

ان ارضاء الحواس في الانسان يتطور من مستوى الى مستوى أرفع ، فما كان يحسه الانسان من لذة ومنتعة بالأمس يجده اليوم باعثا لاشمئزازه ، وهكذا سوف يكون الحال كلما ارتفع المستوى الذي يعيش فيه الانسان من مستويات التطور ، وارتقى على سلم الحياة . لذلك يجب أن تتخلص من القيود التي تربطنا باشباع الحواس . فان أمام النفس متعا أسمى وأعلى ، ان لذات الحواس لها ما يبررها في أوانها ومكانها ، ولها وظائفها التي تؤديها في عملية تطور النفس ولكن يجب أن تحذر النفس من أن تتقيد بها أو تخضع لها ، فان فعلت فقد أثقلت بذلك خطاها وعاقبت تقدمها فان ثقل المتاع يجب أن يلقى من على الكاهل عند تسلق المرتفعات . ان أصول تسلق المرتفعات هي الواجبة الاتباع (١) .

يجب أن نقطع ما يربط النفس باشباع رغبة الحواس في جراءة

(١) «ومنا من بهره النور بحقيقته حين يقترب حتى يشرق عليه النور فيغمر نفسه ، ولكن لأنه اقترب وهو مثقل بالدنيويات المادية ، تبدد حبه فامحت المشاهدة » أفلوطين التسعية السادسة الفصل التاسع .

حتى تستطيع السير ولهذا (يجب قتل الرغبة في اشباع الحواس)
ويجب أن تنتبه الى أن القاعدة تأمر بقتل الرغبة في اشباع الحواس
لا قتل الحواس نفسها . الرغبة هي التي يجب التخلص منها -
العبودية للحواس .

يجب ألا نجرى وراء اشباع الحواس كما يجب ألا نفر منها
كأنها شر نتوقاه ؛ يجب أن نحول الحواس الى ما فيه الخير بتعلم
دروسها ودراستها والافادة من تلك الدراسة بأن نقدرها حتى
قدرها وبذلك نستطيع أن نتخلص منها .

تقول القاعدة الثامنة (تعلم من رغبات الحواس وراقبها فبذلك
وحده تستطيع أن تبدأ دراسة علم معرفة النفس ، وتضع قدمك
على أول درجة من درجات السلم) وهذا لا يعنى الانغماس في هذه
الرغبات حتى تتعلم دروسها ، فان النفس اذا قطعت مرحلة في الطريق
أصبحت فوق هذا المستوى وبذلك تدرس النفس الحواس ورغباتها
من بعيد فليس من الضروري أن يمارس الانسان نزوة ليدرك ما في
أعقابها من درس .

ان المعنى الحقيقي لهذه القاعدة هو أننا اذا آانسنا من أنفسنا
حنينا الى الاستجابة لرغبة حاسة من الحواس فيجب أن نحل
هذا الحنين في كل نواحيه ونزن كل معانيه ومرامييه بدل أن ننظر
اليه في رعب وتقرز ، فهذه الاحساسات جزء من كياننا انها تتبع

من العقل العريزي (instinctive mind) وهي ميراثنا من المراحل من المراحل الدنيا السابقة من مراحل التطور . انها ليست شرا في نفسها ولكنها لا تليق بنا في هذه المرحلة التي وصلنا اليها . انها ظلال ذواتنا السالفة وانعكاس أشياء كانت مناسبة لنا وكانت طبيعية فينا في أطوار سابقة كنا فيها أكثر شبيها بالحيوان ، ولكننا اليوم قد خلفناها وراءنا .

انك تستطيع بتحليل أعراض هذه الأحاسيس أو النزوات التي بدأت تضعف في طريقها الى الزوال . انك تستطيع أن تتعلم الكثير فيسهل عليك اطراحها والتخلص منها في وقت أقل مما لو تركت نفسك تخاف منها وتعتقد أنها أفعال كائن منفصل عنك له عليك سلطان – اغراء شيطان حقيقي ، انك مع الوقت تتخلص من هذه الأحاسيس والرغبات اذ تحل محلها رغبات أسمى خير منها وأجدر باهتمامك ، يجب أن تنظر اليها كما تنظر الى نفسك لو تملكها الرغبة في القيام ببعض حركات الأطفال التي كانت طبيعية محببة مقبولة منك وأنت طفل ، ولكن قيامك بها الآن يكون شذوذا مقبوتا .

ان الأطفال الذين كبروا وغادروا مراحل الطفولة يجدون عناء كبيرا في الاقلاع عن بعض عادات الأطفال التي تكون مقبولة منهم كمص الابهام أو العبث بخصل الشعر بالأصابع مما يستساغ من

الطفل الصغير ويقابل بالتدليل ولكنها تجلب على الطفل الكبير اللوم والانتذار بالغضب عليه ، ويحتاج من يظل يمارسها وهو كبير الى كثير من قوة الارادة للتخلص منها .

فلننظر نفس النظرة الى رغبات الحواس الباقية من أيام طفولة النفس ، ونعمل على التخلص منها بتفهمها ومعرفة قدرها ومعرفة طبيعتها وتاريخها ومرماها بدل أن نخافها على أنها من عمل الشيطان فليس ثمة شيطان الا الجهل والخوف .

القاعدة السابعة تقول لنا (اقتل الرغبة في النمو) ومع ذلك فان الثامنة تحضنا على النمو (انم كما تنمو الزهرة بلا وعى ولكن شغوفة مشوقة لتفتح نفسها للهواء ، كذلك يجب أن تشد الرحال نحو تفتح نفسك لما هو أبدي ، ولكن يجب أن يكون ذلك الأبدى هو الذى يجذب قوتك وجمالك نحو النمو ، لا أن تكون الرغبة في النمو هى التى تدفعك ، لأن نموك في الحالة الأولى يكون كسبا في ميدان النقاء والازدهار ، وفي الحالة الثانية تقسو وتزداد صلابة بتأثير الرغبة في تضخم القوام الشخصى وعظمة النفس) .

ان كاتبة هذه الكلمات قد أوضحت جانبى هذه الحقيقة بما لا يحتاج الا الى القليل من الايضاح ، حتى للذين هم على وشك دخول الطريق ، فان الحد الفاصل بين الرغبة في النمو ، وبين تفتح النفس التى تسير في الطريق انما هو الدافع أو النية ، فان الرغبة

فى النمو بالمعنى النسبى يقصد بها طلب النمو لاشباع الغرور
وتحقيق رغبات شخصية ، ما هى الا نوع دقيق خفى من التيه
والمعجب ومطامع تسولها النفس كحذق السحر الذى يعتبره
الروحانيون قوة روحية تستغل لتحقيق أهداف أنانية ، أو ربما
لمجرد الشعور بالقوة التى يكسبها الانسان من تفتح النفس
ونموها ، ومهما حذرنا الطلاب فلن نكون مبالغين فى التحذير من
الرغبة فى ممارسة هذه الأشياء ، انها الجانب المظلم من الصورة
وان من ينحدر فى طريقها يلق من العقوبات المروعة — نتيجة
لأعماله — ما يجعل نجاته من هولها رهنا بكفاح مرير آجلا طوالا
قبل أن يعود الى الطريق المستقيم مرة أخرى ، الطريق الذى تشرق
عليه شمس الروح الوضاعة .

نمو النفس النمو الطبيعى ، ذلك النمو الذى يشبه نمو الزهرة
النمو التدريجى حتى لا يكاد يشعر الانسان به يأتى بالبشر
والانشراف بما أعد للنفس من نعيم مشرق بأشعة نور الكون ، نور
السموات والأرض ، النمو الذى تشعر النفس فيه بازدياد ايمانها
واطمنانها لا بقوة طمعها وجشعها . هذا النمو هو الذى يجب
السعى اليه ، ويتم لنا اذا اتجهنا اليه وأسلمنا أنفسنا لمصدر القدرة
وواهب الحياة ، فاذا استسلمت النفس واطمأنت أشرقت الروح
فأضاعت الوعى فاستنار بها .

ان الكثيرين من المريدين يعذبون أنفسهم ويجعلون أساتذتهم
أو شيوخهم يضيقون بهم لالحافهم في السؤال « ماذا أصنع ؟ » .

والجواب الشافي هو « لا تجعل لك من الأمر شيئاً . وضع
نفسك بين يدي الله واتركها تنمو كالزهرة ، انك بذلك تنضج
ومتجد أنك تزداد كل يوم نعمة ، وستجد نفسك عاماً بعد عام تقطع
من الطريق مرحلة بعد مرحلة . قد يبدو لك أنك أنت أنت لم تحرز
تقدماً ، وأنت في عامك هذا كما كنت في عامك السابق . ولكن قارن
نفسك اليوم بنفسك بالأمس يظهر لك مدى تقدمك ، فسر في طريقك
واعمل خير ما تستطيع أن تعمله معنياً بأمر يومك غير مهتم بعقدك
مستمتعاً بما في اليوم من آيات عظمة الله وآثارها ، تاركاً لروحك
قيادك ، ترشدك الى العمل في ايمان وثقة وتعاطف فان فعلت فزت
أيها الطالب بالحسنى ، واعلم أنك على الصراط المستقيم فامض
قدماً في وسطه لا تنحرف فيه الى أقصى اليمين ولا الى أقصى الشمال
مستمتعاً بما يحوطك من جمال يكتنف الطريق مستروحاً ما يهب
عليه من علوى النسمات التي تبعث فيك البهجة ، فان جن الليل
فليكن اطمئنانك اليه كفرحك بالنهار فكل حسن وجميل ، بذلك
تقطع مراحل الحياة غير ضجر بوعناء السفر ، فسر من على
الطريق رجل يعد مراحلها التي قطعها ويحسب ما بقى أمامه من
مراحل عليه أن يقطعها يرى سيره وئيدا ويرى تقدمه بطيئاً ، ذلك

الرجل يجد من مشقة الطريق مالا يجده المستسلم المرح ويصرفه همه واشفاقه من طول الطريق وحزنه على بطء السير عن جمال المنظر الذى يكتنف الطريق ، ان عقله لا يرتسم فيه الا الفراسخ والأميال ، فراسخ قطعها حتى تعب ، وأميال عليه أن يقطعها فتقطع ألقاسه وهو يحصياها .

أى الرجلين أحسن قىلا وأهدى سبيلا ؟

٩ — « اطلب ما فى داخل نفسك فقط » .

١٠ — « اطلب فقط ما تأى عنك » .

١١ — « اطلب مالا سبيل للوصول اليه » .

١٢ — « ففى نفسك نور العالم ، النور الوحيد الذى يمكن

أن يلقى ضوءا على الطريق ، فان لم تستطع أن ترى النور الذى فى نفسك فمن العبث أن تبحث عن النور فى أى مكان آخر . انه ناء عنك لأنك حين تصل اليه تكون قد فقدت نفسك . انه لا سبيل للوصول اليه لأنه دائما ينحسر ويتعد . انك تدخل النور ولكنك لن تمس النار التى ينبعث منها » .

هذه القواعد الأربع الأخرى جزء آخر من أجزاء الكتيب العجيب الذى تناوله بالتعليق والتدقيق فى معانيه ومراميه . فمن لم يهتد الى مفتاح رموزه يجد هذه القواعد متناقضة متنافرة مستوحشة .

فقله عليك بما هو في نفسك وهو مع ذلك بعيد عنك لا سبيل
للوصول اليه يبدو لرجل الشارع قولاً مضحكاً ، ولكن الأمر
يبدو واضحاً جميلاً لمن عرف السبيل لحل الرمز .

فالقواعد الأربع تشير الى تفتح الوعي الروحي الى اشراق
نور الحقيقة الذي حاولنا الاشارة اليه من بعيد في كثير من دروسنا
السابقة الأربعة عشر .

ان هذا هو أول منزل جليل يقابلنا على الطريق ، انه كل شيء
بالنسبة للمريد في مرحلته هذه من مراحل الطريق ، فانه ينتقل به
من مستوى مجرد التصديق بالعقل ، الى مستوى يقين المعرفة حيث
يعرف نفسه وأنه (كائن) . انها (أى المرحلة) لا تمنحه هذه المعرفة
بصفة دائمة ، ولكنها تهبه الشعور بالوجود الروحي الذي يتلشى
بجانبه كل علم سابق وتصبح كل خبرة قديمة اذا قيست به كأنها
لا شيء . انها تضع الانسان وجها لوجه — ربما لمدة طرفة عين —
مع النفس الحقيقية والحقيقة العظمى التي نفسه جزء منها . ان
هذا (الحال) هو المكافأة العظمى التي يتطلع اليها البشر والتي
أعدت جزاء ما قدم الناس من عمل ينالون به البر وهو جزاء ليس
بكثير في سبيله ألف حياة تقطعها النفس متقدمة خطوة خطوة
متحررة من كل قيد حتى تصل اليه .

(اطلب ما في داخل نفسك فقط) فان الروح هي الحقيقة

الوحيدة وهي موجودة في كل منا كما يقول النص (ففي نفسك نور العالم النور الوحيد الذي يمكن أن يلقي الضوء على الطريق . فان لم تستطع أن تدرك النور في نفسك فمن العبث أن تبحث عنه في أى مكان آخر) .

لماذا لا يستجيب الباحثون عن الحقيقة المشتاقون اليها لهذه النصيحة بدل أن يركضوا هنا وهناك وراء الأساتيد والشيوخ والواصلين وأصحاب المنطق والمحدثين كلما انتهوا من نظرية لا طائل تحتها اندفعوا وراء مذهب براق آخر لا غناء فيه !! .

على أن هذا البحث الممض الطويل له فائدته ، ذلك لأنه يعلمنا أن ضالتنا التي نبحت عنها ليس هذا هو السبيل اليها وأنا لن نجد لها بهذه الطريقة ، ربما وجدنا إشارة هنا وفكرة هناك ولكن الشيء الحقيقي الذي نريده مستقر في داخل كياننا ينتظر في أناة وصبر اللحظة التي نحول فيها أنظارنا — عن تلك الاتجاهات المشتتة — اليه في أنفسنا حيث ينتظر في أمل وحنان وثقة . انصت بالله الي صوت النفس وانظر — هديت — الي نور الروح انهما كليهما في قرارك فقيم الاستمرار في البحث عما لن يأتيك من الخارج ؟

(اطلب فقط ما نأى عنك) (انه ناء عنك لأنك حين تصل اليه تكون قد فقدت نفسك) انه دائما ناء عنك فاذا اتحدت به تلاشت نفسك المقيدة التي تعودتها وعهدتها وحلت محلها نفس أعظم (أنت)

ذهبت وحل محلك (أنت) آخر جديد عظيم أكبر مما عهدت
وأعظم .

يجب أن يفقد الانسان نفسه ليجدها ، ان الشيء العظيم الذى
تبحث عنه ناء عنك اليوم مع انه فيك لأنه فى الحقيقة أنت تفسك
كما ستكون غدا .

هل نستطيع الايضاح أكثر ؟ .. يتطلع الطفل الى الرجولة ،
انها ما زالت بعيدة عنه ومع ذلك فهو ثواتها . وعناصر الرجولة كلها
فى كيانه تنتظر حتى تنضج ويحين وقتها ، ولكن اذا بلغ الطفل
الرجولة يكون الطفل قد اختفى . لقد فقد نفسه وحلت محلها نفس أكبر
وأعظم . وهكذا فإن هذا الشيء الذى يتطام اليه الطفل يفقد نفسه
فى سبيل الحصول عليه .

والفراشة انها فى الشرقة ولكنها فى نفس الوقت بعيدة منها
فاذا بلغت الشرقة من التطور أن تكون فراشة لم تعد نفس الشرقة
التي كانتها . هذه تشبيهات فجأة ، ومع ذلك قد تساعدك على فهم
الموضوع فى جلاء نوعا ما .

(اطلب مالا سبيل للوصول اليه) ، هذا قول فيه تشييط ولكن
اذا فهم كان حافزا يمنح القوة ويجدد العزيمة . يقول النص (انه
لا سبيل للوصول اليه لأنه دائما ينحسر ويتعد . انك تدخل النور
ولكن لن تمس اللهب) فكلما نمت النفس وتفتح الوعى الروحى

عظمت وسمت ومع أنها تخطو الخطوات الأولى من الرحلة الحقيقية
الا أن تلك الرحلة تبدو ممتعة بهجة . وكلما ارتفعنا على جبل
المعرفة ازداد المنظر روعة . ولكن قمة الجبل التي بدت وكأنها على
بعد خطوات منا عندما بدأنا رحلة التسلق تبتعد عنا مع كل خطوة
ولكن لا يصعب ابتعادها مرارة أو خيبة أمل ، فمع كل خطوة
شعور بلذة عارمة . ذلك دائما هو الحال في تقدم صفاء النفس ،
اذ كلما ارتفع الانسان درجة بدت للناظر مرتفعات أجمل خارجة
من تحت السحب التي كانت تكتنفها ، انها مرتفعات لم يحلم بجمالها
السائر .

انك ستصل حتما الى قمة المرتفعات التي تجلت لك ، ولكن حين
تصل اليها تجد أمامك مرتفعات أخرى تزيد أضعافا على تلك التي
خلفتها ورائك ولكن ذلك لن ينال منك ولا عليك منه ، فانك وقد
غمرك النور تشعر بأئك تقترب من مبعثه ومصدره ، ولكن رغم
اكتناف النور اياك من كل صوب فانك لن تمس اللهب ولن تمسه
ما دمت بشرا سويا ، ولكن ذلك لا يضريك فلا تحزن اذا كنت
لا تبصر النهاية ان كانت ثمة نهاية . انك مقدر لك أن تصبح شيئا
عظيما لا يذكر بجانبه حاضرک ولا يمكن مهما اشتط خيالك
وأسرف في تصوراته أن يعطيك أقل فكرة عن هذه العظمة (انه
ملا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) . ومع ذلك

فوراء هذه الحالة الرائعة الجمال حالات وحالات أبهى وأروع .
تمتع بالنور الذى تكشف لك واسبح فى ضيائه فرحا ، لا يقلل
من فرحك أن قيل لك أنك لن تلمس اللهب أنك لم تبدأ فى ادراك
كنه النور وأنت عن ادراك اللهب أعجز .

١٣ — « اطلب القوة فى عزم » .

١٤ — « اطلب السلام فى حرارة واخلاص » .

١٥ — « اطلب الامتلاك قبل كل شىء » .

١٦ — « ولكن هذه الأشياء التى تطلبها كلها يجب أن تكون
للروح الصافية ولذلك تكون ملكا لكل الأرواح ولكنها لا تكون
لها الا حين تتحد ، فاطلب اذن هذا الذى تستطيع الروح أن تملكه
فإنك بذلك تحصل على ما يزيد ثروة الروح المتحددة التى هى روحك
نفسها واطلب السلام الذى لا يعكر صفوه شىء والذى تنمو فيه
الروح كما تنمو الزهرة المقدسة على سطح المياه الساكنة والقوة
التى يسعى اليها الطالب هى التى تجعله يبدو فى نظر الناس كأنه
لا شىء .

١٧ — « اطلب الطريق أمامك » .

١٨ — « اطلب الطريق بالدخول فى ذات نفسك » .

١٩ — « اطلب الطريق بالسير الى الأمام قدما » .

هذا مثل آخر للمحدود النسبى وللمطلق اللانهاى .

(اطلب القوة فى عزم) ومع ذلك .. فالقوة الأنانية شر تقمة تنصب على رأس من ينالها . أما قوة الروح تلك (القوة التى يطلبها المرید فى عزم) والتى تجعله يبدو كأنه لا شىء فى نظر الرجال الجاهدين وراء القوة المادية فإنها قوة الايمان التى لا يعرف عنها الرجل العادى شيئا ولا يستطيع أن يتصورها والتى كثيرا ما يعتبر من يملكها ومن يسعى وراءها مخبولا ، القوة التى تستخدم لمنافع غير شخصية لا يدركها الرجل العادى الذى يبحث عن القوة الدنيوية مع أن كل ما يمكن تحقيقه من ورائها من أعراض الدنيا سيتهافت أمام عجلة الزمن كأنه قطعة ورق تمسها النار فاذا بها تراب فى غمضة عين . أما القوة الحقيقية التى تزداد على مر الزمن فهى قوة الروح ، انها الأصل الأصيل ، والقوة المادية ظلها وخيالها ، ولو أن الناس يعكسون الوضع لفساد نظرهم فيتخيلون أن القوة المادية هى الحقيقة الملموسة وما عداها خيال وأوهام .

وفود أن نحذر الطالب من أن يخطىء فى تفسير القاعدة السادسة عشرة بأنها تدعوه الى أن يظهر كالعدم فى نظر الناس ، ان الغرض هو ألا يهتم الطالب بأى المظاهر يبدو للناس فلا يعنى بأن يراه الناس كل شىء أو لا شىء . ليدع المظاهر وشأنها لأهل الدنيا .

انهم أصحابها يلهون بها لهو الأطفال بالدمى ويعنون بفقاقيعها التي تلمع لحظة ثم تزول . وبالزبد الذي يذهب جفاء . نوجه هذا التحذير لأن البعض فسر هذه القاعدة بأنها دعوة الى الضعة التي تحسب تواضعا فيعمد المرید الى أن يبدو حقيرا في نظر الناس وهو يحسب أنه بذلك يتواضع كأنما في الظهور بهذا المظهر فضيلة . ان القاعدة تهدف الى تحديد القوة الوحيدة التي تستحق السعى وراءها وتبين للطالب في نفس الوقت كيف يستهين العالم بهذه القوة عندما يقارن بينها وبين ما يسميه (قوة) تلك القوة المادية قوة المال أو السلطان أو الجمال ، تلك القوى التي يشبه صاحبها المجنون الذي يتصور نفسه ملكا متوجا على عرش وهو يجلس على صندوق فارغ ويضع على رأسه تاجا من الورق ويمسك بيده عصا يتخيلها صولجانا ، ظانا أن الدنيا دانت له . دع العالم وبنيه في غيهم يعمهون فلا شأن لك بهم وادأب وراء قوة الروح لا يعينك رأى الناس فيك .

(اطلب السلام في حرارة واخلص) ذلك السلام الذي يأتي من أعماق النفس فنتمتع به ولو كنت في غمار معركة الحياة ، لا فرق بين أن تكون القائد الأعلى أو الجندي المغمور (فمصيرهما واحد) سلام النفس التي وعت واطمأنت ، ذلك السلام الذي لا يكدره شيء ولا يناله الا من استيقظت روحه وفتح عينيه على وجوده

الروحى الحقيقى فأصبح فى حالة يستطيع معها أن يفرد فى كيانه ووجدانه مكانا ينطوى فيه على نفسه عندما تهزه معركة الحياة وأحداثها فيجد فيه السلام مرفرفا ناشرا عليه جناحيه سلاما يجلب عن الوصف ولا يدركه العقل لأنه خارج عن نطاق العقل . هذا المكان من وجدانه هو المحراب المقدس والمرفا الآمن الذى يلجأ اليه اذا هبت عليه أعاصير الحياة فيحتمى فيه من قصفها وهديرها .

عندما يعرف الطالب نفسه ويستطيع أن يرى العالم على حقيقته ويدرك أن كل ما فيه أوهام تزول فيقدرها قدرها ، عندذلك يكتشف الطالب هذا المكان الذى فيه السلام ، ومع أن ظروفه وضرورات الحياة قد وضعتة فى مركز يحتم عليه أن يكون فى أتون المعركة الا أنه فى المعمة ولكنه ليس منها ، فبينما يقوم بقسطه بجسمه وعقله اذا بروحه تحلق فوقها مبتسمة فى هدوء وسلام .

أقم لنفسك اذن محرابا فى داخل نفسك حيث يسود السكون وحيث تلجأ نفسك لتستجم اذا أتعبها الحمل وناءت به فتجد السلام الذى يعنيه اليوجى حين يقول لك (ليكن السلام معك ، فليكن معكم جميعا وليقم لا يريم) .

(اطلب الامتلاك فوق كل شىء) هذا قول يبدو غريبا لا يتفق ولا يستقيم مع التعاليم الروحية ، ولكن (هذا الذى تطلبه كله يجب أن يكون روحانيا صافيا تستطيع كل روح صافية أن تمتلكه

فيكون ملكا شائعا لكل النفوس الصافية) هذا الامتلاك ليس
ثروة مادية ولكنه ثروة روحية تملكها الروح ، فماذا تستطيع
الروح أن تملك ؟ ! المعرفة فقط وما عداها باطل زائل يزول ،
فاجعل هدفك اذن الحصول على هذه الثروة ، هذا العلم الذي
تحتاج اليه ، العلم اللدني ، علم الروح (اليقين) .. هذا العلم الأعلى
لا تبلغه الا النفس الصافية أما النفوس الأخرى فلا تعيره اتبهاها
لأنها لا تدرك وجوده .

والنفس الصافية اذا حصلت على هذا اليقين لا تحتفظ به
لنفسها خاصة بل ترحب بمشاركة غيرها من النفوس الأخرى التي
تستطيع أن تتقبل نصيبا منه أو تجد فيه نفعا لها لا تعرف لنفسها
فيه حقا ليس لغيرها مثله ولا احتكارا من دونها ، انه شائع لمن
يطلبه ويستحقه من أهله لا محتكرين لهذا العلم ولا حلقات من
المستغلين له مهما ادعى بعض الناس الاختصاص به انه شائع
كالماء لمن يطلبه ويستحقه ومع أنه أغلى المقتنيات جميعا فهو مجانا
لأهله والويل لمن يحاول أن يبيع هبات الروح بالمال لأنه يريد أن
يعطيها لغير أهلها مقابل ثمن يقبضه ، مع أنها ملك أهلها خالصة لهم
يأخذون منها ما شاءوا متى شاءوا على قدر استحقاقهم واستعدادهم
بغير ثمن . لذلك نوجه النظر الى الجملة السابقة في القاعدة السادسة
(فانك بذلك تحصل على ما يزيد ثروة الروح المتحدة التي هي

روحك نفسها) . فانك حين تحصل على العلم الروحي لا تحصل عليه لنفسك فقط ولكن لغيرك أيضا — لخير البشرية كلها . ان من ينال هذا العلم يساعد غيره بعلمه وينشر البركة وهو يجمعها ويستكثر منها ، انه بعمله يساهم في تطور ورفع مستوى الفكر البشرى نحو الكمال ، وكما انتفع بفضل من سبقه على الطريق وتمتع بما خلفوه من كنوز ، كذلك سينتفع من هم بعده من الأجيال القادمة بفضلهم . انما نحن ذرات في كيان هائل وما كسبته ذرة انما هو كسب للكل لا يضيع شيء ولا يفقد شيء فاستكثروا من كنوز المعرفة .

(اطلب الطريق أمامك) لا تطلبه بالمحاولات العنيفة ولكن بأن تسلم نفسك لدوافع الروح وارشادها بالاستسلام لتعطش النفس الى ينبوع الروحي وجوعها الى غذاء الروح . احصل على العلم طبقا لقانون الجذب انه يأتيك طبقا لهذا القانون وطوعا لنصه ، انه يعطى لك ان طلبته لا يمنعك عنك ولا يمنعك منه شيء (اسألوا تعطوا) يقول امرسون (ان الأشياء التي لك تهبط اليك واعلم واثقا كما تثق بوجودك ، ان كل كلمة تقال في أى مكان في العالم قدر لك أن تسمعها لابد وأن تصل الى سمعك وان ما قدر لك أن تحيط به من مثل أو كتاب أو حكمة لابد وأن تجد طريقها الى علمك بطريق مباشر أو غير مباشر) .

واليك طريقة التثبت من الحقيقة : ان جاءتك رسالة أيقظت في نفسك معالم حقيقة كادت تنسى وتندثر فبقدر ما يتكشف لك منها أنه حق فهو لك وما بقي منها سيأتيك في الوقت الذي قدر له أن يأتيك فيه ، قال امرسون لرجل طالبه بالدليل على صحة أقواله (انى أسأل الله ، ألا أقرر من الحقائق ما يحتاج الى دليل على حقيقته) وقد صدق امرسون ان الحق أبلج لا يحتاج الى دليل وانما هو دليل نفسه . والنفس التي استيقظت من غفوتها اذا ألقى اليها من الحق ما أصبحت أهلا لتقبله أدركت بالسليقة أنه الحق . وقد تعجز عن وصفه وايضاحه للغير أو حتى لنفسها ولكنها تعرفه وتعرف أنه حق . ان ملكات العقل الروحي حين تستيقظ تدرك الحق بوسائلها الخاصة بها .

ان العقل الروحي لا يتعارض مع المنطق والعقل السليم ، ولكنه يتجاوزه ويدرك ما وراء قوة الادراك المعتادة (intellect) فاذا سمعت أو قرأت شيئا يقال لك انه الحق فاقبل ما يرضاه وعيك ودع مالا يقبله مؤقتا حتى يحين وقته . ربما تقبلت من محاضرة أو درس حقيقة واحدة تحملها اليك جملة واحدة . اقبل هذه الحقيقة ودع ما عداها من حقائق الدرس أو المحاضرة مما لا تستسيغه فان كان ذلك الذي تركته حقا فانه سيأتيك يوم تصبح له أهلا فتقبله .

لا تجزع اذا وجدت أنك لا تستطيع أن تعي كل ما تسمع
أو تقرأ وتجاوز عما لا يتردد صدى صوته في حنايا نفسك فيوظف
روحك للاستجابة له . هذه طريقة سديدة طبقها على كل ما يلقي
اليك من تعاليم حتى على هذا الذي تقوله لك . ولا يهولنك
تناقض التعاليم التي تقرأها أو تسمعها فكل معلم يلتزم في التعليم
طريقته الخاصة ولكل معلم من يتقبل تعاليمه ممن لم يتقبل تعاليم
غيره وكل معلم يعلم شيئاً من الحقيقة ولكن لن تجد معلماً ينفرد
بالحقيقة كلها فخذ ما قسم لك فهو لك ودع ما عداه لا تأس عليه
ولكن لا تكن متعصباً لأحد من الأستاذين ، ولتكن لك شخصيتك
المستقلة اسمع منهم وحكم عقلك فيما تسمع مستهدياً هدى الروح
فلا تتبع أحداً وأنت مغمض العينين واعلم أن روحك خير حكم لك
وأنها أصلح من غيرها من الأرواح للقضاء فيما يتعلق بك لأنها
تعرف ما يصلح لها ولا تنقطع عن السعى في الوصول اليه .

ان للكتب نفعها وللأستاذين والمرشدين نفعهم لأنهم يقترحون
عليك ويقدمون لك الحلقات المفقودة ، انهم يضعون في يدك
أطراف خيوط الفكر وعليك أنت أن تتبع الخيط قدر استطاعتك
انهم يفتحون أمام عقلك آفاقاً يجوبها بما بين يديه من نور على
قدر ما وظل اليه من نور الروح — خافتاً أو مضيئاً شديد
الضوء وهاجا — ولكن عليك بنفسك فاستلهمها الحكم فيما ألقى

اليك من تعاليم فهي خير قاض يقضى فيما سمعت ان تجردت عن
الهوى والميل تحت تأثير العادة أو البدع أو ما وجدت عليه آباءك .
استمع الى الصوت الذى ينبعث من قرارة نفسك وأصخ اليه
بسمعك ، انظر الى داخل نفسك فى ثقة وايمان ورجاء ثم أعد
النظر كرتين فهناك النور الذى تأتى منه بقبس أو تجد عليه هدى .
(اطلب الطريق بالتراجع الى داخل نفسك) لقد تحدثنا عن
الثقة فى الشئ الداخلى (السر الذى وقر فى النفس) وهذه
القاعدة تؤكد هذا الدور من أدوار التعاليم الروحية ، تعلم منها
التراجع الى ذات النفس حيث يسود السكون وأنصت الى صوت
روحك انه سيفضى اليك بأمر عظيم .

فى ذلك السكون العميق تتفتح قوى العقل الروحية ويفيض
منها الى العقل الواعى تنف من الحقائق العظمى المختزنة فى خفاياها ،
انها تلقى الى القوة المفكرة شذرات ومن تلك الحقائق ومن تلك
النتف والشذرات تتكون أفكار وآراء فى شكل مرتب منطقي .
القوة المفكرة باردة والعقل الروحي (Spiritual mind) حار
يموج حياة بالكثير من المشاعر السامية ومنه تفيض الالهامات .
فالشعراء والرسامون والمثالون والكتاب والخطباء وغيرهم من
الموهوبين تلقوا عنه هذه الالهامات منذ القدم كما يتلقونها اليوم
وغدا ومن هذا المعين تلقى الحكيم حكمته . ويستطيع الانسان

بانماء وعيه الروحى أن يرتفع بنفسه حتى يتصل بهذه المراكز
الرفيعة من طبيعته العليا حيث يضىف عليه من العلم ما لم تجرؤ على
أن تحلم به قوته العاقلة وذكاؤه المعتاد ، اذا عرفنا كيف نكون
واثقين مؤمنين بقوة الروح فانها تقابل ثقتنا بأن تبعث فى عقولنا
الومضة من الالهام تلو الومضة حتى تستنير عقولنا ، وكلما تقدم
الوعى الروحى ازداد اعتماد الانسان على صوت الروح وأمكنه
أن يميز بين ذلك الصوت العلوى وبين هوائف الغرائز الدنيا من
كيانه وعقله ويتعلم أن يسلم للروح قياد نفسه حتى تعتمد على تلك
اليد العليا التى تأخذ بيدها وتقودها الى سبيل الرشاد .

ليس هذا خيالا ولا مجازا ، انما هو واقع وحقيقة من حقائق
الحياة عرفها كل من وصل الى مرحلة معينة من مراحل الطريق
اذ يجد نفسه وقد أمسكت بزمامها يد الروح تسير بها فى الطريق
القويم .

(اطلب الطريق بالسير الى الأمام فى جرأة) لا تخف . ان شيئا
لا يستطيع أن يضرك لأنك روح حى أبدى فتشجع ، انظر حولك
الى ما يدور فى العالم وتعلم من ذلك دروسا . انظر ما ينسج نول
الحياة الأعظم وما يبدع من أشكال وألوان ، انظر الى كل شىء
على انه الحياة ولا تأس على شىء . ان حولك دروسا لمن يريد التعلم
أنعم النظر فى الحياة فى شتى مراحلها لا على أن تعود القهقرى

فترجع الى مرحلة منحطة تركتها خلفك من مراحل سبق لك أن
قطعتها واجتزت امتحاناتها وتجاربها ولكن انظر اليها بدون احتقار
أو ازدراء لمن لا يزالون فيها واذكر أن ما تراه منحطاً الآن هو
الذي يرتفع مع الزمن فيصبح يوماً ما رفيعاً ، فمن طين النهر ترتفع
زهرة اللوتس على ساقها مخترقة الماء طبقة بعد طبقة حتى تصل
الى سطح الماء حيث الهواء فتتفتح وتبلغ ما تراها عليه من جمال .
من طين المادة ترتفع زهرة الحياة خلال طبقات ماء العقل حتى تصل
الى جو الروح حيث تتفتح وتزدهر .

انظر حولك وتأمل ما يفعل الانسان ، ماذا يقول الرجال وفي
أى شيء يفكرون . ان كل ما يقع في محله مناسب لأصحابه أما أنت
فمحلّك في حالك ، فكر وقل واعمل . انه ليس لك لأنك خلقت
له فهذا مستواك الذي بلغتته نفسه في طريقها نحو الكمال ولكن
لا تسخر من أحد ولا تحتقر من تراهم في مستويات منحطة . اعلم
أن الحياة تتألف من كل حي صغر أو كبر وأن الصغير يكون جزءاً
منها كما يكون الكبير جزءاً والصالح يملأ فيها فراغاً كما يملأ
الطالح فراغاً لا غنى للكُل عن أي جزء مهما صغر وأنت جزء من
هذا الكل .

اشعر بموجة الحياة ترفعك واستسلم لها وألق بنفسك على
صدرها ، لا تخش أن تبتلعك في جوفها لأنك ان استسلمت لها

حملتك على سنامها ، لاتخش ظاهر الحياة وموكبها الحافل حتى
عندما تفزع منها لتتنوى على نفسك فى هيكل الروح فى القلب .
فظاهرها وباطنها حسن كلاهما فى مكانه ووقته . اجعل هيكل
الروح مكان راحتك ولكن لا تهب المغامرة فى الحياة بل آمن فى
أحداثها وضوضائها ، ان ذلك الهيكل لن يحال بينك وبينه انه
سيكون دائما فى انتظارك ان أردت أن تلجأ الى سكونه وراحته
تفتحت لك أبوابه .

لاتناقض بين القاعدة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة فلنعد
ذكرهما على أنهما وجهها الحقيقة الواحدة ، انهما جانبا الدرع .

(اطلب الطريق بالتراجع والدخول فى ذات نفسك – واطلب
الطريق بالسير قدما الى الأمام) ألا ترى أن لا غنى عن الواحدة
أو الأخرى فى الابرار الكامل للحقيقة .

لاتطلب الوصول بسلوك سبيل واحد بمفرده فان الكاتبة تقول
(ان لكل مزاج سبيلا هو الأنسب له) ولكن هنا اغراء مستتر
فقد يركن الطالب الى ذلك السبيل الذى يستريح اليه ويرضاه
فيغمض عينيه عن سائر السبل فيصبح متعصبا ضيق الأفق والصدر .
أن عليه أن يستكشف السبل جميعا ، السبل الموصلة الى الحق ،
يكسب قليلا من هذه وقليلا من تلك مستمسكا دائما بما يرضى
ضميره تاركا مالا يؤمن به ، ولا يرتضيه ولكن بدون أن يحكم

ببطلانه وفساده ، لا تكن متعصبا متعننا ولا تكن من الغلاة المتطرفين الذين يرون أن الهدى فيما يتبعونه وان كل طريق غير طريقهم ضلال بعيد . فان للحق أوجها متعددة يرضى كل وجه طائفة من الناس وكم من النظريات تبدو متناقضة مع بعضها فاذا أنعم النظر فيها تكشففت عن أسس متقاربة متجانسة .

ان الكثير من الخلاف بين التعاليم المختلفة قد يكون سببه استعمال ألفاظ (أو سوء استعمالها) ووضعها في غير مواضعها فاذا فهمت الكلمات والاصطلاحات فهما صحيحا بدت الحقائق التي وضعت الكلمات للدلالة عليها وقد زال الكثير من الخلاف بينها واذا التعاليم المتعارضة تفقد ما بينها من تعارض .

لا تطلبها من طريق واحدة . ان لكل مزاج طريقا هو أنسب الطرق لذلك المزاج . ولكن التقدم في الطريق ليس بالايمان وحده أو الاخلاص وحده ولا بالتأمل الدينى وحده أو بالسير الحثيث أو بالعمل بما فيه تضحية النفس أو بحمل النفس حملا قاسيا على اتباع الفروض . ان كلا من هذه السبل لا يقدم الطالب سوى خطوة واحدة . ولكن من هذه الأشياء مجتمعة يتكون سلم المرتقى .

ان زلات الرجل تكون درجات من السلم كلما تاب عن زلة ارتقى درجة وكذلك فضائله انها درجات ضرورية لا غنى عنها ولكن مع أنها تخلق جوا من السعادة في المستقبل الا أنها لا تكفى وحدها .

ان طبيعة الانسان الكاملة كلها يجب على من يريد سلوك الطريق أن يستخدمها بحكمة . انه كل رجل بنفسه لنفسه هو الطريق والحق والحياة ولكنه يكون كذلك فقط حين يمسك بزمام شخصيته كاملة في حزم ويدرك بقوة ارادة الروح التي استيقظت فيه أن تلك الشخصية ليست هي ذاته ولكن ذاته هي ذلك الشيء ، الذي خلقه بالعرق والدمع بكفاحه وجهاده ليصل بفضله وبازدياد قوة ادراكه الى ما وراء هذه الشخصية الفانية الى الحياة الحقيقية ، حياة النور والروح .

حين يدرك أن الحياة التي حوله والتي يحيا في غمرتها انما وجدت له ، لكيانه هذا العجيب المعقد ، عند ذلك يكون حقيقة على الطريق . اطلبه بالغوص في أعماق هذا الكيان هذه الأعماق العظيمة التي تكتنفها الأسرار ، اطلبه باختبار كل حال وباستخدام الحواس حتى تدرك نمو الشخصية وتفهم معناها ومدى غموض وجمال الشخصيات الأخرى التي تعيش معها تلك الذرات الالهية التي تجاهد مثلك وتكافح جنباً الى جنب معك ويتألف منها هذا الجنس الذي تنتمي اليه . اطلبه بدراسة نواميس الوجود وقوانين الطبيعة وما وراء الطبيعة وما فوقها . واطلبه بانحناء النفس اكباراً واجلالاً لذلك النجم الخافت الذي يومض في أعماقك فكلما أمعنت في التأمل والتعبد ازداد نوره قوة عندئذ تعلم أنك اهتديت

الى أول الطريق وعرفت بدايته ، فاذا وصلت من الطريق الى غايته
تحول الضوء فجأة الى النور اللانهائي : نور السموات والأرض .
هذه القاعدة العشرون يجب على كل طالب يريد أن يحيا حياة
الروح ويطمع في أن يرقى مدارج الطريق أن يقرأها بامعان
وتدبر .

يجب أن تقرأ وتقرأ مرارا يجب أن تدرس . ان فيها الكثير
الذي لا يدرك في أول قراءة بل ولا في القراءة العاشرة ولا المائة .
ان معانيها تتكشف لك على قدر ما تستحق أن يتكشف لك منها
عند كل قراءة بما كسبت من خبرات .

انها تقول لك يجب ألا تكون حياتك ذات جانب واحد بل
يجب أن تتعدد جوانبها يجب أن تعترف من مزايا الحياة الروحية
ومع ذلك فلا يصح أن تهرب من الحياة العامة لأن لك فيها دروسا
يجب أن تتعلمها وفي الدنيا من يحتاج اليك . ان فيك مددا لغيرك
ويجب أن تقوم بدورك ، انك لا تستطيع أن تهرب من الحياة
ولو أردت الهرب . فعليك أن تقبل القيام أولا بالدور الذي قدر لك
أن تقوم به وروض نفسك على أن تستعمل حاضرها سلما ترتقى
عليه لما هو أعظم . انك سن ترس من تروس ما كينة الحياة العظمى
ولا بد من قيامك بما خلقت له .

(ان طبيعة الانسان الكاملة كلها يجب على من يريد سلوك

الطريق أن يستخدمها بحكمة) هذا الأسلوب في الحياة يجب أن يلازمك في عملك تجارة كان أو صناعة ، أو غيرهما فإن لم تستطع أن تلتزمه في كل شيء فلا بد أن هناك نقصا فيك أو فيه .

لا تنتظر من العالم أن يفهم وجهة نظرك في الحياة ولا خير في أن تفرضها على غير المستعد لتقبلها – اذكر دائما أن اللبن للأطفال واللحم للرجال . ان أكثر الناس الذين حولك مثلهم كمثل أجنة لم تولد بعد في حياة الروح وقليلون جدا هم الذين تنفسوا أول أنفاس الحياة .

لا تحمل قلبك على كفيك لكل ناقر فتخطيء بذلك خطأ كبيرا . العب دورك في مسرحية الحياة التي فرض عليك الاشتراك فيها . ومع علمك بأنها لعب أطفال فلا تكن مصدر ضيق لزملائك الأطفال فيضيقوا بك ، شاطرهم ما هم فيه كأن ما يلهيهم من تجارة يلهيك ، تتعلم من ذلك دروسا .

ولا تحسبن نفسك مكلفا بأن تروح وتغدو ترتسم على وجهك سيما الوقار والجد والرزانة تظهر بمظهر التقى الورع الذي تضيق قدامته بالحياة لا يجد فيها مكانا طاهرا يضع عليه قدمه . كن على سجيتك لا تتكلف والزم طبعك لا تزدد عليه ولا تنقص منه . ان هزك الطرب فلا تخش أن تبسم أو تضحك للطرب فإن روح المرح من أكبر النعم التي أنعم الله بها على الانسان

وهي له وقاء من كثير من الاثم الذي يولده الكبت ، ولعل ضحكة من القلب تعدل صلاة . فلا تقابل الأشياء بأكثر مما تستحق من الاهتمام ولا تدع لهو روضة أطفال الله يبدو لك حقيقة وجدا .

ان الكثير مما في الحياة دعابة ومزاح عند من ارتفع وعلا حتى أصبح ينظر الى الحياة من حلق ، انها لهو ولعب يعد أطفال الله للحياة الحقيقية .

لسنا بحاجة لأن نتوسع في التعليق على القاعدة العشرين وأن نفيض في شرحها فذلك أمر يطول لأنها مليئة بالتفاصيل حتى لتكاد تشمل الموضوع كله ، امعن في دراستها وأوغل فيها برفق فان فيها للطالين قاعدة للحياة . ان جملها الختامية رائعة انها تسألك أن تفتح نفسك لاشراق الروح فعلى ضوء النور الذي يشتعل في أعماقك تستطيع أن ترى كل شيء - كل شيء بذلك الضوء يتضح - استمع الى قولها (اطلبه بانحناء النفس اكبارا واجلالا لذلك النجم الخافت الذي يومض في عمق أعماقك فكلما أمعنت في التعبد والتأمل ازداد نوره قوة . عندئذ تعلم أنك قد اهتديت لأول الطريق وعرفت بدايته فاذا بلغت منتهاه تحول الضوء الى النور اللانهائي نور السموات والأرض) .

اقرأ أيضا الهامش الذي ذيلت به هذه القاعدة . ان هذه التعاليم كلها تقود الى فجر الوعي الروحي .

أما القاعدة الحادية والعشرون فتقول (انظر وابحث عن الزهرة
وهي تتفتح في السكون الذي يلي العاصفة) .

والتي تتفتح حينئذ فقط . ان قوس قزح الذي يبشر بالوعى
الروحي لا يظهر الا بعد هدوء العاصفة الهوجاء التي عصفت بك
فجرفتك انها رمز البشرى الالهية بما أعد لك من سلام مقبل
عليك .

درسنا القادم سيكون وقفنا على موضوع الوعى الروحي ،
وسنتناول فيه القاعدة الحادية والعشرين وما تنصب عليه ، انها
واسطة العقد وحجر الزاوية . صحيح انه يجب وصف الجانب
الآخر من العقد ، ولكن لا مناص من دراسة (واسطة العقد) أولا .
ولكن يجب أن يراجع هذا الدرس الذي نختمه الآن وأن نلم بكل
أطرافه حتى نستطيع فهم الدرس التالي .

الدرس الثالث

الوعي الروحي Spiritual Consciousness

القاعدة الحادية والعشرون من القسم الأول من كتاب ضوء على الطريق ، القاعدة التي تعنى بذلك الشيء الذي اتهمنا اليه في القاعدة السابقة تقول :

« انظر باحثا عن الزهرة وهي تزدهر وتينع في السكون الذي يلي العاصفة . لاقبل ذلك ، انها ستتمو ، انها ستعلو فوق ساقها ، انها سترسل فروعا وأوراقا وبراعم أثناء هبوب العاصفة وخلال احتدام المعركة ولكن الزهرة لن تفتح الا بعد أن تذوب كل شخصية الانسان وتنصهر وبعد أن تتولاها تلك اللطيفة الالهية التي خلقتها وسيلة تجرى عليها تجربة جدية واختبارا دقيقا ولا يمكن قبل أن تستسلم الطبيعة بكاملها وتصبح تابعا خاضعا للروح لا يمكن قبل ذلك أن تفتح الزهرة وتزدهر » .

عندئذ يسود سكون كالسكون الذي يعقب سيل المطر الغزير في المناطق الاستوائية حيث تعمل الطبيعة بسرعة يكاد يستطيع الانسان معها أن يرى عملية ابداعها . هدوء مثل هذا الهدوء يحل بالروح المضطربة فتطمئن وفي هدأة السكون يحدث الحدث الجلل

العجاب الذى يدل على أن الطريق قد وجد . سمه بأى الأسماء
شئت . انه صوت تسمعه يتكلم ولا يوجد للصوت صاحب تراه .
انه رسول يأتيك ، رسول بلا جسم ولا رسم أو هو زهرة النفس
التي تفتحت . انه لا يوصف صراحة ولا مجازا ولا استعارة .
ولكنك تحس به بعد أن تكون قد تمنيته وعملت له حتى فى وقت
هبوب العاصفة .

قد يستمر هذا السكون لحظة وقد يستمر ألف سنة ولكن له
نهاية ورغم انتهاء مدته ستحمل معك قوته . ان المعركة تثور المرة
بعد المرة ولا بد لك من خوضها والاتصار فيها كل مرة ان الطبيعة
لا تسكن الا لماها .

ان الزهرة التي تفتتح فى السكون الذى يلي العاصفة هى زهرة
الوعى الروحى التي كافحت فى سبيل ازهارها (نبتة الحياة) تلك
النبتة التي أرسلت من الحبة جذورها وساقها وأخرجت على الساق
أوراقها بعد أن اخترقت الساق ظلما المادة الكثيفة صاعدة الى
الفضاء النقى اللطيف الذى يعلو المادة فأخرجت ورقة بعد ورقة
وجعلت تشق حجابا وتلقيه بعد حجاب حتى خرجت وظهرت فى
النهاية برعمة زهرة الروح وعندها بدأ التفتح الحقيقى .

ظهور الزهرة ، زهرة الوعى الروحى — أول أشعة الاشراق
— يحدد أخرج فترة فى تطور الروح . وكما يقرر السفر الصغير :

انه يحدث بعد العاصفة عندما يحل السكون محل عصف الرياح ،
وقصف الرعد وما في العاصفة من حوادث جسام ، في سلام هذا
الهدوء تجد نفس الانسان في انتظارها عجبا . فاذكرى هذا أيتها
النفس عندما تجدين نفسك في عاصفة القلق الروحي وهي نكباء
تعصف بكل المعالم القديمة التي عرفتيتها وتطيح بكل ما كنت
تستندين اليه من حمى وسند حتى أصبحت تحسين بعد أن ذهب
كل سند وكل حمى انك وحيدة بلا عزاء ولا سند ولا حام ، أذكرى
في تلك اللحظة من اليأس والحزن الروحي أن سلاما يفوق
كل ما يخطر على القلب آت لا ريب فيه انه سلام لن يريم ولن
يهجرك ، سلام ليس بكثير في سبيله تحمل شدايد ألف زوبعة .

ان وقت الايمان الأعمى ايمان العجائز يمضي ليحل محله وقت
المعرفة ، وقت اليقين . انه لمن العسير التحدث عن الأحوال الروحية
العليا بكلمات مما يستعمل على المستوى المادى . يقول امرسون
الذى كابد هذه الأحوال ، أحوال الوعي التي تتحدث عنها :

« كل كلمات يقولها الرجل الذى عين تلك الحياة ليصفها بها
تبدو جوفاء لأولئك الذين لا مقام لهم في نفس المحيط من الفكر .
أنا لا أجسر على الخوض في الحديث عن تلك الحياة ان كلماتى
لا تطيق التعبير عن احساساتها العليا ، انها تقصر عن حمل معناها
وبلوغ مداها وحرارتها فتسقط دون الهدف باردة لا روح فيها » .

إن هذه الحياة وحدها هي التي تستطيع الهام من تشاء . ومع ذلك فاني أرغب ، ولو بكلمات غير طبييات ان لم أستطع الى الكلمات المقدسة سبيلا ، أرغب في الاشارة الى سماء هذه القدرة الالهية ناقلا ما تجمع لدى من تلميحات عن سمو الناموس الأعلى في بساطته وقوته .

انه شيء يحس ولا يدرك بالعقل ومع ذلك فالعقل يستطيع أن يدركه ادراكا جزئيا عندما يرفعه الاشراق الروحي الى المستويات العليا .

ان اليد التي تسطر هذه الكلمات لترتجف وهي تخطها لأنها تعرف أى شيء تواجهه وان محاولة تحميل الكلمات العادية عبء التعبير عن هذه الحياة العليا وتصويرها لمحاولة تتصف بالقصور والغباء ، ومع ذلك فانه يبدو لنا أننا قد نودى علينا لأن نقوم بهذه المحاولة وليس لنا الا أن نقول لبيك لبيك لقد فرض علينا العمل وليس لنا أن نجفل منه .

أشرنا في الدروس الأربعة عشر الى أقانيم العقل الثلاثة أو الخواص العقلية الثلاث : العقل الغريزي والقوة المفكرة والعقل الروحي . ونود هنا أن نوجه النظر الى ما ذكرناه عن العقل الروحي أن هذا الاشراق (هذه الزهرة التي تزدهر وتينع في السكون الذي يلي العاصفة) انما يأتي من هذا القسم العلوى من طبيعتنا .

ولكن يجب أن نوضح أولا المقصود بالعاصفة التي تسبق ازدهار الزهرة .

يرتقى الانسان تدريجيا من المراتب العليا من العقل الغريزي الى مستوى القوة المفكرة أو العاقلة (intellect) ، وهو أثناء اجتياز مرحلة العقل الغريزي حتى وهو في أدوارها الأخيرة أو العليا التي تتداخل في الطبقات الدنيا من القوة المفكرة لا يشغل نفسه بمشاكل الحياة — لغز الوجود — بل انه لا يشعر بوجود هذه المشاكل أو هذا اللغز على الاطلاق .

انه يجتاز وقتا سهلا هادئا لحد ما لأن كل همه منصرف الى ما يتصل بالمستوى المادي من الحياة فما دامت حاجات الجسد ميسرة القضاء فعلى غيرها من الشئون العفواء . وحالة الانسان هذه ، تمثل مرحلة طفولة البشرية ولكنه بعد قليل يبدأ يعاني المتاعب على مستوى آخر . ان قوته العاقلة اذ تستيقظ تأبى عليه الاستمرار في قبول الأشياء على علاتها كالأمر الواقع المسلم به . ان الكثير من الأسئلة التي لا عهد له بها من قبل تفرض نفسها عليه ، وتلح في طلب الاجابة عنها وهنا يبدأ اهتمامه بما تحدث به النفس منذ الأزل (لماذا ؟) ويصف تولستوى هذه المرحلة فيبدع حين يقول :

« لا تكاد الناحية العقلية في كيان الرجل تسيطر عليه حتى تتفتح أمامه عوالم جديدة وتتضاعف أمانيه أضعافا لا عدد لها . انها تبلغ عدد أقطار الدائرة الواحدة لا نهاية لها ويعمد العقل الى

بذر بذور الأمانى ثم يعمد الى العمل على تحقيقها وهو يحسب أن السعادة فى تحقيق هذه الأمانى .

ولكن السعادة الدائمة أيا كان نوعها لا توجد فى هذه الحالة إذ يملأ النفس حنين وشوق لا يسكنان يدفعانها الى آفاق أعلى . ولكن القوة العاقلة هى آخر جهد العقل ومحيط دائرته ولا قبل لها بادراك ما يخرج عن دائرة طاقتها ، فهى تقاوم ذلك الحنين الذى يملؤها إذ تحسبه وليد خرافات قديمة وسذاجة سابقة ثم تشرع فى حل المعضلة الكبرى والاجابة على الأسئلة التى فرضت نفسها وإذا بها تدور وتدور حول نفسها باحثة عن ذلك السلام والنعيم اللذين تشعر بقربهما منها وابتظارهما لها ولكنها لا تعلم — وأنى لها أن تعلم — أن فكائها من هذه الدائرة المقفلة متوقف على اشراق شىء أعلى منها يساعد على استخدامها كأداة تصبح بفضلها أكثر دقة من ذى قبل .

كثيرون ممن يقرأون هذه السطور سيرون فيها صورة صحيحة لمهول حالة القلق العقلى هذه . أنها ألم روحى كمخاض الوضع عندما تعترف القوة العاقلة بعجزها عن حل المعضلة الكبرى التى تلح فى طلب الحل عندما يضرب العقل بجناحيه جوانب القفص المحيط به وهو يدور داخله يتلمس المخرج فلا يظفر به وإنما ينتهى فى كل دورة الى حيث بدأ . هذه هى العاصفة العقلية التى نجيا فى هديرها تمزق أنواؤها ثوب العقل وتتركنا تحت رحمة الزوبعة ،

انها تعصف بكل ما كان يبدو لنا راسخا راسى الأركان نجد
الطمأنينة والأمن فى الالتجاء اليه والركون الى ظلاله تعصف به حتى
يبدو لنا أننا فقدنا كل ملجأ فيخيم علينا اليأس وقد ضاع الرجاء
وانعدم السلام وفقدنا هدوء البال والعاصفة تتقاذفنا أنوارها ذات
اليمن وذات الشمال لا ندرى ما المصير . إن الأمل ، الوحيد هو فى
الايمان باليد الخفية التى نشعر أنها تمتد فى الخفاء لتقودنا ، تلك
اليد التى دفعت نيومان الى كتابة شعره الذى تفيض كلماته
بالجمال ، ذلك الجمال الذى سحر آلاف القراء الذين يختلفون
عنه فى طريقة ايمانهم بالحق وان كانوا اخوته فى الروح فأمنوا
بقوله :

أرشدنى أيها الضوء الرفيق فى حلقة الظلام .

أرشدنى خذ بيدي للأمام .

الليل بهيم وأنا عن موطنى بعيد .

أرشدنى وخذ بيدي للأمام .

احفظ قدمى من الزلل . لا أسألك الرؤية .

رؤية المنظر البعيد فحسبى خطوة أخطوها للأمام .

أرشدنى وخذ بيدي فى الظلام .

وفى الوقت الموعود ، والموعود المحدد ، يلوح فى الظلام شعاع

خضيل مخترقا السحب ، يضىء السبيل لذلك التائه الهائم فى مهب

العاصفة ، المعذب بسوطها ، فيجد على ضوءه موطننا لقدمه ، فيخطو

خطوة واحدة في كل ومضة : — لقد ظهر على ومضات الضوء طريق جديد لا يكاد يمشى عليه خطوات معدودات ، حتى يبصر بواد لا عهد له به وصفه كاتب فقال :

« واذا بالسائر يرى أنه قد دخل أرضا مجهولة ، وأنه قد اجتاز حدود مملكة جديدة أرضها غريبة لا عهد له بمعاملها ، ولا يعرف شيئا عن مغايبها . فيرى بعد الشقة بينه وبين الأصدقاء الذين خلفهم بأسفل المرتقى الذي صعده ، فيهتف بهم أن يلحقوا به ، ولكن ، يبدو أنهم لا يسمعون نداءه . ان كلماته لا تصل اليهم . ويبدو أنهم مشفقون عليه يخشون عاقبة ما بلغ من ارتفاع . انهم يلوحون بأيديهم كأنما يدعونه للعودة اليهم لينجو بنفسه مما يخافونه عليه ، انهم متهيبون أن يلحقوا به ، يأسون من نجاته . ولكن يبدو عليه أن قد تملكته جرأة لا يعرفونها فيه ، وقد ينكرها هو نفسه . ان قوة تدفعه الى الامعان في تقدمه نحو هدف لا يتبينونه ولا يدرك هو حقيقته ، ولكن شوقا عارما قد تملكه فهو يغذ السير للأمام . »

ان النور الذي ينبعث من الوعي الروحي يقود السائر على الطريق ، ان وجد في نفسه الجرأة على الامعان في السير على هدى ذلك النور . ان نور الروح مرشد أمين دائما ، ولكن القليلين هم الذين يؤمنون به ويسلمون له قيادهم . ان أشعة ذلك النور

يراهما المستعدون لها الذين ينتظرون في رجاء وايمان اليوم الذى
تتفتح فيه بصائرهم لاستقبالها . ان هذا النور ليس ملكا للشرق
من دون الغرب ، وكل ما فى الأمر أن رجال الشرق وهبوه من
عنايتهم أكثر مما وهبه أهل الغرب . ان هذا النور ملك شائع لكل
من يتوجه اليه ، لكل رجل وكل امرأة ، لا فرق بين شرقى وغربى .
ولقد ظفر بنعمته ناس فى كل مكان ، وفى كل زمان ، أنباء قصته
فى كل حال تتفق فى جوهرها ، وان اتسعت بينها شقة الخلاف
فى التعبير .

وأول علامات حلول الوعى الروحى ، اشراق العلم بحقيقة
الذات (Ego) . الالتباه الى وجود الروح حقيقة ، عندما يبدأ
الانسان يحس بأن ذاته هى الروح ، بدل مجرد الاعتقاد بأن فيه
شيئا عجيبا اسمه الروح ، لا يعرف من أمره شيئا .

نقول : يوم يبدأ الانسان يشعر بأنه هو عين نفسه بدلا من
شعوره بأن له نفسا لا يعرف عنها شيئا أو أنه سيكون له نفس ،
عند ذلك يكون هذا الانسان متجها نحو أول مراتب الوعى الروحى
ان لم يكن داخل نطاقها فعلا .

ان لازدهار الزهرة وتفتحها دورين وان تداخل كل منهما فى
الآخر ، أولهما الشعور الكامل بالوعى الذاتى (أنا كائن) (I am)
والثانى المعرفة الكونية (Cosmic Knowing) وسنحاول أن نعطين

فكرة عن هذين الدورين ولو فكرة فجة قليلة الغناء ونحن نعلم علم اليقين أن من لم يعاين أحد الدورين ولم يصل الى مرحلته ، سيجد كلماتنا خالية من المعنى .

يمكن تشبيه الحالة الأولى حالة (أنا كائن) (I am) ببرعمة الزهرة ، والزهرة عندما تفتح عنها البرعمة ، بحالة (المعرفة الكونية) (Cosmic Knowing) وكثيرون ممن لم يكابدوا حالة الوعي الذاتى (معرفة النفس) قد يتصورون أنها هى الادراك العقلى للنفس أو الايمان والاعتقاد بوجود النفس حقيقة ، ذلك الاعتقاد الذى ولدته فيهم التربية الدينية ، ولكنه شئ آخر مختلف تمام الاختلاف ، انه أكثر من تصور عقلى وأكبر من ايمان أعمى مبنى على كلام الغير والثقة فيه ، بل انه أكبر حتى من الايمان بالوعد الالهى بالخلود . انه المعرفة والوعى (اليقين) بأن الانسان نفس ، هو أن يصحو الانسان صحوة يدرك بها أنه كائن روحاني خالد .

هنا أيها الأصدقاء نجد أنفسنا مرغمين على أن نتوقف عن الاسترسال فى الحديث لعدم وجود الكلمات التى تستطيع التعبير عن الجالة العقلية فى هذا الدور ، لأن الجنس البشرى ، بسبب عدم وصوله الى هذه الحال ، لم يضع كلمات خاصة بالتعبير عنها . فى اللغة السنيكرتية كلمات أدخلها فيها اليوجيون القدماء

يستطيع الهندي المثقف أن يدرك معناها لحد ما ، ولكن لغات الغرب لا تحوى كلمات تؤدي معانيها ولذلك سنلجأ الى الأمثال نضربها لنقرب المعنى ولو أنها أمثال فجأة .

ليس من السهل أن يصف انسان الحب والمواساة ونحوهما من العواطف لشعب لم يسبق له أن عرف هذه الاحساسات — لم يعرف الحب ولم يعرف المواساة — انها احساسات يجب أن يشعر بها الناس فاذا شعروا بها وضعوا لكل حالة منها اسما اذا ذكر عرف السامع أن هذا الاسم يراد به تلك الحالة .

كذلك الوعى الذاتى (أنا كائن) الذى نتحدث عنه ، انه يحل بالنفس التى تفتحت تفتحاً يكفى لاستقبال أشعة العلم الصادرة عن العقل الروحى من خلال هذا التفتح ، فاذا أشرقت النفس بنور تلك الأشعة (عرفت) . هذا كل ما هنالك . انها تعرف نفسها ، تعرف أنها وحدة خالدة ولكنها لا تستطيع أن تفسر هذا الذى أشرق عليها فعرفت به لأنه لم يطلق عليه اسم اذا ذكر دل عليه . انه ليس فكرة يمكن أن يفسرها الانسان بالقول المعقول للغير ولا حتى لنفسه ، فهو أمر لا صلة له بالعقل أو الرأى أو التعليل أو التصديق بالاقناع أو الرجاء والأمل أو الايمان — ايمان العجائز .

انه وعى . انه صحوة . وككل وعى أو احساس لا يمكن وصفه

لمن لم يكابده أو لم يذقه — تصور وصف النور لمن ولد أعمى ،
أو وصف طعم السكر لمن لم يذق حلوا في حياته ، أو وصف
البرد القارس لمن عاش حياته كلها في المناطق الاستوائية ولم
يشعر بالبرد في حياته . اننا لانستطيع أن ننقل هذه الاحساسات
أو المدركات الى من لا عهد لهم بها لأنهم لم يعرفوها فلم يصفوها
ولم يضعوا لها أسماء تعرف بها .

كذلك نحن لانستطيع أن ننقل هذا الاحساس الروحي الى
من لم يذق طعمه ولا عرفه . وهذه حقيقة يعرفها من مرت به في
حياته فترة عرف فيها حالا من الأحوال (الدينية) كما تسمى
عادة .

ولقد عرفنا حالة من حالات هذا الوعي الروحي حلت برجل
من قرية يبدو أن أحدا غيره لم يصل فيها الى مثل حالته . كان
رجل أعمال ناجحا ذا مقدرة ، وحدث أن أحس فيضا من أشعة
النور الروحي تغمر عقله فكان يحس بوجود روحه وخلودها
فيسبب له ذلك الاحساس حيرة وهما حتى كان يظن أنه يوشك
أن يصاب بالجنون . ومع أن حالته هذه كانت تضيء عليه سعادة
لا توصف ، الا أنه كان يرجو أن تمر وتنقضى . ولكنها استمرت
حتى بدأ يفكر في توكيل غيره في ادارة شئونه خوفا مما حسبه
اختلالا في قواه العقلية ، فان حالته هذه لم يكن لمثلها وجود —

فيما يعلم الى أن وقع في يده كتاب يتحدث مؤلفه حديث من يكابد هذه الحالة ويخافها فأدرك الرجل ما وراء حديث المؤلف ولو أن غيره ما كان ليفهم من الكلمات ما فهم هو فصاح : الحمد لله ، لقد وجدت مخبولا آخر .

لقد أشرق النور على الكثير من الناس — أكثر مما يظن — ولكن هؤلاء الذين يشرق عليهم النور لا يتحدثون — غالبا — لأنهم يخشون أن يتهمهم أصدقاؤهم وأهلهم بالخبل . والحق أنه ليس من الصواب أن يتحدث من يحس هذا الاحساس الى غيره في أمره ، فان الحديث في أمر الى غير أهله يجعلهم يظنون بالمتحدث الظنون . وانه لعجب يدعو الى التندر والاستغراب ، ان الناس وهم يتحدثون كل يوم عن النفس والروح ، ويدعى كل منهم أنه روح أو أن له روحا ، انه لعجب أن يعتبروا من يقول انه قد عرف هذه الروح ، واتصل بها حقيقة ، رجلا شاذا .

ان اعتقاد الناس في النفس وخلودها ما هو الا شيء سطحي ، حتى انهم ليخشون الموت كما يخشاه من يؤمن بأن الموت فيه نهاية الانسان ، وحتى ليرفضون كل الدلائل التي تدل على أن للحياة أحوالا أخرى غير هذه الحالة العادية التي نحياها ويعتبرون الذين يؤمنون بهذه الأحوال أفاكين أو مجانين . انهم يؤمنون بأن الحياة على الأرض هي كل شيء وأنه لا ادراك الا ادراك الحواس

الخمس وما عداها وهم أو خداع أو حيلة ، كل معتقداتهم في النفس حديث لسان فقط ينكرون أن يكون لأحد قوة لا يجدونها في أنفسهم مهما كانت آثارها جلية واضحة .

ولكن من أشرق على دائرة تفكيره ، واخترق محيط عقله ، بعض أشعة الحق الصادرة من العقل الروحي ، ينتهي عهده بهذا الاعتقاد السطحي ، وتصبح الروح بالنسبة له حقيقة لها في نفسه أثر يجعله كائنا آخر غير الناس الذين يعيشون حوله . ومهما تظاهر بالسير سيرتهم ، فانهم يحسون أن فيه شيئا غريبا عليهم ، وان كانوا لا يستطيعون معرفة كنه هذا الشيء .

ويجب ألا نظن أن هذا الوعي يتفتح ، وان البرعمة تظهر وتتحول الى زهرة دفعة واحدة ، وان كان هذا حدث في بعض الحالات ، ان هذا التفتح يحدث في معظم الحالات تدريجيا . ولكن الانسان بعد أن يبدأ هذا التفتح ، لا يمكن أن يكون كما كان قبل بدء مرحلة التفتح هذه . قد يبدو له أن هذا الوعي قد اختفى بعد احساسه به أول مرة ، ولكن اشراق الوعي يعاوده مرة بعد أخرى ، وهو (أى الوعي) لا ينقطع خلال اختفائه أو ظهوره عن عملية تطوير طبيعته (طبيعة الانسان) من حال الى حال . ويظهر تطوره هذا في تصرفاته وعاداته اذ يصبح أكثر مرحا وسعادة ، وما يقض مضاجع غيره من أحداث لا يكاد يكون له في نفسه

أثر . حتى انه ليجد مشقة في اظهار حزنه مجاملة لمن تصيهم الكوارث ممن حوله ، حتى ليظن الناس أنه قد تحجر قلبه ، ومات احساسه ، ولو أن قلبه يفيض رحمة وعظما . ولكن طريقة تفكيره قد تغيرت ، ونظرته للأمور أصبحت من ناحية تختلف عن نظرة غيره من الناس .

انه لا يخاف ، انه لا يهاب شيئا ، حتى ل يبدو للناس كأنما استولى عليه الخرق فلا يبالي بما يحذره غيره ، ويفقد الزمن في نظره قيمته ، لأنه يعيش في الأبدية ويحيا فيها . وكذلك المكان أيضا يتضاءل أمامه فلا تعود للمسافات سابق قيمتها . انه يدرك مالا يدرك سائر الناس فيفهم من أقوال السلف وحتى من أقوال بعض المعاصرين من المعانى ما يخفى على سواد الناس .

ومن الكتاب من يشرق في عقله بصيص خافت من ذلك النور فيعتريه من ذلك حال ينقل العقل فيها عن الروح الهاما يصيغه في كلمات يفهمها من يتمتعون بهذا الاشراق ولو أن الكاتب نفسه قد لا يدرك كل معانيها لضالة حظه من النور — انه حديث الروح للروح تدركه الروح ولا تدركه العقول .

من قرأ هذه الكلمات وفيه ما قصدنا من قوة الروح كبرت هذه القوة أو صغرت ، فليفرح وليتشجع ولا يحسبن أنه وحيد بين الناس فان له آلافا من الاخوة والأخوات يشاركونه في تفكيره

ويتبادلون واياه المدد والعون فيفيد ويفيدون من هذا الاتصال
الروحي وهم لا يشعرون .

ان كنت واحدا من هؤلاء فالزم الهدوء والصمت ان وجدت
في ذلك حكمة ولكن افتح مغاليق نفسك لما ينساب نحوك من
حذب وعون على أمواج الفكر ، ان فكرك سيجذب اليه ما شابهه
من أفكار اخوتك في الروح كما أن أفكارهم ستجذب فكرك
اليهم . ستجد في الكتب والصور كلمات كتبت لك ولمن على
شاكتك . أعد قراءة ما سبق لك أن قرأته من الكتب القديمة ،
وانظر مدى الخلاف بين ما فهمته منها من قبل وما تفهمه الآن بعد
أن وعيت . اقرأ القرآن والتوراة . اقرأ من جديد شكسبير ، وقرأ
شعر الشعراء وحكم الفلاسفة ، تجد أن أولئك الذين تقرأ لهم
اخوة لك وتنفتح لك ما أغلق سابقا دونك من أبواب ، ويتضح لك
ما كان خافيا عنك من قبل . انك لست وحيدا ، انك عضو في
أسرة أفرادها كثيرون ، وعددهم كل يوم في ازدياد .

ولكن احذر أن يملأك الغرور وأن يملك العجب والاعجاب
نفسك تيهها بما بلغت من تقدم ، واعلم أنك ما زلت على العتبة ،
وما زال رواق المجهول من دونك لم تدخله ، فان دخلته فاعلم أن
فيه درجات يرقاها الداخلون درجة بعد درجة ، ومراتب يبلغونها
مرتبة اثر مرتبة ، واعلم أنه لإبد لك من اجتياز مرحلة الاستقبال
والفحص والقبول قبل أن توصل المسير .

وقبل أن تنتقل الى المرحلة التالية من مراحل نمو الزهرة ،
قد يستهوى القراء أن ينصتوا الى وصف تجربة طريفة سطرها
كاتب معاصر كبير - رديارد كبلنج - ذلك الكاتب الذي يعي
أكثر مما يتحدث به الى قرائه الأمريكيين والانجليز في قصته التي
كتبها عن حياة الهند الشرقية التي سماها (KIM) . كثيرون
يقرأون ما كتب فلا يرون فيه شيئاً ، ولكن من وهب قبسا من
هذا الوعي الروحي سيجد فيه مالا يجده غيره واليك هذا الوصف :
« ودار في خلده . أنا الآن وحيد فريد ليس في الهند كلها من
بشعر بأنه وحيد مثل ما أشعر !! فان مت اليوم فمن ينقل النبا ،
والى من ينقله ؟ وان عشت ، والله رحيم ، وعلى كل شيء قدير ،
فسوف يكون لرأسى ثمن فأنا ابن من أبناء التعويذة .. أنا كيم » .
« قليل من البيض .. قليلون جدا وكثيرون من الآسيويين
يستطيعون أن يلقوا بأنفسهم في غيبوبة بأن يرددوا أسماءهم
لأنفسهم تاركين لعقولهم العنان للتأمل فيما يقال له الهوية
الشخصية .

« من هو كيم - كيم - كيم ؟ .

« وتربع في ركن من أركان قاعة الانتظار المزدهمة الصاخبة ،
محلقا بفكره بعيدا فوق كل فكر وراحته في حجره تتشابكان ،
وقد ركز عينيه على مالا يزيد على رأس الدبوس ، فما هي الا لحظة

— نصف ثانية — واذا به يحس أنه يستطيع أن يصل الى حل
المعضلة الهائلة . وهنا حدث ما يحدث دائما وهوى عقله من تلك
الآفاق العليا هابطا كما يهوى الطير الجريح ، فمسح عينيه بيده ،
وهز رأسه .

« وفي تلك اللحظة ، وقف أمامه شيخ طويل الشعر من ذوى
البركة من الهنود ، كان قد اشترى تذكرة سفر لتوه ، وقف يحدق
فيه ، ثم يقول له :

« وأنا أيضا قد فقدتها ، انها احدى بوابات الطريق ولكنها
مغلقة فى وجهى منذ أعوام .

« فقال له كيم فى خجل شديد : عن أى شىء تتكلم ؟

« قال الشيخ » لقد كنت مستغرقا فى التأمل فى الروح متعجبا
تساءل أى شىء هى النفس وماذا عساها أن تكون .. أنا أعرف ..
ومن ذا عساه أن يعرف غيرى ؟ » .

كيم تأليف رديارد كبلنج ص ٢٩٥ — ٢٩٦ طبعة دبلداى
ويج — نيويورك .

ويقول أصدقاء تيسون الشاعر الأقربون انه كان ينتقل الى
حال الوجد ويتمتع بشىء من الاشراق الروحى بعملية مشابهة
لتلك التى اتبعها كيم فكان يكرر اسم نفسه متأملا فى حقيقة

شخصيته ويقول انه كان في هذه الحالات يعاين نفسه ككائن روحى
خالد مستقل منفصل عن الجسد .

أما نحن فلا نقر هذه الطريقة ، طريقة (اقتحام المملكة) ، وانما
نفضل أن يضىف العقل الروحى بالتدرىج نوره على دائرة الوعى ،
فاننا نرى أن هذه هى الطريقة المثلى وان كان كثير من معلمى
اليوجا يخالفوننا فى الرأى ، ويدربون طلابهم على رياضيات وطرق
أعدت لاحداث هذا التفتح فى الوعى ، على أن هذا خلاف فى
الرأى حول الوسائل الموصلة الى نفس النتائج ، ولا نحب أن
نفرض رأينا على من يرى الرأى الآخر .

وفيما يلى رياضة من خير هذه الرياضات التى يرى اليوجيون
أنها تساعد على تحقيق الاشراق الروحى .

« رياضة »

استلق فى استرخاء مريح ، وتنفس تنفسا منتظما ، مركزا
فكرك على (نفسك الحقيقية) متمثلا نفسك على أنك شىء منفصل
عن الجسد ، وان كانت نفسك تشغله ، وتقيم فيه ، وتستطيع أن
تفارقه متى شأئت . فكر فى نفسك : لا على أنك الجسد بل النفس
التى فيه . فكر فى جسمك على أنه كالقشرة ، أو الغلاف المريح
النافع ، ولكنه أداة لا أكثر ، وآلة لخدمة ذاتك الحقيقية . فكر
فى نفسك كائنا مستقلا يستعمل الجسم فى حرية تامة ، ولأحسن

غاية ، وأكبر منفعة ، لها عليه مطلق السلطان ، ولها فيه حرية التصرف . وفي خلال تأملك ، تجاهل الجسم تجاهلا تاما ، تجد نفسك لا تشعر به حتى لقد يصل بك الحال الى الشعور بأنك خارج عن هذا الجسد ، وأنتك تعود اليه عند نهاية الرياضة (التنفس المنتظم وصفناه في كتيب عنوانه علم التنفس) .

دعاء وتأمل

وفي القيام بالرياضة اليوجية السابقة يستطيع الطالب اذا شاء أن يفكر على النهج التالي ويردد العبارات الآتية :

« أنا موجود (أنا كائن) اننى متأكد من حقيقة وجودى — لا بالجسد فحسب ، فان الجسد نسبي مقيد زائل فان — ولكن بالروح الخالدة المطلقة غير المقيدة . اننى متأكد من حقيقة شخصيتى — ذاتى — روحى — (الانا) الحقيقى ، أنه هو العنصر الروحى الذى يتجلى فى الجسد ، وفى العقل ، ومظهره الأعلى أننى أشعر بنفسى وروحى : هذا (الانا) لا يموت ولا يفنى — قد يغير وسيلة ظهوره أو مركبه — هذا الجسد — ولكن (الانا) دائما هو نفسه انه جزء من الروح الكلية ، روح الكون . أنا قطرة فى محيط الروح . أنا ذرة روحية تتمثل فى وعيى الحالى وتؤثر فيه لبلوغ الكمال . أنا نفسى ونفسى أنا وما عدا ذلك متحول متغير أنا أنا . أنا كائن . أنا كائن . أنا .. (يكرر الطالب قوله أنا كائن) » .

يجب أن يخصص الطالب كل يوم دقائق للتأمل الصامت في مكان هادئ بقدر الامكان ، يسترخى فيه اما جالسا أو مستلقيا لا يتحرك ولا يشغل عقله بشيء على الاطلاق . فاذا توافرت الظروف المحققة للشروط ، وجد نفسه وقد استولى عليها هدوء هادئ شديد السكون ، ذلك الذي يعرف (بدخول الصمت) . وعند ذلك يكرر حديث النفس السابق أو ما يقربه . كل ما يراد هو أن يركز الفكر على عبارة (أنا كائن) فانها ان فهمت وطبعت في العقل أضفت على الطالب هدوءا له وقار ، وأبرزت فيه قوة نفسية روحية يشعر بأثرها من يتصل به من الناس . أنها تحيطه بهالة روحية لها سر وقوة ، وتنحى عنه الخوف ، فينظر للدنيا وللناس ، رجالهم ونسائهم ، نظرة القوى الواثق ، وقد علم أنه روح خالد ، وأن شيئا لا يستطيع أن يلحق به ضرا حقيقيا .

حتى أولى مراتب هذا الوعي وأبسطها ترفع الانسان فوق مستوى هموم الحياة ومشاغلها وأحقادها ومباغضها وحسدها وما فيها من الغرائز الدنيا فيصبح الرجل أو المرأة رجلا أو امرأة بالروح حقا ، يرسل الاشعاع الروحي الذي ينبعث من أحدهما الى نفوس المحيطين به أثرا طيبا يبعث فيهم روح الثقة به والاطمئنان اليه والاحترام له .

هذه التأملات والرياضات كثيرا ما تساعد الانسان على تنمية

الوعى وعلى الشعور بحقيقة النفس ويصحب ذلك الشعور بالخلود ولكن ليس للطالب أن يقضى في هذه التأملات وآفاقها العليا معظم وقته أو أن يقلل من شأن الجسد وحاجاته ، أو الدنيا والناس من حوله ، فإن هذا يعرف بالكبرياء الروحي الذى يقضى بصاحبه الى السقوط . ائنا قد وجدنا في هذه الدنيا لحكمة ، ولا بد أن نمر بما فرض علينا فيها من تجارب ضرورية لصقلنا . انك فى المركز اللائق بك ، الملائم للتجارب التى لا بد لك من المرور بها ، ولا سبيل الى البقاء فى هذا المركز لحظة أطول مما يجب . يجب أن تعيش وأن تنمو وأن تقطع مراحل حياتك كأحسن ما تستطيع باذلا جهداك بالتى هى أحسن ، وكن مترفقا حكيما .

هذا الوعى والشعور بالكينونة ولو أنه خطوة كبرى وتقدم عظيم بالقياس الى الوعى المعروف للناس عامة ، الا أنه مجرد مرحلة تمهيدية للمعرفة الكونية التى أعدت للنفوس الآخذة فى النمو ، أنه هو البرعمة التى تتحول الى الزهرة الكاملة فى الوقت المناسب . ولئن كنا قد صادفنا صعوبة فى التعبير بالكلمات الواضحة السهلة عن هذا الوعى الذى ألمعنا اليه منذ هنيهة ، فتصور ما نشعر به عندما نرانا نقرب من المرتبة الأعلى ، التى يمهد لها هذا الوعى . ولكننا سنحاول أن نبذل أقصى الجهد ، ولو أن كلماتنا حتما ستبدو عجافا هزيلة غير قادرة على حمل المعانى التى نريد أن

تحملها . ان غير أهل الحقيقة التي نهم بشرحها سيبدو لهم ما تقوله هراء لا غناء فيه . ولكن حتى هؤلاء ، سترك الكلم في أنفسهم أثرا يذكرونه فينتفعون به عندما يحين أوانه ويصبحون أهلا للانتفاع بهذه التعاليم وعلى حد قول والت هويتمان : « ان كلماتي سوف تظل تنز في آذانكم حتى تفهموها » .

هذه المعرفة الكونية هي الزهرة التي تزدهر في الهدوء الذي يلي العاصفة كما قالت مؤلفة كتيب « ضوء على الطريق » أو ناقلته بعبارة أصح ، انه ذلك الذي يأتي ثمرة (للاشراق) .

لقد كتب الكتاب الروحانيون في كل عصر عن هذا الشيء ، كذلك وصف الناس من مختلف الأديان بعض مظاهره ، ومنهم من قرر أنه ثمرة عبادة الاله في مظهر من مظاهره ، أو نتيجة اتباع مذهب أو نحلة ، وأصحاب كل طائفة مصرون على أنه ثمرة العبادة على طريقة دينهم دون سائر الأديان ، ولكن الواقع ان هذا الشيء فوق الطرق وفوق المذاهب وفوق الديانات انه جزء من ميراث البشرية الالهية . لقد وصف هذا الشيء بأوصاف متعددة .

وصفه أهل المشرق على طريقتهم ووصفه المجددون البروتستانت بأوصاف آخر وتحدث عنه قديسو الكاثوليك وغيرهم وكل فريق يدعى أن هذا الشيء ثمرة اتباع طريقته الخاصة ، ومراعاة طقوسه دون غيرها ، لقد شعر كبار الشعراء به . كما تواترت الأدلة على

حقيقته من مختلف المصادر . منهم من أشرق النور عليهم رويدا رويدا يزداد اشراقا مع الوقت حتى يبلغ ذروة الاشراق ، ثم يأخذ يخبو قليلا قليلا حتى يختفى وقد ترك صاحبه مخلوقا آخر يعيش على أمل عودة النور ، وعلى رجاء الاستمتاع مرة أخرى بسنائه وبهائه .

ومنهم من أشرق عليهم النور بغتة كأنما أغرق أحدهم في بحر متلألئ من النور (١) ثم انحسر عنهم وقد أصبحوا قوما آخرين وما أشرق النور على اثنين بنفس الكيفية وفي نفس الظروف ، ولكن التشابه بين شهادات الجميع عن هذا النور موجود دائما وصل مستر رتشارد بك أحد كتاب الغرب الى هذه الحالة ولاحظ أن صديقه والت هويتمان وصل اليها أيضا مع بعض الأصدقاء فجمع الحالات التي وصلت الي علمه وضمنها كتابا سماه (الوعي الكونى — دراسة في تطور العقل البشرى) .

Cosmic Consciousness, a study in the Evolution of the Human Mind.

Innes and Sons Philadelphia Penn. U.S.A.

وقد طبع من هذا الكتاب ٥٠٠ نسخة لعلها الآن قد نفذت جميعا ولكنه كتاب يستحق الدرس . ومؤلفات الشرق مليئة بهذه الحالات وقد بدأت كتب الغرب تعنى بهذه المعرفة .

(١) ومن هنا كان لفظ الاشراق الاصطلاحي . (المراجع)
دكتور حلمى

وقى كل ما كتبه الغربيون تقريبا عن الموضوع ، لانجد الا وصفا
لحالات الاشراقات الفجائية الباغته لهذا الوعي الروحي . ولكن
جهاذة المشتغلين بالروحانيات وما وراء المادة يستطيعون أن
يوجدوا بقوة الادارة هذا الاشراق بصفة تكاد تكون مستمرة
هؤلاء لا يظهرون للعالم كمعلمين أو كتاب ولكنهم يقومون بعملهم
بواسطة رجال غيرهم ممن هم أقل منهم مرتبة يمدونهم بمدد روي
من فضل الله عليهم وما أوتوا من حكمة ، وهؤلاء ينفحون من
حولهم ببركاتهم ، ويفيضون عليهم ببعض مامن الله به عليهم من
الحكمة العظمى والنور (١) . وبصفة عامة يمكن وصف هذا الحال
بأنه تحقق فعلى من وحدة الكل ومن صلة الانسان الروحية بالله
الواحد ، تتحقق فيه الذرة التي يتألف منها ومن أمثالها الشعاع
تتحقق هذه الذرة لحظة واحدة من ارتباطها (بالشمس المركزية)
بالنور الأعظم . تتحقق القطرة من علاقتها بالمحيط محيط الروح
ويذكر الهندوس هذا الاشراق الروحي ويصفونه بأنه السناء
البرهمى (Brahmic Splendour) ولنسمه نحن النور الالهى أو
الفيض الربانى .

والشعور الذى يملك الانسان فى هذا الحال ، هو شعور
بهجة لا حدود لها ، شعور يفوق فى عظمته كل ما عداه . انه شعور

(١) ما أقرب هذا أو لعلاه هو من حديث الصوفيين عن الغوث
والاقطاب الأربعة والابدال والشيوخ والنقباء (المترجم) .

بالبهجة المطلقة (Absolute Joy) أن جاز استعمال هذا التعبير،
وتترك هذه البهجة في النفس أثرا لا يعفى عليه الزمن ، بل يظل
انعكاس ضوءه على النفس ساطعا أبدا فيما بعد ، فيحس الذي
أشرق عليه مرة طول أيامه ، بنشوة وسعادة ، كأنما في قلبه معين
لهما لا ينضب ، تسقى منه النفس كلما ظمئت (١) . تختفى هذه
البهجة القصوى التي تفوق كل بهجة تدريجيا ، ولكن يبقى بعدها
شيء فيه تعزية وفيه تفريج ، وان الانسان ليذكر تلك البهجة بعد
أن تنحسر موجتها بنشوة ترسل الدم في الجسم حارا ، وتزيد
القلب وجيا ، كلما استعرض العقل ذكريات ذلك الحال .

هنالك يذوق الانسان اشراقا عقليا وفيضا من المعرفة مما
لا يمكن وصفه ، اذ تحس النفس بأنها أوتيت علم كل شيء (٢) ،
وقد كانت من قبل لم تتوت من العلم الا قليلا .
لقد أصبحت تحس بأنها أوتيت أسباب كل شيء ، وأسرار
كل شيء ، وانها قد وضح لها كل ما كان خافيا . ليس من الممكن
وصف ما تحس من ادراك ، فانه لم يعرفه عقل بشرى ،

(١) كل من يشرب من الماء يعطش أيضا . ولكن من يشرب من
الماء الذي أعطيه انا فلن يعطش الى الأبد . بل الماء الذي أعطيه يصير
فيه ينبوع ماء ينبع الى حياة أبدية .

المترجم .

(يوحنا ٤ - ١٣)

المترجم .

(٢) (العلم اللدني)

ولذلك فليس من الكلمات ما يستطيع التعبير عنه . وكل ما يمكن قوله ، هو أن ما خفى من قبل يصبح جليا ، لا بسبب زيادة القدرة على البحث والاستقصاء والوصول عن طريقهما الى النتائج ، بل لمجرد أن النفس أصبحت (تعرف) .

قد لا يستمر هذا الشعور الا فترة كلمح البصر ، يفقد الانسان أثناءها كل تقدير للزمان والمكان ، ولكن ما يشعر به من الأسى لانقضاء فترة الاشراق العظيم لا يمكن أن يقدره من لم يمر بهذا الدور . والشئ الوحيد الذى يهون على العقل حمل اللوعة التى تعقب انقضاء فترة الاشراق هذه ، هو ثقة فى عودته يوما ما فى مكان ما . هذه الثقة تجعل للحياة قيمة ، ان النفس قد تذوقت به سلفا ما أعد لها من نعيم .

ومن الآثار التى تنطبع فى العقل لتلك الفترة من الاشراق ، علم اليقين بأن الحياة تتغلغل فى كل شئ فى الوجود . ان الكون مفعم بالحياة وليس شيئا جامدا ميتا لا روح فيه . ان الحياة والتدبير يملآن كل شئ . ان الحياة الأبدية أمام الانسان يكاد يلمسها واللانهاية فى قبضة يده ، لقد أصبح للانهاية وللأبدية معنى واضحا فى العقل ، وصورة ثابتة فى الفكر ، ولكن لا سبيل الى شرح معناها او رسمها بالكلمات للغير .

وتمت احساس آخر هو أن الحب السامى الكامل لكل ما فى

الحياة ، يصبح حقيقة لا يدانيها كل ما صور به الحب من قبل ،
كما أن الشعور بالتححرر من الخوف يستولى على الانسان ، حتى
لكأن الخوف لا وجود له ، أو لا سبب لوجوده ، ولذلك فانه
يختفى ، ويزول ، فلا يعود الانسان يفكر فيه ، حتى لو استعاد
ذكريات ما كان يرضه ، وما كان يتقيه ، لأن الاحساس بالمعرفة
والثقة والأمن والاطمئنان والتسليم والتوكل كلها تملأ النفس ،
فلا يعود فيها مكان للخوف . كذلك يختفى من النفس بعد هذا
الاشراق الشعور بالخطيئة ، لأن الشعور بالصلاح يستولى على
النفس فتشعر بأن كل ما في الوجود صلاح وبر ، لا تقصد بالصلاح
أن شيئاً خيراً من شيء ، ولكن تقصد الصلاح المطلق .

وكما أجمالنا القول من قبل ان هذا الاشراق ، اذا حصل
للانسان ، ينحسر عنه وقد تغيرت نفسه وتغير ما بها ، فيصبح
الانسان كائناً آخر مختلفاً تمام الاختلاف عما كان من قبل . ولو أن
الاشراق يمضى ، والنور الذى غمر النفس فترة لا يعلم مداها
الا واهب النور ومصدره ، يختفى ، الا أن النفس يغيرها ويستولى
عليها اطمئنان لا يفارقها ، يجد فيه الانسان العزاء والسند ، كلما
ثقل قلبه ، وأحس به ينوء بأعباء الحدثن ، ويجد فيه القوة اذا
عاودت العقل زوابع الشك فهزته كالقصبه فى مهب الريح . ان أثر
ذلك الاشراق وذكراه معين قوة تتجدد ، ومرفاً أمان تلجأ اليه
النفس كلما تعبت من العالم — العالم الذى لا يفهمها .

ولنختم هذه المحاولة المتواضعة لوصف مالا يمكن وصفه (١)
بما سبق أن قلناه في درسنا الثالث من الدروس الأربعة عشر .
« مما كتبه قدماء الفلاسفة من جميع الأجناس ، وما أنشده
فطاحل شعراء جميع الشعوب ، وما جاء به حكماء جميع الأمم ،
نستطيع أن نجمع آثار هذا الاشراق الذي جاء الانسان — تفتح
الوعى الروحى . لقد تحدث عنه هذا بطريقة ، وهذا بأخرى ، ولكن
الجميع رددوا نفس القصة — قصة واحدة لا تختلف . كل الذين
أشرق عليهم هذا النور ولو خافتا باهتا ضعيف الضياء ، يرون
نفس المعالم ، وقرب الشبه ، بين ما تصفه الأنشودة ، والشعر ،
والتعاليم ، مهما بعد العصر ، واتسعت الحقة بينها ، انها أنشودة
الروح التى اذا سمعت مرة ، لا تنسى ، سواء أنشدها المتوحش
على صوت آله البدائية ، أو عزفها المتحضر على أوتار الآلة
العصرية المتقنة ، انها هى التى انحدرت من مصر الفراعنة ،
أو من الهند ، من أثينا وروما ، من القديس المسيحى فى الكنيسة
والدير ، من الفيلسوف الصينى ومن قصص الهندى الأحمر ، وهو
يروى أسطورة النبى البطل ، انها واحدة النبرات متشابهة النغم ،
ولكن صوتها يزداد ارتفاعا كلما مر الزمن بانضمام المنشدين
الجدد ، كل بما فى يده من قيثاره أو غيرها من آلات النغم ، الى
الفرقة العظمى .

(١) وكيف يمكن وصف مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر
على قلب بشر .
(المترجم)

ألا ليكن لكم هذا الاشراق وفرحته الكبرى أيها الطلاب
الأعزاء .

وسيكون لكم يوم يأتي وعده الحق فاذا جاء فأبشروا . وحين
ينحسر عنكم لا تخافوا ، ولا تحزنوا ، فانه راجع لا ريب في ذلك .
امضوا في الحياة سعدا نحو الروح ، وافتحوا قلوبكم لاستقبال
نورها ، وكونوا دائما مستعدين لسماع صوت الصمت ، مستعدين
للاتقياد لليد التي ترشد في الخفاء ، واثقين غير هيايين ، لأن فيكم
شرارة من النار الالهية ، تلك هي الروح ، ذلك النجم المشرق ،
ذلك القبس من نور الله ، انه كالسراج في المشكاة يضيء نوره
موطىء أقدامكم حتى لا تضلوا الطريق ، وحتى تتقوا العثرات » .

هنا نود أن نوجه النظر الى ما جاء في كتيب « ضوء على
الطريق » عن ازدهار الزهرة انه يقول : « أثناء هبوب العاصفة
واحتدام المعركة ، تنمو النبتة مرسله ساقها وفروعها وأوراقها
مكونة براعمها ولكن لا تتفتح البراعم وتغدو زهرا ، حتى تفنى
شخصية الانسان وتذوب وتنصهر وحتى نصبح في قبضة تلك
البضعة الالهية التي خلقتها لتكون حقا لاختبارات وتجارب جد
لا هزل فيها وحتى تسلم (طبيعتها الكاملة) وتصبح طوعا لنفسها
العليا .

(وشخصية الانسان) التي قصدت في هذه العبارة هي شطر

النفس الأدنى (الأسفل) : طبائعها وغرائزها الدنيا أو السفلى .
فالى أن تسلم هذه الغرائز السفلى لسلطان القوى العليا التى
تتفتح فى الانسان ، لا يحدث الاشراق المنتظر . ما دام سلطان
الغرائز الدنيا له النفوذ ، وله الأمر والنهى فى الانسان ، فانه يعلق
الأبواب فى وجه هذا الاشراق ، حتى اذا ما أسلم قياده للروح
أصبح مستعدا لتفتح الوعى الروحى وازدهار الزهرة التى قلنا
عنها انها وعى (أنا كائن) .

اذا تحقق هذا ، وعرف الانسان نفسه حق المعرفة ، وسلم
للروح قياده تسليما ، عندها يكون مستعدا لأن تتفتح البرعمة
وتزدهر الزهرة .

واستمع الى سياق عبارة الكتيب الجميلة : « عند ذلك يحل
سكون كذلك الذى يعقب هطول المطر الغزير فى المناطق الاستوائية
عندما تسرع الطبيعة فى عملها حتى تكاد نراها وهى تبدع كذلك
يحل بالنفس القلقة المضطربة سكون وهدوء واطمئنان وفى أعماق
هذا الهدوء يحدث الحدث العظيم الذى يدل على أن الطريق
قد وجد » .

لقد حاولنا أن نصف لك هذا الحدث ، وعسى أن نكون قد
يسرنا لك ادراك صورة له ، على شىء من الوضوح .

لقد واجهت مؤلفة الكتيب الصعوبات التى تعترض كل من

يحاول وصف هذا الحال الرائع ، والتجربة العظمى ، فهي تواصل القول : « سمها ما شئت من الأسماء . انها صوت يتكلم عندما لا يكون هناك من يصدر عنه ذلك الصوت — انها رسول يأتي بغير جسم ولا رسم انها زهرة الروح تفتحت . انها لا توصف بكلمة ولا باستعارة . ولكن يمكن الشعور بها بعد البحث عنها والتشويق اليها حتى خلال هبوب العاصفة » .

ثم تواصل الحديث عن مدة الصمت والهدوء الذي يعقب العاصفة والذي يحدث فيه الحدث الغامض العظيم فتقول « قد يدوم الصمت لحظة من الوقت أو ألفا من السنين ولكن لا بد له من نهاية ورغم نهايته فانك تحتفظ معك بقوته بعد انقضائه ومرة بعد مرة تهب العاصفة وتنشب المعركة فتخوضها جاهدا أن تنتصر . ان الطبيعة لا تهدأ الا فترات قصارا » .

هذه الجملة الأخيرة تقصد بها من غير شك الاشراق الجزئي أو المؤقت الذي تحدثنا عنه في هذا الدرس . ان اليوم الذي يصبح فيه الاشراق مقيما ، وتتمتع الروح فيه بالبهاء الالهي على الدوام ، ما زال عنا بعيدا . أما الذين وصلوا اليه فانهم ملأ سبقونا وأصبحوا في مستوى روحى نحن عنه بعيدون ، انهم في عالم الروح والريحان ولكنهم كانوا يوما بشرا مثلنا كالفجوا حتى فازوا ، وسنصبح نحن يوما من الأيام مثلهم . ومضات الاشراق المؤقت تأتي المرید اذا

ارتقت مرتبته ، وتقدم على الطريق . ومع أنها تعود فتختفى الا أنه يكسب قوة من اشراقها لا تفارقه .

كذلك نوجه النظر الى هامش هذه القاعدة الأخيرة ، لأنها تتضمن حقيقة روحانية عجابا في صورة موعدة ، لقد بعثت هذه الموعدة العزيمة في سالكي الطريق ، وبثت فيهم حماسة المجاهدة ، ومنحتهم همة مجددة ، وشجاعة حافزة ، وهذا هو الهامش : « اعلم أيها المرید أن أولئك الذين اجتازوا الصمت والسكون وشعروا بسلامه ، واحتفظوا بقوته ، يتوقون الى أن يروك أنت أيضا تجتازه مثلهم . لذلك في رحاب بهو المعرفة ، عندما يستطيع المرید دخولها هناك يلتقى المرید بمعلمه » .

والهامش الأخير الذى به يختتم الجزء الأول من كتيب (ضوء على الطريق) يجب أن يفهم القارئ معانيه ، ويجب أن يطيل النظر فيه ، لأن فيه ارشادا هاما ، ولذلك فانا ثبته هنا حتى لا يفغل الطالب عنه . ولعلنا قد يسرنا فهمه الآن أكثر من ذى قبل . عندما يجد الانسان المفتاح يستطيع أن يفتح الأبواب المغلقة ، أبواب بهو المعرفة فيلقى على كنوزها نظرة وان كان غير مصرح له بعد بدخولها . وهذا نص الهامش :

« الذين يسألون يعطون . ولكن مع أن الرجل العادى دائم السؤال ، فان سؤاله لا يجاب لأن صوته لا يسمع ، وذلك لأنه

يسأل بعقله فقط وصوت العقل لا يسمع الا على المستوى الذى يعمل العقل فيه ، فالى أن يجتاز الانسان القواعد الاحدى والعشرين لا نصيب له بين الذين يسألون فيعطون .

ان القراءة فى لغة أهل الطريق هى أن تقرأ بعين الروح . والسؤال هو أن تحس جوع النفس والحنين الروحى الى السمو ، والقدرة على القراءة يقصد بها القدرة ولو الى حد بسيط على اشباع ذلك الجوع . وعندما يصبح المرید مستعدا لتلقى المعرفة ، عند ذلك يقبل ويعترف به ويعرف . هكذا يكون الأمر ، لأنه أسرج مصباحه ولا يمكن اخفاؤه بعد أن أسرج ، ولكن الاستعداد لقبول المعرفة مستحيل قبل كسب المعركة الكبرى الأولى .

قد يدرك العقل الحقيقة ولكن الروح تكون ما زالت عاجزة عن قبولها حتى اذا اجتاز الانسان العاصفة ووصل الى السلام ، عند ذلك يصبح الطالب على استعداد لأن يتلقى المعرفة حتى ولو تردد ، أو ساوره الشك ونأى بجانبه . انه صوت الصمت يستقر فى أعماقه . ومع أنه قد يترك الطريق عامدا مصمما على ألا يعود اليه ، فان الصوت لا بد سينطلق يوما فيمزق كيانه واذا بطبيعته تنشق فتفصل غرائزه عن خصائصه الالهية فيعود الى الطريق وسط صياح نفسه الحيوانية الدنيا وبكائها من هجرانه لها .

لذلك أقول ليكن السلام معكم .

أما « سلامى أعطيكم » فلا يقولها الا المعلم لتلاميذه المخلصين الذين بلغوا درجته وأصبحوا كنفسه ومن الناس أفراد حتى من الذين لا يعرفون شيئا عن حكمة الشرق يستحقون أن يقال لهم هذه التحية . ويزدادون كل يوم استحقاقا لأن توجه اليهم .

هذا ختام الحديث عن الجزء الأول من (ضوء على الطريق)
وأمامنا الآن الجزء الثانى .

قد يثار الاعتراض بأن الجزء الثانى يعنى بالمريد وحاله بعد أن يجتاز العاصفة ، وبعد أن يمر بالصمت الذى يليها وأنه لا شأن له بالطالب الذى لم يبلغ تلك المرحلة من الطريق بعد .

ونحن نرد على هذا الاعتراض بأن تجارب المرید الموهوب الذى وصل ، ترتبط وثيق الارتباط بتجارب الطالب الذى لم يصل . فالطريق لولبى حلزونى يدور حول محوره مرتفعا قليلا مع كل دورة ، والسائر على الطريق يدور ويرتفع ويعود مع كل دورة الى حيث كان من قبل فهو وان كان أرفع درجة من حيث كان فى الدورة السابقة ، الا أن المناظر هى هى ، والجو هو هو ، وكل ما هنالك أن أفقه اتسع بنسبة ارتفاعه ، وازداد ما يمتد اليه البصر نتيجة لذلك الارتفاع ، فهو يشاهد فى كل دورة ما سبق أن شاهده وأكثر قليلا ، ولا يضير من على المستوى المنخفض أن

يسمع الحديث عن المستوى الذى يلى مستواه لكثرة ما يشترك فيه المستويان من ظروف ، ان زادت قليلا عند صاحب المستوى الأعلى ، فانها لا تضر صاحب المستوى المنخفض .

ولذلك فاتنا نجد فى أنفسنا رغبة فى مواصلة الحديث عن هذا السفر الصغير العجيب ، معتقدين أن الطالب الذى لا يزال على المستوى المنخفض سيجد فى حديثنا تشجيعا وفائدة ومعرفة ، فان فى الجزء الثانى من هذا السفر حقائق عظيمة تفيد منها جميعا .

لقد طلب الكثير من الطلاب أن ندلهم على رياضات تساعد على كسب الاشراق الروحى ونحن نقول لهم أن أحسن أساطين اليوجا وعمدها لا يقرون معظم الوسائل التى يلجأ اليها اخوتهم الذين هم دونهم معرفة وسموا .

يرى هؤلاء الراسخون فى العلم ، ان هذه الوسائل شاذة وغير طبيعية ، وانها بدل أن تولد الاشراق المنتظر ، لا تؤدى الا الى حالة نفسية هى فى الواقع انعكاس للاشراق الحقيقى المنشود ، انه القمر لا الشمس . وان هذه الحالات النفسية لا تساعد على التفتح الروحى وتحقيق الاشراق ، وان كانت تحدث حالة وجد فيها لذة وقتية .

انها نشوة نفسانية ان صح أن تستعمل هذا التعبير .

التأمل الذى أشرنا اليه فى هذا الدرس وما يماثله ، فيه فائدة من غير شك . وكثير من طلاب اليوجا يلجأ اليه بالاضافة الى التنفس

المنظم الذى له أثر فى التهيئة . ولكن على أحسن الفروض ، كل ما فى هذه الأشياء من خير وفائدة : هو أنها تمهد الأرض لنمو النبتة التى تنتج الزهرة . أما النبتة نفسها فانها لا تنمو الا اذا آن أوانها ، ولا يمكن انباتها قبل ذلك الأوان .

فلنمهد لها خير التمهيد ، ولنعد لها أحسن الظروف لنموها ، ولنرحب بها حين تظهر . والى أن يحين ذلك الوقت ، ليكن هنما أن نعمل بما يرضى أحسن ما فينا من مثل عليا ، وان فى اتجاهك أيها الطالب الى هذه الشئون واقبالك عليها لعلامة تدل على وعى روحى يشر بالخير والا لما اجتذبتك هذه الشئون الى الاهتمام بها .

فان لم يكن لهذه الكلمات استجابة فى نفسك ولا اهتماما بها فاعلم أن مالك سوف يأتيك . وثق أنك على الطريق ، فابحث عن النور وكن أهلا لاشراقه ، فانه آت لا ريب فى ذلك .
وأخيرا أصخ بسمعك الى ما قال كاربنتر الشاعر :

لا تتركوا الشعلة تخبو

لقد حاطتها الرعاية عصرا بعد عصر

حاطتها فى الكهوف المظلمة

حاطتها فى المعابد المقدسة

رعاهما سدنة الحب الصافى

فلا تتركوا الشعلة تخبو

الدرس الرابع

صوت الصمت

يستهل الجزء الثانى من (ضوء على الطريق) بهذه العبارة :
« من أعماق الصمت الذى هو السلام يرتفع صوت رنان وهذا
الصوت يقول : انه ليس بحسن أن تحصد فحسب . الآن وقد
حصلت يجب أن تزرع . واذ تعلم أن هذا الصوت هو السكون
نفسه فانك لا بد وأن تطيعه » .

الصوت الرنان الصادر من أعماق الصمت ، الذى هو السلام ،
هو صوت الروح يشق طريقه الى دائرة الوعي ، ولكن الصوت
لا يسمع واضحا كما كان يسمع فى وقت الاشراق ، لأن الأذن
تختلط فيها معه ذبذبات من مستويات منخفضة ، فلا تستطيع أن
تميز معها الذبذبات الرفيعة الصادرة عن الآفاق العليا من العقل .
ولكن الصوت مستمر لا ينقطع ولا يتوقف ، واذا أنصت اليه
فى انتباه ، فانه يسمع فى وضوح لا يختلط بغيره من أمواج الفكر
التي يمتلىء بها الأثير فان الانسان اذا اتجه بفكره الى المستوى
الروحي ، ارتفع بعقله الى ذلك المستوى فلا تعود الذبذبات التي
فى المستويات المنخفضة تصل اليه ، كما كانت تصل من قبل ،

فلا يمضى الا وقت قصير حتى يحذق التمييز بين صوت الروح
النقى الصافي وبين أمواج الفكر الدنيا التي تتلاطم حوله . ان
صوت الروح دائما في ارتفاع مستهدفا الأشياء الرفيعة السامية .
هذا الصوت سيقول « ليس هذا حسنا . انكم حصدتم والآن
هيا فازرعوا » . هذه العبارة تصور الشوق الذي يملك الروحاني
الحق ، الذي تحقق له الوعي الأعلى الذي يلزمه بأن يطبق في الحياة
العملية مبادئ الحق الذي تجلى له ، وأن يظهر للعالم بأعماله
واتصالاته بالخلق ما جاءه في الصمت من فكر .

ان النفس تظل تنتظر في وحدة وعزلة حتى يأتيها اليقين ، حتى
اذا جاءها واحتل مكانه من القلب ملاءها بقلق الهى (Divine
unrest) يدفعها الى الخروج من عزلتها الى العالم ، فتحيا حياة
روحية بين الناس ومعهم بعد الاعتزال والبعد عنهم .

الرجل الذي جاءه الاشرار الروحي ، حتى في أخفت درجاته ،
يصبح شخصا آخر ينبثق عنه فكر من نوع آخر غير ما ينبثق من
الأفكار ممن حوله من الناس . ان له مثلا عليا غير مثلهم ، ولذلك ،
تختلف آراؤه عن آرائهم . ولموجات فكره أثر على مجموع موجات
أفكار العالم . انها تعمل فيها عمل الخميرة في العجين ، انها كجدول
الماء النقى ينصب في البركة العكرة فتبقى بفعله مياها وتصبح
صافية كلها ، أن العالم في حاجة الى وجوده ، والى أفكاره ،

ولذلك يوحى اليه العقل الروحي أن يبرز للعالم ، ويحيا بين الرجال والنساء لا بمعزل عنهم انه يقول له « لقد حصدت وقد آن الأوان لأن تزرع » ، « واذا يعرف هذا الصوت ويعرف أنه الصمت نفسه يصدع بأمره » .

ان الحياة الروحية والعقلية لها ثلاث مراحل أو مستويات . وكما أن الجنين يمر في مدة الحمل بجميع الأدوار الطبيعية الجسدية التي مر بها الجنس البشرى خلال تطوره في ملايين السنين ، كذلك يمر الانسان في نمو روحه بالأدوار التي مرت بها الانسانية في تطورها العقلي والروحي . ولكنه لا يتجاوز المرحلة التي أهله لها تطوره ونضجه فيصل الى المرحلة الأولى ان كان من رجالها فان كان من رجال المرحلة الثانية وصل اليها مارا بطبقات المرحلة الأولى ثم الثانية ثم يتفتح وعيه في المرحلة الثالثة وسنلقى على هذه المراحل نظرة :

المرحلة الأولى هي ذلك المستوى الذي يسيطر فيه على الانسان العقل الغريزي ، وهناك لا تكون القوة العاقلة قد بلغت بعد من النمو والتقدم الدرجة التي تجعلها تفرض نفسها ، وتمارس حقها في التوجيه . أما العقل الروحي ، فان وجوده في هذه المرحلة يكاد يكون في حكم العدم . وفي هذا المستوى ، نجد القبائل البدائية والأطفال الصغار ، لا يعنى الفرد منهم الا بما يتصل بجسمه من

حاجات كالطعام والمأوى واللباس والمتاع المتصل برغبات الحواس الخمس ، ويشيع بين أفراد هذا المستوى نوع من الحرية والديمقراطية لا يعرف فيها أحد الاحساس بأنه أتقى من أحد ، أو أن أحدا خير من أحد ، فتجد الناس على هذا الصعيد من التطور ، متحررين متساهلين ، يسعدون بالحياة أكثر من أهل المستوى الثانى ، المرتفع عن مستواهم .

انهم لا يدركون شيئا عن الخطيئة والاثم . يتبعون أهواءهم وما تمليه عليهم غرائزهم من غير مناقشة . وفيهم اعتقاد غريزى فطرى بوجود قوة عليا ، وان لم يهتموا بها كثيرا ، فلا يتصورون أن هناك أفعالا ومراسم ترضى تلك القوة ، فاذا خولفت المراسم أو ارتكب تقصير فى الأفعال المرضية ، غضبت ولا يقيمون كبير وزن لفرص الخلاص ، فهم حسب بساطة تفكيرهم ، يرون أن القوة التى تسهر عليهم هنا ستتهم بأمرهم هناك .

والمرحلة الثانية أى المستوى الثانى تبدأ عندما يمسك العقل بزمام الأمور ، فعندها يصحو الانسان على شعور بالخير والشر ، ويبدأ يتميز شيئا خفيا عجيبا آتيا من آفاق عالية من العقل ، يؤنبه على فعل أشياء معينة تتصل بشخصه ، ويشعره بالراحة اذا لم يقارف هذه الأشياء التى يلام عليها ، أو اذا فعل أشياء فيها مصلحة ومنفعة لغيره . ولكن القوة العاقلة لا تقف عند هذا الحد . انها تضع قائمة بأشياء حسنة (خير) وأشياء سيئة (شر) ويظهر

أنبياء وكهنة يقولون ان من الأفعال حسنة وان في هذه الأفعال
 مرضاة للآلهة وكسبا لمساعدتها وعونها الذي تقدمه للمحسنين
 جزاء للاحسان . وأن من الأفعال ما هو شر تكرهه الآلهة وتعاقب
 مرتكبيه ويقول هؤلاء الأنبياء وفي أعقابهم يسير الكهنة فيقولون
 ان هناك سموات فيها ما يسر المؤمنين وما يتناسب مع ميولهم ،
 وهناك دور جهيم فيها ما يخافه الناس ويبعث في نفوسهم الرعب ،
 ويقسمون الأفعال كلها الى سيئات وحسنات ، وقائمة السيئات
 في الغالب أطول من قائمة الحسنات ، وكل ما يلذ الأنفس ، وتقر
 به الأعين في الحياة ، يوضع في قائمة السيئات ، لا لسبب الا لأن
 فيها متعة ، وكل ما لا تستريح اليه النفس ولا تجد فيه راحة ،
 يوضع في قائمة الحسنات . وكأنما الآلهة يلذ لها أن ترى أتباعها
 معذبين مكروبين باكين خائفين وجلين ، وان من يركن الى نعمة
 يلتذ بها يثير حفيظة الآلهة وكراهيتها (١) .

(١) هنا مأخذ على المؤلف . لقد طالب كل صاحب عقيدة بأن ينحى
 عقيدته جانبا وهو ينصت الى تعاليمه حتى لا يحكم عليها وهو تحت
 تأثير عقيدته وكان خليقا به وهو يبسط آراء عقيدته ألا يهاجم عقائد
 غيره . هو يؤمن بتناسخ الارواح يؤمن بأن الروح تتخذ لها جسدا
 بعد جسد وتعيش في الدنيا حياة بعد حياة . ويؤمن غيره بحياة واحدة
 يجمع الناس بعدها جميعا في يوم واحد ليحاسب كل عما فعل
 وللمحسن ثواب وللمسئء عقاب فما باله يتهم أصحاب هذه العقيدة
 (الانبياء والرسل) بأنهم اخترعوا ما جاءوا به . أليس أصحاب
 تعاليمه هم الآخرون قد جاءوا بما لم يقم عليه دليل الا ما يقولون من
 أنهم علموه بفضل اشراق الروح على عقولهم ؟ المترجم

وتوضع المذاهب وتحدد البدع ويصب العذاب على من ينشق
على المذاهب ويستجيب للبدع . والرأى السائد بين كل جماعة من
الناس هو أن (دينهم) هو الدين القيم وأن ما عداه كفر والحاد
وأن اتباع دينهم هم أحباب الله وأن أتباع كل دين آخر هم أعداء
الله وان الله لأعدائه هؤلاء بالمرصاد فى الدنيا والآخرة . ومن الناس
من يقوم عن الله بالانتقام من أعدائه ، فينكلون بمن خالف دينهم ،
أو حتى مذهبهم ، وان اتحدوا فى الدين معهم .

والناس فى هذه المرحلة ، أو على هذا المستوى من التطور
الروحي ، يكونون عادة أهل حماسة وشدة . فهم يعلنون أن من
الأيام أياما مقدسة كأنما الأيام كلها ليست مقدسة ، ويصرون على
أن بعض الأماكن أقدس من بعض ، وأن أجناسا من البشر هم مختارو
الله وأحبابه ، وأن من عدا هؤلاء لا يحبهم الله ويكره حتى وجوههم
وان الذين كتب لهم الخلاص صفة قليلة وان من عداهم قد أعدت
لهم نار لا تطفأ ودود لا يموت .

والناس على هذا المستوى يتميزون بروح البغضاء والكراهية
تحز فى قلوب المؤمنين نحو الذين لا يتبعون دينهم ، وتدفعهم
هذه الكراهية الى التنكيل بهم ، وهؤلاء يبادلونهم حقدا بحقدا ،
وكيدا بكيدا ، فيسود الخوف ، وتصبح المحبة البشرية اسما
بدون معنى .

وعلى هذا المستوى ، يذوى الحب الاتساني المشترك بين الناس جميعا ، فلا تراه الا بين أفراد كل فريق يتبادلونه في حذر شديد . فان بدرت من أحدهم بادرة كفر عمدوا اليه فأخرجوه ، وحرموه حبههم ، وصبوا عليه جام غضبهم ، لمجرد جهره بما لا يتفق مع ما يعتقدون . ان كل من لا يتفق معهم في الاعتقاد ، كافر خارج مبتدع منشق .

في هذه المرحلة تختفى محبة أفراد أهل المرحلة الأولى لبعضهم وشعورهم الغريزي بوحدتهم ووحدة أصلهم (وهو ما يدركه أصحاب المرحلة الثالثة ويشعرون به بالعقل والروح) ويحل محل هذه الوحدة ، روح الأنانية والفردية ، حتى اذا نمت القوة العاقلة وشبت بعض الشيء ، وبدأ العقل يسيطر ويبسط سلطانه على الناس من أهل الطبقات العليا من هذا المستوى — ولكل مستوى عدة طبقات — بدأوا تحت نور العقل ، يتخلصون من الخرافات خرافة بعد خرافة ، وينفضون عن أنفسهم حجب الجهل حجابا بعد حجاب ، ويحل محل الاعتقاد الأعمى انكار وجحود لكل هذه المعتقدات التي فرضت فرضا لا تستند الى أساس ولا سند سليم ويسود الشك في كل شيء لا ينهض على صحته دليل عقلي ، فتتهار معتقدات وتهدم صروح القديم ، ولكن مكانها يظل خاليا لا يقوم مقام القديم فيه جديد . في هذه الفترة يجهد العقل الروحي

في أن يبحث أشعته لتضيء هذا اليباب ويحاول أن يلقي في هذا الفراغ بذور الوعي الروحي ، وينشر فيه تعاليم الروح التي تنتقل بالإنسان بالتدرج الى المرحلة الثالثة مرحلة اليقين الحق .

في هذه المرحلة الثالثة ، يرى الناس الخير في كل شيء وكل شخص وكل مكان وان بدا بعض الأشياء أكثر تقدما من بعضها الآخر الا أن كل شيء جزء من الكل الأعظم .

في هذه المرحلة ، تترفع النفس المتقدمة عن أمور تجدها أصبحت بالية خلقة لا تليق بها فلا تجد فيها ما كانت تجده من قبل من لذة ، ولكنها في نفس الوقت ، ترى أن هذه الأشياء نفسها لا غنى للبعض من المتخلفين عنها . فهي تناسب حالتهم من التقدم والتطور ، وهي على سوائها خير من أشياء تخلوا عنها ، وهذه الأخرى مناسبة لمن يلونهم وهكذا . ان الناس في هذا المستوى يرون أن الدنيا كلها على الطريق ، وان كان منها المتقدم والمتخلف ، ولكنهم جميعا يسرون الى الأمام . ان الخير والشر في قظرهم نسبي ، لا خير ولا شر الا بالقياس ، هذا فعل يليق بمن يفعله ، وهذا فعل لا يليق لسبب بسيط هو أن هذا يفعل ما يتناسب مع مرحلته ، وهذا يفعل مالا يتناسب ، الفعل واحد : ولكن الزمان أو المكان هو الذي اختلف فاختلف الحكم على الفعل .

انهم يرون أفعال الناس مظاهر للخير والشر ، ولكنهم يفضلون

أن يروا في الناس خير ما يفعلونه ، بدل أن يروا شر ما يفعلون .
انهم يفضلون أن يروا حسنات المسيء ، على أن يروا سيئات
المحسن . انهم يرون الخطايا على أنها أخطاء — قوة أسىء توجيهها
— عقل غير ناضج .

ان الناس في المرحلة الثالثة يرون أن كل الديانات حق ، حتى
انهم ليجدون صعوبة في الاقتصار على اتباع دين واحد بذاته .
انهم يرون أن الله هو الذى يعبد رغم تعدد الأسماء للآلهة ، والصور
التي يصورها بها البشر من الصنم البدائي الى فكرة الالهية
المجردة في أسمى العقائد . وان سبب الخلاف ما هو الا درجة
نمو عقل العابد نفسه ، لا حقيقة المعبود ، فان الانسان كلما ارتفع
على سلم التطور ، ارتقى تصوره لله ، وتصويره له ، فالصورة
التي يراها الانسان المتقدم لله — لا يدركها عقل الانسان البدائي ،
كما أن الصورة التي يرضاها البدائي لله ، لا ترضى الانسان المتقدم
وكل منهما يعمل بخير ما علم ، ويسير على المرحلة التي بلغها من
الطريق ، معبدة مضاءة ، أو مظلمة وعشاء ، وقد أحسن الكاتب
الذى قال (ان اله الانسان هو صورة ذلك الانسان في أحسن
حالة يتمناها لنفسه ، والشيطان هو ذلك الانسان في أحلك ساعات
جنونه وغضبه) .

ويختفى الشيطان تماما عندما يرتقى تصور الانسان لله ارتقاء
كافيا .

ولكن أعظم ما يتميز به الفكر الانساني في المرحلة الثالثة ، هو ادراكه لوحدة الحياة . فهو يرى في هذه المرحلة ، ويحس ، أن العالم كله حي ، وان قوة العقل تملؤه وان اختلفت درجات ظهورها ويحس أنه جزء من هذه الحياة العظمى ، ويعرف أنه وهذه الحياة شيء واحد ، وان طبيعته ، وطبيعتها ، لا فرق بينهما مهما تعددت صورها ، ويرى في كل ما ينبض بالحياة شيئا فيه . ليس معنى هذا أنه متعطش للدماء كالنمر وأنه معجب بنفسه عجب الطاووس ، وأن له سما كسم الأفعى ، ولكنه يعلم أن صفات هذه الحيوانات كلها فيه ، وان تسلطت عليها وكبحتها نفسه العليا فانها كامنة فيه ، ولذلك فانه يشعر بعطف نحو تلك الحيوانات ، ونحو اخوته في الانسانية الذين ما زالت تظهر فيهم صفات تلك الحيوانات ويتخلقون بأخلاقها ، انه يشفق عليهم ولا يكرههم مهما كانت نزعاتهم وميولهم ضارة به — انهم اخوته .

وبجانب هذه الصفات الحيوانية التي يكبحها في نفسه ، يشعر كذلك بوجود الصفات العليا ، صفات الملائكة الأعلى كامنة فيه توشك أن تظهر ، ويزداد ظهورها مع تقدمه وتطوره حتى يصبح متخلقا بأخلاق ذلك الملائكة .

انه يشعر بالحياة تدب فيه ، وتدب فيما حوله ، حياة واحدة ، فتزول منه روح الوحدة والوحشة ، ويحل محلها اطمئنان يملأ

نفسه بعد أن عرفت أنها والكون شيء واحد . انه يستقبل اليوم
والغد بغير خوف ، وانه ليتقدم نحو المقدور يملأ قلبه البشر
ولا يخشى ما يأتيه به .

هذا الشعور يجرد الانسان من الخوف والبغضاء والتهمة ،
ويعلم الانسان الرحمة ، ويجعله يتحقق من أبوة الخالق وأخوة
الخلق ، وأن يحل المعرفة واليقين محل الايمان الأعمى . انه يغير
من الانسان ما بنفسه ، ويخلقه خلقا جديدا ، ويغير ما به ، فيسير
سيرة جديدة ويواصل الرحلة على مستوى جديد ، لقد صار
مخلوقا آخر .

وطبيعي أن الناس من أهل المرحلة الثانية ، لا يفهمون أهل
المرحلة الثالثة ويظنون بهم الظنون ، ويحسبونهم من أهل المرحلة
الأولى همجا أو سدجا ، ذلك بأنهم لا يرون السوء ولا يدينون
المسئ مثلهم ، ويعجبون من أمر الرجل من أهل هذه المرحلة
اذ يرى خيرا في الأشياء التي لا تبدو لهم كذلك ، فهو رجل اذن
لا يعرف الحلال من الحرام ، ولا يميز بين الصالح والطالح ،
والمؤمن والكافر — أليس الناس عنده اخوة سواء لا فرق بين
الزنديق والصدّيق ؟

انه غريب في أرض غربة ، وليس له أن يشكو ان ناله السوء ،
أو حكم عليه حكم جائر .

ولكن هذا النوع من الناس ، أهل المرحلة الثالثة ، يتزايد عددهم كل عام . وعندما يصير عددهم كافيا ، سيحدث في العالم انقلاب سلمى . عند ذلك لا يرضى انسان أن يتنعم وله أخ يتضور جوعا — أخ في الانسانية . ولن يقبل انسان أن يظلم بنى جنسه أو يستغلهم ، ولن يطبق السكوت على كثير من الشر الذى لا يآبه معظم الناس الآن له ، ولا يشعرون بوطأته .

رب سائل يسأل وما الذى يمنع الانسان عن الظلم والاستغلال ؟ والجواب هو أن الانسان اذا أحس هذا الاحساس الجديد : الشعور بوحدة الكل ووحدة الحياة ، تزول من نفسه الأمانية وتتحطم الحواجز التى تفصل بينه وبين الناس ، ويختفى الشعور بأن نفسه وحدة قائمة بذاتها ، لا صلة لها بغيرها من نفوس البشر ، ويعلم أن النفوس كلها خلقت من نفس واحدة فيشعر بما يشعر به أخوه من ألم ، ويشاركة في سرائه وضرائه .

من أين يأتى هذا الشعور الذى يدفع الناس لاقامة المستشفيات والمؤسسات الخيرية ، ومن أين يأتى هذا الشعور بالألم عند مرأى آلام الناس ، انه ينبعث من العقل الروحى ، الذى يملأ ادراك الناس بالصلة الوثيقة التى تربط الحياة بعضها ببعض ، فتجعل الواحد يحس بآلام الغير لأنه منهم ، وهم منه ، وانهم جميعا كالجسم الواحد اذا تألم عضو أحست بالألم سائر الأعضاء ، فتداعت تساعد ، أو تواسى ، أو على الأقل تتوجع .

لهذا الشعور ولهذا الادراك أصبح العالم أشد تعاطفا وشفقة من ذي قبل ، ولو أنه ما زال في حالة بربرية اذا قيس بما سيكون عليه في المستقبل ، عندما يصبح أغلبية الناس على مستوى المرحلة الثالثة .

ان البشرية الآن على أبواب تغيرات عظيمة ، وان الريح لتهب وقد عرف من أين تأتي ، وفي أى اتجاه تندفع . انها الآن نسيم رقيق ، ولكن بعد قليل ستصبح عاصفة تطيح بالكثير مما بناه الانسان ، وهو يظن أنه ثابت للأجيال القادمة . وعندما تهدأ العاصفة ، سيبنى الانسان من جديد أشياء أحسن وأبقى ، هل أحسستم النسيم وشاهدتم النذر ؟

ولكن لن يحدث هذا التغير نتيجة للبغضاء والحقد والتنافس والتناؤد ، انه سيحدث نتيجة للحب والتعاطف والشعور بأن الناس أخوة بل أعضاء جسد واحد ، وأن سعادة الكل في سعادة كل جزء وكل فرد وهكذا يبدأ فجر جديد ، فجر العصر الذهبي .

قد يبدو أننا شططنا عما نحن بصدده ، ولكن ما قلناه يمس ما نحن فيه من ضرورة الزرع بعد الحصاد ، والعطاء بعد الأخذ ، والعمل بعد أن كسبنا قوة جديدة وقدرة أعظم .

سيقول لنا الصوت الصاعد من الصمت :

اذهبوا واعملوا في كرمي ، لا بقوة السواعد ولا على ارغام

الأشياء على أن تنمو وتزدهر ، ولكن ليكن عملكم بالقدوة الحسنة
وبالحياة أسمى ما تكون الحياة . ان الناس محتاجون اليكم لينتشر
ضوءكم في ظلامهم ، انكم فيهم كالخميرة في العجين .

ويلى هذا أمر آخر من الكتيب الصغير :

« انك الآن التلميذ الذى يستطيع أن يقف على قدميه ، لك
أذنان للسمع وعينان مبصرتان ولك لسان قادر على الكلام ، أنت
الذى قهرت الرغبة والشهوة ووصلت الى معرفة النفس ، ورأيت
روحك تزهر وزهرتها تزدهر ، وسمعت الصوت الصادر عن الصمت
ادخل الآن بهو المعرفة ، واقراً ما سطر من أجلك هناك » .

ولنتقل الآن الى هامش هذا الأمر ، نجد فيه عوناً ، وعلى
ضوئه هدى :

« لكى نستطيع الوقوف لابد من الثقة ، ولكى نستطيع أن
نسمع ، لابد أن نكون قد فتحنا أبواب النفس على مصاريعها ،
ولكى نستطيع الكلام ، لابد أن نكون قادرين على مساعدة الغير .
ولنكون قد قهرنا الرغبة ، لابد أن نكون قد تعلمنا أن نروض
النفس وأن نستخدمها .

ولكى نكون قد وصلنا الى معرفة النفس ، لابد أن نكون قد
رجعنا على آثارنا فدخلنا حرم النفس واقتحمنا حصنها حيث
نستعرض الانسان الحقيقى وتفحصه فى غير مداراة ولا تحيز .

ولكى نكون قد رأينا الروح تزهر ، لابد أن نكون قد رأينا على ضوء الروح في أنفسنا انقلابا هو الذى يخلق منا خلقا جديدا يجعلنا أكثر من بشر . ولكى نعرف ، يجب أن تولد فينا القدرة على التحديق فى النور الباهر الخاطف بدون أن تطرف العين ، وبدون أن تتراجع كأنما نحن أمام طيف أو شبح مخيف . يحدث هذا للبعض وعندها وفى الوقت الذى يوشك الفوز أن يتحقق اذا به يتلاشى .

(لنستمع الى صوت الصمت) ، معناه أن نفهم أنه من داخلنا لا من أية ناحية أخرى يأتينا الهدى والارشاد الصحيح . ولكى ندخل بهو المعرفة ، معناه أن نصل الى الحالة التى يصبح فيها التعلم ممكنا ، عندئذ تكون هناك كلمات كثيرة مكتوبة لك ، مكتوبة بحروف من نار لتسهل عليك قراءتها .

« عندما يصبح التلميذ مستعدا . فى ذلك الوقت يكون المعلم مستعدا أيضا » .

لقد وصف التلميذ بأنه ذلك الرجل القادر على الوقوف ، القادر على السمع ، القادر على الابصار ، والوعى الروحى يجعل الانسان قادرا على الوقوف على قدميه ويجعله يشعر بعظمة الروح .

انه يمكنه من رؤية الحياة على حقيقتها وفى أشكالها المختلفة ،

انه يريه صلته بالكل ، وبكل جزء فيه ، وأن يتعرف على الحق.
عندما يعرض الحق لناظره .

انه يمكنه من سماع الحق يتدفق صوته عليه من آلاف السبل
فالحياة كلها تعلن أنها تمت اليه بصلة ، وكلها استعداد ورغبة في
أن تقدم له المعرفة والحق .

انه يريه الروح رؤية واضحة .

انه يجعله يستطيع اذا تحدث أن ينفذ حديثه الى قلوب الناس
ولو خيل اليه غير ذلك .

انه يمتلكه شعور بالسلام والطمأنينة يفوق الوصف وتم عن
حالته هذه أقواله .

انه يزيد ثروة العالم الروحية .

يقول الكتيب : للتلميذ الذي قهر الرغبة ، أى الذى عرف
الرغبة على حقيقتها ، وعرف حقيقة نفسه ، ورأى ازدهار زهرة
نفسه ، وسمع صوت الصمت ، يقول له الكتيب ان عليه أن يدخل
بهو المعرفة .

ويلقى الهامش مزيدا من الضوء على شرحه للزهرة في تفتحها ،
يتفق مع ما قلناه في آخر درس عن الاشراق أو فجر الوعي الروحي
الا أن الكاتبة كان خليقا بها ، عندما قالت ان الفوز يختفى عندما
يكاد أن يتحقق ، كان خليقا بها أن تقول ان ذلك الاختفاء مؤقت ،

وأن ذكره باقية ، وأن النفس لن يقر لها قرار حتى تستعيد الفردوس المفقود .

وتقول الكاتبة « ان بعض من يشاهدون تلك اللوحات من داخل الروح ، يتراجعون مذعورين مأخوذين ، يخيل اليهم أن ما اطلعوا عليه وهم أو تفكير مرذول » ، ذلك أن ما يكشف للانسان يتعارض مع عقيدته وما اصطلح عليه العرف من آراء ، حتى ليظن الرائي أنه أصبح فاسدا مجرد عما كان فيه من خير ، فيراجع عن هذا الوعي الجديد فرارا من مغبته لأنه أصبح لا يحكم على الشر كما كان من قبل ، وينسى أن الانسان ان أصبح لا يقسو في حكمه على الشر كما كان ، فانه أصبح يحب الخير أكثر من ذي قبل ، الخير الذي عرفه من الكشف ، لا الخير الذي تواضع عليه الناس .

وتقول الكاتبة ان سماع صوت الصمت معناه أن نعرف أن المرشد الأمين الوحيد يأتينا من داخل أنفسنا ، وأن من يتمسك بما يقول هذا الصوت في كل أفعاله ، ويعيش على هديه ، هو الذي بدأ السير حقا على الطريق ، فان من أنصت الى صوت ضميره لم تعد به حاجة للمعلمين والمرشدين . وكلما زدنا انصاتا اليه ، وطاعة له ، زاد ارتفاعا ووضوحا فنسمع صوت نصائحه كلما احتجنا اليها ، ولكن اذا أوليناها أذنا غير صاغية ولا واعية ، خفت حتى لا يمكن سماعه في هدير الحياة وضوضائها .

بهو المعرفة كناية عن حالة الوعي التي تنتج عن السماح لموجات العقل الروحي بالتدفق على العقل الواعي حرة طليقة فيأتي الحق وينجلي رويدا رويدا حتى لا يكاد الطالب يحس قدومه لبطنه ولكن التفتح يستمر ويزداد ويتقدم الطالب .

القواعد الأربع التالية في غاية الأهمية ، ولو أنها وضعت للطلبة الذين قطعوا شوطا بعيدا ، الا أن الكثير من معانيها يمكن أن يدركه الذين لم يبلغوا شأوهم ، وسنحاول أن نزيد هذه القواعد وضوحا :

١ — « اتح ناحية في المعركة القادمة ولكن لا تكن المقاتل وان قمت بدورك في المعركة .

٢ — فتش عن المقاتل في نفسك ودعه يتولى القتال .

٣ — تقبل أوامره في المعركة ونفذها .

٤ — أطعه لا كما لو كان قائدا ولكن كأنه نفسك ،

وكان أوامره هي رغباتك الباطنة لأنه هو نفسك ولكنه أحكم وأقوى منك بكثير . ترقبه جيدا والا تخطيته في وطيس المعركة ولهيها فانه لا يعترف بك ما لم تعرفه ، فاذا بلغت الصيحة أذنه المرهفة فانه يملأ فراغ نفسك ويحارب عنك . فاذا كان الأمر كذلك أمكنك أن تخوض المعركة هادئا بلا تعب فقف جانبا تاركا ايام . يقاتل عنك ، عند ذلك يكون من المستحيل أن تضرب ضربة

طائشة ، أما اذا لم تبحث عنه أو اذا أخطأته ، فلا واقى لك ولا عاصم
اذ يضرب عقلك ، ويتسرب الشك الى قلبك ، وفي مثار النقع في
المعركة يكل بصرك وتخذلك حواسك فلا تعرف أعداءك من
أصدقائك .

انه هو نفسك ومع ذلك فانك بشر فان معرض للخطأ ،
وأما هو فمعصوم خالد . انه الحق المؤمن السلام السرمدى ، فاذا
ما حل فيك يوما فأصبح فارسك فلن يهجرك أبدا ، وفي يوم السلام
العظيم يتحد بك وتصبح أنت وهو واحدا .

هذه القواعد الأربع تشير الى معرفة النفس الحقيقية التى
داخل كل نفس والتى تكافح باستمرار حتى اذا آن الأوان ألفت
عن نفسها الدنيا كل حجاب يقف فى طريقها ويحيط بها . هذه
القواعد تأمر النفس بالبحث فى داخلها عن مصدر القوة لتهدى
بهديه وتجعله يتجلى ويظهر نفسه فى الانسان لكى ينقاد الانسان
بالروح لأن الانسان عندما يحل عن نفسه ربط العناصر الدنيا
بوقيودها ويصبح قادرا على أن يسمح للروح بأن تفيض منطلقة
وتتجلى عليه دون أن تقف فى سبيلها مقاومة تعوقها ، عند ذلك
تعمل الروح فيه فيكون هو أدواتها وتكون هى قائده ومرشده .

وحتى الذين لم يبلغوا المراحل العليا من التقدم الروحى
يفيدون أكبر الفائدة عندما تفتح نفوسهم مشرئبة الى فيض المدد

الالهى وممكنة له من أن يعمل عمله فيها ، فالرجل الذى يسلم قياده للروح ويعرف وجود النفس الحقيقية ويعول عليها ، يستطيع أن يعيش بمنجاة عن هموم العالم الخارجى ومتاعبه وضجيجيه ، لا بمعنى أنه يعتزل العالم (وكثيرا ما كان ذلك عن جبن وخور عزيمة) ولكن بأن يقوم بدوره فى الحياة كاملا ، ويعمل عمله على أحسن وجه . وهو مع ذلك ، رغم اشتراكه فى العالم ، ليس منه ، انه يستطيع عمليا أن يقف جانبا ويرى نفسه يعمل . ان الروح تتولى قياده فى المعركة ، وتعنى بطعامه وسائر احتياجاته ، وتعمل دائما على ما فيه خيره ، وتقوده الى ما ينفعه ، وتجذب اليه ما يحتاج اليه .

ان الخوف وعدم الايمان ، هما أكبر العقبات فى سبيل الروح ، وأكبر مانع لها من الاشرار وتولى القيادة ، والى أن يلقى الانسان بهما ، ويتخلص منهما ، تظل الروح عاجزة محجوبة ، فاذا تخلص منهما ، تحررت الروح وقامت بعملها .

تقول القاعدة الأولى :

« انتح ناحية فى المعركة القادمة ، ومع أنك تحارب ، فلا تكن أنت المقاتل » .

انها توضح هذه الحقيقة تماما . لاحظ أن القاعدة لا تقول اهرب من المعركة ، أو اختبىء منها ، أو كن بمنجاة عنها . بالعكس ،

انها تأمر بصراحة بأن تقاتل ولكنها تقول قف جانبا (ذلك في حالة وعيك الراهن) ودع النفس الحقيقية تقاتل من خلالك ومن أجلك بمعنى أن تدع ، للروح قيادك ، وأن ترضى أنت عن قيادتها هذه .
والقاعدة الثانية صنو الأولى : انها تأمر بأن « تبحث عن القائد وتجعله يقاتل فيك » ابحث عنه وآمن به واركن اليه واعرفه ودعه يخض المعركة بك .

وتقول القاعدة الثالثة : « خذ عنه الأوامر للمعركة ونفذها » فان جعل مكانك مكشوفاً خطراً ، تتركز عليك ييران العدو فيه وقد قطع عليك خط الرجعة وطريق التقهقر ، ، فلا تخف ، ونفذ الأوامر على علاتها فان وراء الأوامر خطة حسب فيها لكل شيء حسابه ، وان النصر محقق لك في النهاية .

لا تناقش الأوامر ، ولا تبحث في نتائجها ، لأنها من وضع قوة أعظم منك ذكاء وأدق وأوسع تفكيراً ، انها تبصر ما لا تبصر أنت به ، وقد جعلت تقدمك هدفها ، فان جلبت صعاباً ومتاعب ، ففي النهاية ، الخير والربح لك . انك ان تبينت الأمر مرة واحدة ، فلن تشعر بما يشعر به غيرك من المشقة والألم بعدها ، لأنك ترى المشقة والألم عارضين يزولان ، وما في أعقابهما من سعادة يجعل وقعهما الزائل غير ذي بال .

والقاعدة الرابعة تقول « أطعه ، لا كما لو كان قائداً غريباً

عنك ، ولكن كأنه نفسك ، وكأن كلماته رغباتك الخفية ، لأنه هو نفسك وان كان أحكم منك وأقوى .

هدف هذه القاعدة أن تحذر الوقوع في خطأ شائع هو أن تعتبر الروح شيئاً خارجاً عنك ، وأنه كيان مستقل عن كيانك . انه ينبهنا الى أن الروح هي نفسنا الحقيقية ، هي نحن ، جوهرنا لا ظاهرها ، انها أعقل وأقوى مما يتخيل وعينا الحاضر ، وان علينا أن نؤمن بها ونثق فيها .

« ترقبه جيداً وابدح عنه والا تخيطه في وطيس المعركة ولهيبها ، وهو لا يعترف بك ولا يعرفك ما لم تعرفه » هكذا تواصل القاعدة ارشادها وتحذيرها ، وهما جديران بالاتباه ، فاننا في وطيس المعركة معرضون لأن ننسى أن الروح تعمل فينا ، وربما خيل لنا في سكرة النصر ونشوته أننا نحن أصحاب الفضل في العمل ، فنغمض العين والقلب عن التعلق بالروح ، فيغلق من دوننا الباب ، ويحل بيننا وبينها الحجاب ، فينقطع اتصالها بنا : (لأنه لا يعرفنا ان لم نعرفه) والروح لا تعمل فينا ، ما لم نتطلع الى عملها . ان ارشاد الروح ملك لمن يقرعون بابها ، ويطلبون عونها ، ويسألون عطاءها — اقرعوا يفتح لكم اطلبوا تجدوا اسألوا تعطوا .

« اذا ارتفعت الصيحة الى أذنه ، عند ذلك يحارب فيك ،

ويملاً فراغ نفسك « لاحظ الوعد بأن الروح تصيخ بسمعها دائماً
تنتظر صوت استغاثتك لتليها . فعندما يضطرب قلبك ، وتخونك
شجاعتك ، ويحل بك التعب من القتال ، وتنزف الدماء من جراحك .
وأنت تكافح ، اصرخ مستنجداً بالروح يرتفع صراخك الى أذنها
المرهفة فتسمعك « فتحارب فيك وتملاً فراغ نفسك » وتملاً حنايا
نفسك الحزينة عزاء وقوة وشجاعة ، فلا تعود تحس بما كنت تحس
به من وحشة وضيق .

والقاعدة تقول « فان كان الأمر كذلك أمكنك أن تخوض
المعركة بلا تعب ، فقف جانبا تاركاً إياه يقاتل عنك » .
انك تكسب ثقة وهدوءاً لعلمك أن فارسك وسندك لا يقهر ،
وأن المعركة لك ، والنصر حليفك في النهاية . فان من يؤمن بأن
الروح تقوده ، وانه يعمل بقدرتها ، يستولى عليه السلام الذي
تعجز الأفهام عنه ، سلام النفس المطمئنة . « عند ذلك يكون من
المستحيل أن تضرب ضربة طائشة » .

هذا حق فعندئذ تكون كل حركة منك ، وكل عمل لك ،
حركة الروح وعمله ، والروح لا يخطيء ولا يجبط له عمل ، ومهما
بدا للعقل خطأ العمل أو القصد ، فان العواقب تثبت أن ما رآه
العقل خطأ كان هو السداد والتوفيق .

« أما اذا لم تبحث عنه ، أو اذا ضللت عنه ، فلا واقى لك

ولا عاصم ، فيضطرب عقلك ، ويتسرب الشك الى قلبك ، وفي مثار
النقم في المعركة ، يكاد بصرك أن يكل وتخذلك حواسك ،
فلا تعرف أعداءك من أصدقائك .

أليس هذا ما يعانیه كل منا قبل أن يسلم للروح قياده ؟ ألم تمر
بنا التجارب فتحملنا فيها الآلام ، وقاسينا المتاعب ، وطحنتنا
الأحداث والمصائب ، لأننا كنا عميانا لا نرى النور ، وكنا بلا أمل
ولا رجاء ؟

كم دعونا وجأرنا بالشكوى ورددنا السؤال — ما هذا كله ؟
ما أصله ؟ وما هدفه ؟ . نسأل عن الحق ، ونسأل عن الصواب ،
ونسأل عن الخطأ ، ولا من مجيب . حتى اذا ألقينا عنا قيود
الفرائز ، وأسقطنا حجب الرغبات والشهوات ، فنفذت أشعة الروح
الى ظلام نفوسنا بدا كل شيء على هذا الضوء الهاديء ضوء
الروح .

« انه هو نفسك ، الا أنك بشر فان ، معرض للخطأ ، أما هو
فمعصوم خالد ، انه الحق الأبدى » .

هنا حدد الفرق بين وعى النفس الدنيا الزائلة الفانية ، والحقيقة
الخالدة ، في وضوح . فوضع أمامك اللغز ، لغز النفس والروح ،
فأعمل الفكر في هذا القول ، يشرق عليك الحق واضحا بالتدريج ،
فلا يعود يتركك ، ولا تعود الظلمة تدركك ، مهما خفت ضوءه
في بعض الأحيان .

« فاذا ما حل فيك يوما فأصبح فارسك ، فانه لن يهجرك
أبدا . »

ياله من وعد عظيم وأمل مشرق ، ان وعيك وجود الروح فيك ،
ان أشرق عليك يوما لن يعود يغيب عنك أبدا . قد يساورك الشك
في وجوده لأن حواسك لا تدركه ، ولكن أثره وقوته تبقى مترسبة
فيك حتى اذا ما اشتدت حاجتك الى معوته ، تفتحت نفسك لنوره
واتسعت لقوته ، فغمرتك حكمة الهية وقوة روحية .

« وفي يوم السلام العظيم يتحد بك وتصبح أنت وهو واحدا »
في الوقت الذي تكون الحجب كلها قد تساقطت وتكون الروح
قد أزهرت وازدهرت — عندما يصبح الرجل أكثر من رجل —
عند ذلك يستغرق الوعي في معرفة الروح ، وتصبح النفس وعنصرها
الالهى واحدا . وليس معنى هذا فناء الشخصية ، بل على العكس ،
تعظم الشخصية وينمو الوعي ، لدرجة لا يمكن أن يتصورها أكبر
عقل في المستوى الحالي للبشرية .

عند ذلك تصبح المعرفة والقوة والانشراح ، التي قلنا أنها
تشاهد في لمحة خاطفة عند الاشراق الذي يومض ويختفى . تصبح
دائمة مستقرة ، وبذلك تتخطى حدود النسبي الى آفاق المطلق .

ونتقل الى الأربع القواعد التالية :

ه — انصت الى أغنية الحياة .

٦ - احفظ النعمة التي تسمعها .

٧ - تعلم منها درس التناسق .

٨ - انك تستطيع الآن أن تقف منتصبًا ثابتًا كالصخرة في وسط المعركة ، مطيعًا المقاتل الذي هو نفسك وملكك ، لا يعينك من المعركة الا تنفيذ أوامره ، غير مهتم بعد ذلك بنتيجة المعركة ، لأن شيئًا واحدًا له كل الأهمية ، ذلك أن المقاتل سينتصر ، وقد علمت أنه غير قابل للهزيمة . فاذا وقعت ، هكذا ، هادئًا متيقظًا ، فاستعمل قوة السماع الذي اكتسبته بالألم وبالتغلب على الألم . ان تنفقا فقط ، من الأغنية العظمى ، تصل الى أذنيك ما دمت رجلا فقط . فاذا سمعت شيئًا ، فاحفظ - بأمانة - ما سمعت ، حتى لا يضيع منه شيء . واجتهد أن تعرف معنى ما يدور حولك ، مستعينا بما سمعت . ومع الوقت ، سوف لا تحتاج الى معلم . فكما أن للفرد صوتًا ، كذلك لما يحيط به صوت . فالحياة حديث ، لا تكف عنه ، ولا تسكت . وليس صوتها كما يبدو لأمثالك الصم ، صيحة ، انما هو أغنية . فتعلم منها أنك جزء من مقاطعها . تعلم منها أن تخضع لقانون التناسق بين أغانها .

« أنصت الى أغنية الحياة » ، هكذا تقول القاعدة الخامسة ، والهامش ، الذي ألحق بهذه القاعدة ، له من الجمال والروعة ، وفيه من الحق والارشاد ، ما يجعلنا عاجزين عن المزيد عليه . ولذلك فنقله هنا كما هو على أنه أحسن شرح لهذه القاعدة .

يقول الهامش « ابحث عنه ، واصنع اليه أول الأمر ، في داخل نفسك . ستقول عندما تبدأ البحث انك لا تجد شيئاً ، وانك كلما بحثت ، لا تجد الا اضطراباً وخطأ . ولكن دقق النظر وازدد عمقا ، فان لم تجد شيئاً ، فاسترح فترة ثم أعد الكرة . ان في قلب كل انسان نبعا خفيا له خبير . له نعم طبيعي ، قد يكون مخفيا محجوبا مكتوم النبرات ، ولكنه هناك . هناك في قرارة نفسك ، وأعماق طبيعتك ، تجد الايمان والحب والأمل . ولكن الذي يختار طريق الشر ، يأبى أن ينظر في أعماق نفسه ، ويضع أصابعه في أذنيه حتى لا يسمع نداء القلب الرقيق ، ويفمض عينيه حتى يكف بصره عن مشاهدة نور الروح .

انه يفعل ذلك لأنه يستمرىء العيش ويجده أيسر في الشهوات، ولكن تحت أسس الحياة كلها ، يتدفق ذلك التيار الشديد ، الذي لا يصد ، هنالك المياه العميقة الحقيقية . اكتشفها ، تجد كل انسان جزءا منها ، مهما انحط في حماة السوء ، ومهما أغمض عينيه عنها وأحاط نفسه بسياج موهوم من الخوف والرغبة ..

من أجل هذا قلت من قبل أن كل المخلوقات التي تكافح حولك شظايا القدرة الالهية .

ولكن ما يحيط بك يبلغ من خداعه وتمويهه أنه يجعل من الصعب عليك أن تدرك بالحدس والتخمين أين تبدأ تتكشف لك

الأغنية الجميلة في قلوب الآخرين . ولكن ثق أنها في قلبك فأبحث عنها هناك فإذا التقطت أذنك نعماتها ولو مرة أصبح من السهل عليك أن تميزها فيمن حولك .

وتقول القاعدة السادسة : « احفظ النعمة التي تسمعها » .
وتقول السابعة : « تعلم منها درس التناسق » ، وهما متصلان بالخامسة وفي غير حاجة الى الشرح .

والثامنة مليئة بالحكم . فهي تبدأ بأن تؤكد أنك تستطيع أن تقف ثابتا كالصخره لأنك أصبحت تحت قيادة الروح ولأنك تطيع القائد الذي هو ذاتك وملكك وفي هذا اشارة أخرى الى النسبي والمطلق والعلاقة بينهما — بين الانسان وروحه ، وهي تتكلم عن الذات والروح وان الذات لا تعنيها أحداث المعركة أى النتائج الظاهرة الوقتية من ألم أو تجربة أو شدة بسبب ظروف الحياة ، انما أصبح المهم أن الروح تنتصر وهي لا بد فاعلة ، وما على الذات الا الطاعة للروح والروح لا تقهر ولا تقبل الهزيمة .

وهي تتكلم عن الذات فتقول « فاذا وقفت هادئا متيقظا فاستعمل قوة السماع التي اكتسبتها بالألم وبالقضاء على الألم » واكتساب الألم والقضاء عليه يعنى أن الانسان يتعلم الكثير من الألم — من المصائب التي يتألم منها . بل ان دروسا كثيرة لا سبيل الى تعلمها الا عن هذا الطريق ، ولكن متى عرف الانسان حقيقة

طبيعة الألم عند ذلك يصبح الألم بلا ألم ويتغلب الانسان عليه .
وهكذا يصل صوت الروح – أغنية الحياة – الى السمع الذى
أيقظه الألم والقضاء على الألم .

وتقول القاعدة « ان تنفا فقط من الأغنية الكبرى تصل الى
سمعك ما دمت رجلا فقط » لأنك اذا بلغت المستوى الذى تسمع فيه
الأغنية كاملة النعمات والمقاطع لا تكون عندئذ رجلا فقط بل تصبح
شيئا آخر بالغ السمو والارتفاع على سلم التطور الروحى . ولكن
حتى هذه النصف المتناثرة من الأغنية تفوق كل ما يتصوره البشر
لدرجة أن صداها وحده جدير بأن تنفق فى سبيله أعمار كاملة
وأعمار .

وتقول القاعدة : « فاذا أنصت اليها فاحفظها بأمانة حتى
لا يضيع منها شيء .. الخ » ان صوت الروح سيطرق أذنيك حتى
انه بالرغم من ضوضاء الحياة سيحمل اليك من وقت لآخر من العلم
ما يخيل اليك أنه من عالم آخر فيلقى على معضلات الحياة الضوء
قليلا قليلا فتحسر الحجب حجابا بعد حجاب .

وعندها تصبح غير محتاج الى معلم من البشر فان نور الروح
سيسطع على كل ما تبصر والأذن تسمع بالروح دروسا آتية من كل
مافى الوجود ، من الحجر ، من النبات ، من الجبل ، من العاصفة ،
من الشمس والنجوم ، من كل جليل وضئيل تسمع وجيب الحياة

النابضة التي أنت جزء منها وتسمع منها كلها نعمات الأغنية العظمى حتى من نفسك يتردد الصوت قائلاً (أحد . أحد . الكل واحد أحد) ولكنها ليست صحيحة ، انها أنشودة نصر عظيم تردده الحياة بعد خالق الحياة .

والمجموعة التالية من أربع قواعد تجرى على الوتيرة نفسها :

٩ - انظر جيدا الى الحياة المحيطة بك كلها .

١٠ - تعلم توجيه النظر الثاقب الذي يخترق قلوب الرجال .

١١ - ركز كل اهتمامك في النظر الى قلبك .

١٢ - لأنه من قلبك أنت يخرج الشعاع الذي يضيء الحياة ويجعلها واضحة جلية لعينيك .

افحص قلوب الرجال حتى تلم بهذه الدنيا التي تعيش فيها والتي تريد أن تكون جزءا منها . راقب مراقبة دقيقة حركة الحياة الدائبة حولك التي تتغير كل لحظة لأنها من قلوب الرجال تتكون فكلما تعلمت أن تفهم تكوين القلوب وتقلباتها ومراميها تدرجت في قراءة كلمة الحياة الكبرى .

والقاعدة التاسعة تعنى ما سبق ايضاحه وهو النظر الى الحياة بنور الروح .

والقاعدة العاشرة تقول انك ان فهمت الناس تصبح قادرا على

مساعدتهم كما أنك تتعلم من الدروس ما ينفعك في السير على الطريق ولكن يجب الانتباه الى المعنى الذي جاء في هامش هذه القاعدة تفسيراً لتعلم فهم الرجال . « النظر من ناحية غير شخصية بالمرّة . والا اصطبغ حكمتك بلون نظرتك » ولذلك يجب أن توضح كيفية النظر غير الشخصى .

المعرفة لا تتحيز فليس من الرجال عدو لك وليس منهم لك صديق انهم جميعا معلمون لك : فعدوك لغز يجب حله وفهمه مهما كلفك ذلك الحل من زمن لأن الانسان يجب أن يفهم . وصديقك جزء منك انه امتداد لنفسك ولكنه أحجية تصعب قراءتها ، ولكن شيئاً واحداً أصعب من هذا وذاك وأعسر فهما ، ذلك هو قلبك أنت .

ان هذا اللغز العميق لا يمكن حله حتى تنحل عنك قيود الشخصية وتقف جانبا تتأملها فمالم تتجرد عنها فانها لن تسفر عن نفسها وتظهر أمامك فتسيطر عليها وتتولى قيادها وتدرّك قوتها فتوجهها لخير ما تستطيع من أعمال وخدمات .

والقاعدة الحادية عشرة تقول : « ركز كل اهتمامك في النظر الى قلبك » . والثانية عشرة تقول : « لأنه من قلبك أنت يخرج الشعاع الذى يضىء الحياة ويجعلها واضحة جلية لعينيك » .

في طبيعتك تجد كل مافى طبائع غيرك من الرجال الخير والشر ،

الصالح والطالح كلها في قلبك قد يكون الطالح فات أوانه وتخلصت منه — ربما ، وقد يكون الصالح أمامك تعمل به ، ولكن الكل هناك . فان شئت أن تفهم الرجال وأن تعرف ما بأنفسهم من دوافع وأفكار ونوازع أنظر الى داخل قلبك تفهم الناس فهما أدق .

ولكن لا تنظر الى أفكار قلبك على اعتبار أنها أفكارك بل أنظر اليها كما ينظر اليها الغريب عنك أو كأنها معروضات في متحف أو معرض تدرسها ولكن لا تجعلها جزءا من حياتك لا غنى عنه .

اذكر وأنت تستعرض هذه الأفكار التي في قلبك أنه ليس منها فكر واحد يستحق أن يستخدمك لتحقيقه وأن يجعلك عبدا له وان كان الكثير منها يصلح لأن تستخدمه أنت أو أن تعمل على تحقيقه للخير .

أنت أنت السيد لا المستعبد ، ذلك اذا كنت نفسا تفتحت ووصلت .

والقاعدة الثالثة عشرة تقول : « الكلام وليد المعرفة فتوصل الى المعرفة تستطع الحديث » ويفسرها بعض التفسير هامش هذا نصه :

« انك لن تستطيع مساعدة الناس حتى تكون قد تبينت شيئا من جلية أمرك . فاذا كنت أدركت فهم القواعد الاحدى والعشرين

ودخلت بهو المعرفة وقد نمت قواك وتحطمت قيود حواسك فانك تجد هناك في قرارك ينبوعا يفيض منه الحديث .

لا تنزعج اذا توقعت أن يطلب اليك أن تلقى الى الغير كلمات الارشاد والتشجيع ولا تظن انك بحاجة الى تحضير ما ستقوله ان ذلك الغير سيستدر منك بقوة الروح ما هو في حاجة اليه . لا تخف، ثق وآمن .

لقد قاربنا الختام . وقد حاولنا ، ما وسعنا ، توضيح هذا السفر العجيب بعض الايضاح عسى أن يستطيع المبتدئ أن يجد بتعاليمه وعلى ما أرسل من (ضوء على الطريق) طرف الخيط فيتبعه على قدر ما يستطيع .

لقد كان العبء يثقل كلما تقدمنا في الشرح وكان العمل لا يدعو الى الارتياح كلما مرت القواعد تباعا ، فالكلمات محدودة والحق غير محدود ، وانه لمن العسير أن نحاول تحميل المحدود من الكلمات عبء غير المحدود من المعاني . والقاعدة الثالثة عشرة هي آخر ما نستطيع أن ندرسه ونبحث فيه . أما القواعد الباقية فيجب أن يقرأها المرید على انفراد وعلى ضوء الروح ، أنها لمن بلغوا الوعي الروحي خاصة ولهؤلاء سيكون المعنى واضحا أو غامضا أو بين بين على قدر ما بلغوا من نور الروح أو ما بلغهم من نوره . نحن نعتقد أننا لم نقم بما أخذنا به أنفسنا حق القيام ، ولو أن

الكثيرين قالوا لنا ان هذه الدروس قد فتحت أعينهم ، وأن الكثير مما كان غامضا قد وضح لهم بفضلها . ونحن نرجو أن يكون ذلك حقا لا مجاملة فيه وأن يحدث هذا للكثيرين ممن تصل اليهم كلماتنا هذه وان كنا نحن نعتقد أننا لم نقل شيئا ينفع ، ولكننا مع ذلك ، نعتقد أيضا أن هذه الكلمات ما كانت لتبرز للوجود لو لم يكن قد قدر أن سيكون لها أثر ولو لم يقصد بها أن تكون جزءا من العمل العظيم . ولذلك فاننا نرسلها لتمضى فى السبيل الذى قدر لها أن تمضى فيه وما لنا علم بما هى بالغة من مدى وقد يدرك بعض من يقرأها السر فى ارسالها (أكثر من ادراكنا نحن) .

لقد كتبت هذه الكلمات باملاء الروح ، فلتتول الروح وضعها حيث تدعو الحاجة اليها .

وسنواصل فى الدروس التالية نواحى من الروحانيات نرجو أن يكون فيها فائدة للطلاب ولكن قبل أن نغادر هذه القواعد الثمينة من تعاليم (ضوء على الطريق) نود أن ننوه بأهمية هذا السفر الصغير ، انه يحوى فى صفحاته قدرا من التعاليم الروحية العالية لم يسبق أن حواه مثل هذا الحيز الصغير . ولا يظن القارئ انه قد أمسك بناصيته لأنه فهم مجمل التعاليم . ليقراء ثانية بعد قليل يجد فيه جمالا لم يكن لديه عهد به من قبل ، فاننا لم نلق أحد مهما بلغ من العلم وعلو القدر الا وقد أفاد من هذا السفر

وخرج منه بشيء جديد . ان تعاليمه يمكن تفسيرها على عدة أوجه لأنها تصور ما تراه النفس وهي تقطع الطريق ، وأنت تذكر أننا قلنا أن الطريق يرتفع في دوران ، وأن الروح تدور وهي ترتفع فيظن القارئ أنه فهم معنى القواعد التي وضعت في التعاليم ولكن عندما يدور ويرتفع حتى يتم دورة كاملة يجد في نفس القواعد معاني لم تكن ظهرت له وهو على المستوى الأول الذي قرأ القواعد وهو يسير فيه . وهكذا يجد كل في القواعد ما يتناسب مع درجة ارتقائه ومع حاجات روحه .

ولا يقتصر الارتفاع الحزوني هذا على الآجال المتكررة ولكن في مدة الحياة الواحدة نجد هذا الطريق الدائر المرتفع .

ولكن النفوس التي لم تهتد الى الطريق ولم تعرف مدخله لتبدأ السير فيه ، تدور وتدور في نفس المستوى وعلى نفس الأرض لا ترتفع ولا ترقى مهما جدت في السير ولكن ما هو الا أن تطأ أول الطريق الصحيح وتسير كما كانت تسير ، الا وتشعر بأنها ترتفع وأنها مع كل دورة تجد نفسها في مكان يعلو المكان الذي كانت فيه من قبل ، والحق أننا لا نعرف كتاباً مرشداً للسير على الطريق مثل هذا الكتاب (ضوء على الطريق) . ولا شك أن لنا العذر أن ختمنا هذا الدرس بما صدرنا به الكتاب ، ان مكانها هنا في ختام هذا الدرس جدير بها كمكانها في أول الكتاب .

« رسالة (ضوء على الطريق) من أمهات الكتب عند الروحانيين
وهي خير مرشد عرف لمن خطوا الخطوات الأولى في السير على
الطريق ، طريق الخلاص والوصول الى النور . ولقد عنيت الكاتبة ،
شأن غيرها من الصوفية أهل الطريق ، بحجب المعاني ما استطاعت
الى ذلك سبيلا حتى تظهر هذه التعاليم لمن ليس من أهل هذا
الطريق وكأنها مجموعة متناقضات خلو من كل معنى .

ولكن من أشرق على نفسه ولو قبس من ضوء الروح ضئيل ،
يجد في هذه الصفحات كنزا مليئا بأندر الجواهر ، وكلما فتحه
بدت له منه جواهر جديدة .

سيكون هذا الكتاب فتحا للكثيرين الذين كانوا يتلمسون
الطريق على غير هدى في الظلام .

وسيكون لآخرين أول لقمة من أول غذاء روي يقدم لنفوسهم
الجائعة .

وسيكون للكثيرين أول جرعة من ماء ينبوع الحياة يطفىء نار
العطش الذي أضناهم .

ان الذين كتب لهم هذا الكتاب سيعرفون رسالته ، فاذا انتهوا
من قراءته أصبحوا قوما آخرين .

وكما قال الشاعر — حيث أسير يعرفني أطفالي — كذلك
أبناء النور سيعرفون أن هذا الكتاب لهم .

أما غير هؤلاء فإن كل ما نقوله لهم انه سيأتى الوقت الذى يصبحون فيه مستعدين لتلقى هذه الرسالة .

وضع هذا الكتاب على أساس أن يكون تقدم المرید على خطوات كما هو الحال فى تنقل البادئين من طبقة الى طبقة ومن درجة الى درجة فى الجمعيات السرية كالماسونية مثلا أو كما كان الحال عند قدماء المصريين ، وما يجرى عليه العمل فى الهند منذ أجيال اذ يلقت الأستاذ تلميذه فتسلم الرسالة بهذه الطريقة على حسب تدرج التلميذ لا يلقت القاعدة الا بعد أن يكون قد عمل بما سبقها كأهل الطريق تماما فأصبح بذلك أهلا لأن يلحق بأهل الطبقة التالية الذين وضعت لهم القاعدة التى وقف عندها .

وللقواعد التى وضعت فى هذا الكتاب صفة خاصة ، هى أن معنى القواعد الحقيقى لا يتكشف للطالب الا على قدر نمو روحه واستعداده ومدى تقدمه على الطريق .

سيفهم بعض القراء هذه القواعد وسيعجز البعض عن ادراك معناها فلا يستطيعون أن يخطوا الخطوة الأولى .

ولكن الطالب اذا رسخت قدمه فى أول خطوة وجد ضوءا يلقي على الدرجة التالية فيضع قدمه عليها فى اطمئنان وثقة واذا به قد ارتفع على السلم درجة ، فاذا امتلأ معرفة بالمستوى الجديد وأصبح من أهله أضاء له الروح السبيل فيتخذ خطوة أخرى .

ولكن لا ييأس أحد : ان مجرد اتجاهك نحو هذا الكتاب
واهتمامك به دليل على أن الرسالة التي يحملها موجهة اليك وأنتك
لا بد مدرك لها سائر على هديها ، وأن قواعد السير على الطريق
لا بد ستتضح لك قاعدة بعد قاعدة فتتقدم خطوة بعد خطوة .
اقرأ مرة بعد مرة تجد حجابا يرفع بعد حجاب ، واعلم دائما
أن حجابا كثيرة ستبقى بينك وبين الله تجد في السعي لرفعها حجابا
آخر بعده حجاب .

الدرس الخامس

كارما يوجا (KARMA YOGA)

فلسفة اليوجا تعلم أنه بالرغم من أن المحاولات الانسانية الصادقة ليس لها الا هدف واحد الا أن الطرق للوصول الى هذا الهدف متعددة ، كل طريق يلائم طبيعة الشخص الخاصة . وليست هذه الطبيعة وليدة الصدفة أو نتيجة حادثة عارضة انما هي نتيجة التقدم الذى أحرزته النفس فى تطورها وتمثل الميل الفكرى الذى تابعته النفس فى ذلك التطور وما ترتب عليه . وهى شىء واقع حقيقى فى كل مرحلة من مراحل التقدم تمثل أقل خطوط السير صعوبة وأضعفها مقاومة .

لذلك يقرر اليوجيون أن أنسب الطرق للشخص وخيرها لمصلحته هو الطريق الذى يتفق ومزاجه وذوقه وميوله ولذلك يقسمون (الطريق) الى ثلاث شعب توصل كلها الى الطريق الرئيسى ويسمون هذه الشعب :

١ - راجا يوجا .

٢ - كارما يوجا .

٣ - جنانى يوجا .

وكل سبيل من هذه السبل يؤدي الى الطريق الأعظم وكل منها يصلح لسلوك الذين يفضلونه من الناس وكل منها يوصل الى نفس الغاية ، الراجا يوجا هي الطريق الذي يسلكه أولئك الذين يميلون الى تنمية القوى الكامنة في الانسان — كسب القدرة على التحكم في القوى العقلية بقوة الارادة — الوصول الى السيطرة على النفس الحيوانية (الغرائز) — تنمية العقل حتى تجد النفس فيه العون على الخلاص .

وكارما يوجا هي طريق العمل والنشاط .

وجنانى يوجا هي طريق الحكمة .

وبجانب هذه الشعب الثلاث هناك طريقة بهاكتى يوجا أو طريق الاخلاص والعبادة طريق الشعور الدينى — (العشق الالهى) .

ويعرض بعض الكتاب لهذا الطريق على أنه مستقل عن الطرق الثلاثة السابقة منفصل عنها . ولكننا نفضل أن نفكر فيه وندرسه على أنه مزيج من هذه الطرق الثلاثة فاننا لا نستطيع أن نتصور طالب اليوجا فى أى فرع من فروعها الثلاثة وقد تجرد عن حب الله والتعلق به وابتغاء مرضاته .

اننا لا نستطيع أن نتصور رجلا يقطع الطريق الذى اختاره من

تلك الطرق بدون أن يكون قلبه عامرا بالحب والتقديس لمصدر الحياة .

سنتحدث في هذه الدروس عن بهاكتى يوجا كموضوع مستقل ولكننا نود أن يكون واضحا ومفهوما أننا لا نعتبرها شيئا قائما بذاته منفصلا عن الطرق الأخرى . أننا نشعر بأن سالك أى من الطرق السابقة أو كلها يجب أن يجمع بين بهاكتى يوجا والطريق الآخر الذى لنفسه .

سنتحدث في هذا الدرس عن شعبة (كارما يوجا) طريق العمل طريق النشاط (الأسباب) .

ولكن يجب أن يكون واضحا أنه وان كانت ظروف الطالب أو طبيعته تجعل هذا الطريق محببا الى نفسه الا أنه يجب عليه أن يهتم اهتماما جديا بالطرق الأخرى كلها كما أن من يفضلون تلك الطرق يجب ألا يعضوا النظر عن هذا الطريق أو ينظروا اليه نظرة الاستكبار والتعالى عنه . ذلك لأنه متصل بشئون حياتهم العادية اليومية . وفي الغرب حيث يعيش الناس كلهم تقريبا عيشة عمل ونشاط يتحتم على الطالب أن يجمع بين مبادئ كارما يوجا ودراساته الأخرى .

سيخصص هذا الدرس لكارما يوجا والتالى لجنانى يوجا

والذى بعده لبهاكتى يوجا ولن تتعرض فى هذه الدروس للراجا يوجا اذ أننا بسبيل اخراج كتاب خاص عنها .

ولعله من الخير قبل أن نعالج موضوع كارما يوجا أن نلقى نظرة عامة على موضوع اليوجا ما هو هدف تعاليمها والغرض من مزاولتها ؟ ما معنى ذلك كله ؟ ما الذى يبحث عنه الانسان فى كل هذه المحاولات ماذا تعنى الحياة والنمو والتطور والارتقاء . هذه أسئلة طالما ردها المفكرون وقليلون هم الذين يستطيعون الاجابة عنها ولو اجابة جزئية .

تعلم فلسفة اليوجا أن هدف محاولات الانسان وغاية سعيه فى حياته أن يجعل النفس تنفتح وتتحرر حتى تصل الى الاتحاد بالروح .

وبما أن الروح هى الجزء الالهى فى الانسان أو البضعة من العنصر الالهى فيه فان هذا الاتحاد قد ينتج عنه ما يعرف بالاتحاد بالله — يعنى الوصول بالنفس الى الاتصال والاتحاد بمصدر الحياة وهى تعنى ذلك الاتصال وتحسه فى جلاء ووضوح .

وقد يظن البعض ويدعو الى أن غاية الحياة هى السعادة وهذا صحيح أن قصد بالسعادة السعادة الحقيقية ، السعادة التى لا يوجد سعادة غيرها — سعادة النفس أما اذا كان قصدهم ذلك الشئ النسبى العارض الذى يسمى عادة وخطأ السعادة فانهم سرعان

ما يكتشفون أنهم يجرون وراء سراب كلما اقتربوا منه انحسر عنهم وبعد . ان السعادة الحقيقية لا توجد في الأشياء النسبية الزائلة ؛ فهذه الأشياء تتحول الى رماد بمجرد أن نمد اليديها لنمسك بها . قد نجد قسطا من السعادة في التطلع الى الأشياء وتتمنيها حتى اذا قطفنا الثمرة ذبلت ومهما ارتفعت قيمة الأشياء التي توهمنا السعادة في الحصول عليها فالنتيجة هي هي .

الأشياء النسبية لا تستطيع أن تتخلص من نسبيتها فهي فانية تزول وتنقضي . انها مخلوقة في الزمان والمكان فاذا أدت الغرض الذي خلقت له انقضى أجلها ولا يمكن أن تعيش بعد انقضائه انها فانية ولا بد لها أن تزول مثلها كمثل كل فان والشئ المجرد المطلق هو وحده الباقي لا يتغير ولا يموت .

هذا الكفاح والألم والحياة والجهد انما يوجه كل أولئك في الحقيقة الى تحرر النفس حتى تعرف حقيقة نفسها . من أجل ذلك تتطلع الى الأشياء نجري وراء هذا الشئ مرة ثم نجري وراء ذلك الشئ مرة أخرى ظانين أننا محتاجون الى هذا والى ذاك ولكننا في الواقع لا نحتاج الى شئ منها .

اننا نشعر بظماً لا يظفاً وجوع لا نشبع منه ونحن نجرب كل ما في الحياة من متع نهمين متكالبين حيناً وراء شئ وأحياناً خبط عشواء غير مكترئين وفي كل حالة نكتشف أن كل شئ خيال باطل

وظل زائل وان الجوع والعطش ما يزالان يدفعاننا الى مزيد من الجرى حتى نكتشف أن الشيء الذى نبحث عنه انما هو فى داخلنا وليس خارجا عنا فاذا عرفنا ذلك مهما كانت معرفتنا بسيطة فهناك نبدأ البحث المستنير متعقلين واذا بنا خلق آخرون . هذا هو معنى الحياة معنى التطور والارتقاء .

الأغلبية الساحقة من الناس منهمكون فى هذا الجرى وراء السعادة على وجه لا بصيرة فيه ولا وعى . يجرون هنا وهناك يجربون شيئا بعد شيء وهم يأملون أن يظفروا بذلك الشيء الذى لا تصل اليه الايدي والذى يحسون احساسا مبهما أن السعادة قد عقدت بلوائه وأن الهناءة والسلام فى ركابه . ومع أنهم يلقون خيبة أمل بعد خيبة فأنهم يواصلون السعى والبحث فى غير هوادة مدفوعين بقوة حنين النفس التى بدأت تصحو وتبكي طالبة ذلك الشيء المجهول الضرورى لها .

والنفس كلما زاد تفتحها وزادت يقظتها بفعل التجارب المتكررة المتعاقبة زاد تصورها الصحيح لطبيعة الشيء الذى تبحث عنه وحقيقته وعندها لاتسير الا فى الطريق المؤدى الى ذلك الشيء الذى طال بحثها عنه والذى لم تتبين حقيقته الا أخيرا وبعد لأى كثير من باحثى الغرب الذين يسعون وراء معرفة الحقيقة ينعون على فلسفات الشرق عدم ملاءمتها لظروف الغرب واحتياجات

طلاب الفلسفة الغربيين بسبب اختلاف ظروف الحياة في الشرق عنها في الغرب . ولو صح هذا الاعتراض لكان دليلا قاطعا على فساد تعاليم الشرق وفلسفته وعدم صحتها لأن الفلسفة الصحيحة والتعاليم السليمة يجب أن تكون مناسبة لجميع الناس على مختلف أجناسهم وأوطانهم وحرفهم وبيئاتهم فان لم تكن التعاليم سالحة لكل نفس واحتياجاتها فانها تعاليم غير سالحة ويجب اطراحها . كل نفس مهما انحطت وسفلت واتسمت بالخسة يجب أن يكون لها قسط من رعاية التعاليم والا كانت التعاليم قاصرة عن بلوغ الحقيقة . لأن هذه النفس الوضيعة وأرفع النفوس أمام القانون سواء لانهما قطعة من البشرية التي وضع القانون لها ولا يمكن اغفالها .

وعقدة العقد بالنسبة لهؤلاء المعارضين الغربيين هي أنهم فهموا أن تعاليم الشرق وضعت للذين يستطيعون أن يقضوا حياتهم في خمول الاستغراق والتأمل حالين معتزلين معركة الحياة وهذا خطأ كبير . صحيح ان بعض طلاب الحكمة في الشرق يختارون الانقطاع عن الدنيا فيصلون من وراء هذا الانقطاع الى نتائج باهرة . ولكن انقطاعهم هذا انما هو نتيجة (الكارما) الخاصة بهم . انه ثمة أعمالهم في حياتهم السابقة .

ولكن ليس ثمة يوجبى حق يقول بأن هذا الانقطاع هو الطريق الوحيد ولا انه هو خير طريق .

اليوجيون على عكس ذلك يقولون ان حياة العمل والسعى حتى في الشرق حق واجب على من وجدوا فيها وخلقوا لها وان التخلي عن واجباتهم فيها والفرار منها خرق للقانون الأعظم – دستور الحياة – وبناء على ذلك فان الحياة المليئة بالنشاط في الغرب (وكلها خاضعة لقوانين ثابتة مناسبة لمرحلة من مراحل التطور واضحة القسّمات مفهومة فهما جيدا) هذه الحياة تجعل الخلوة والاعتزال مسنحين بالنسبة لآلاف الطلاب المشغوفين بالبحث عن الحقيقة والذين يحتم عليهم قانون الحياة طبقا (للكارما) الخاصة بهم أن يسيروا في هذا الطريق ، طريق العمل . ولهؤلاء يقول اليوجيون بالتزام طريق العمل (كارما يوجا) موضحين لهم جمال هذا الطريق ومحاسنه .

كارما كلمة مشتقة من أصل سنسكريتي معناه العمل أو النشاط . وتستعمل لفظة كارما في أكثر الحالات للدلالة على (نتيجة العمل) أو (ثمرة العمل) وقد تحدثنا في الدروس السابقة الأربعة عشر عن كارما فأوضحنا في ايجاز قانون العلة والمعلول أو السبب والمسبب والقانون الذي ينظمهما في العالم الروحي – كيف تتبع نتيجة العمل العمل كما يتبع العمل الفكر ، وعلى هذا فان نتيجة العمل تتبع الفكر الذي ينتج العمل .

اننا نحن الآن ما نحن لأننا فعلنا في حياتنا السابقة أشياء معينة

ولأننا تركنا أشياء معينة أخرى لم نقيم بها . كانت لنا ميول ورغبات استسلمنا لها وما نحن فيه اليوم نتيجة ذلك وثمرته . لست أعنى أننا نعاقب الآن على أفعال ارتكبتها في الماضي فليس في قانون الحياة نصوص على العقاب ، ولكن كانت لنا رغبات نحو أشياء معينة فحققنا تلك الرغبات بقدر ما سمحت به ظروفنا وترتبت على ذلك نتائجها التي لا بد منها ولا تبديل لها .

لقد وضعنا أصبعنا في النار فاحترق — ونحن الآن نعالج الحروق هذا كل ما في الأمر .

ليس من الضروري أن تكون تلك الأشياء التي فعلناها في الماضي أشياء رديئة بل قد يكون كل ما في الأمر أننا تعلقنا بأشياء فكانت لتعلقنا هذا نتائجها التي قد تكون غير سارة ومؤلمة ولكنها على أي حال خير لأنها تعلمنا ألا نعود إلى فعل تلك الأشياء وألا نرتكب نفس الخطأ مرة أخرى . وشيء آخر ، اننا اذا تفتحت أعيننا فأدركنا متاعبنا على حقيقتها نتج عن ذلك الإدراك أن تخف حدة ما نعاني بسببها من ألم سرعان ما يزول .

هذا القانون الروحي قانون السبب والمسبب يعرف في الشرق باسم (كارما) فاذا تحدث طلاب الشرق عن (كارما) انسان ما ، قصدوا أن ما يحدث لذلك الانسان تنفيذ لذلك القانون العام ، كل انسان تسبب فيما يحل به ، وليس ثمة ما يدعونا إلى الفرع

من معرفة هذه الحقيقة بل على العكس اذا عرفنا هذه الحقيقة كانت آلامنا أقل وقعا وكنا أقدر على تجنب ما ترتب عليه من نتائج غير حسنة ، فان حياتنا تكون سارة أو غير سارة تبعاً لما وضعنا لها من أسباب بما قدمنا من أعمال كذلك يتوقف تحملنا لما كتب لنا من أحداث^(١) على الطريقة التي نتحملها ونستقبلها بها ، فان الفيلسوف يستطيع أن يرى الخير في شر ما يحل به كما أن الجاهل قد يشقى بخير ما تأتي به (الكارما)^(٢) على أنه سوء .

كثير من المشتغلين بالفلسفة الشرقية يتصورون أن (كارما) وهي القانون الروحي للسبب والمسبب قانون عقوبات وضعته وأصدرته وتسهر على تنفيذه السلطة الروحية القائمة . وهذا خطأ ، فان كارما ولو بدت في كثير من الأحيان كأنها توقع عقوبة بمعنى أنها توقع الانسان فيما يعادل ما أتى من عمل في اتجاه مضاد لذلك

(١) نظرية الكارما يوجا هذه قد تفسر القضاء والقدر تفسيراً فيه عدالة ، فبدل أن يكون ما قدر للانسان قدر لامر ما لا علم لنا به فانه تبعاً لكارما يوجا يكون قد كتب بخطنا نحن وامضائنا بما سبق أن قدمنا من عمل . (المترجم)

(٢) من السائد بيننا أن نقول (من عمله) اذا حلت بانسان مصائب وهذا التعبير هو أقرب ترجمة للكارما لولا أننا لا نقصد ما يقصد الهنود فنحن لا نعرف الوجود الا في هذه الحياة بينما كارما تنسحب على أعمال الانسان في حياة سابقة . (المترجم) .

العمل الا أن ذلك ليس فيه معنى العقوبة أو الانتقام انما هو نتيجة عمل أو ثمرة زرع لا أكثر ولا أقل .

ولكى نوضح هذا المعنى لابد وأن نستعين بالأمثال وان كان الفارق كبيرا بين ما نضرب من مثل وبين الواقع الذى نريد أن يقربه المثل من الأذهان .

نضرب مثلا : شخص تمتلكه الرغبة فى السلطان فيدأب على تغذية رغبته هذه بالأفكار المليئة بالأنانية ، لابد وأن يعانى من أعماله المترتبة على أفكاره نتائج تجر عليه آلاما ومتاعب عقلية وجسمانية . قد يحقق آماله عاجلا أو آجلا ان كان فيه من قوة الرغبة وشدة الدأب ما يكفى لتحقيقها ، ولكنه معرض بجانب ذلك للآلام من جراء تلك الرغبات عند عدم تحقيقها لعجزه أو لأنه حصل عليها بتضحية كل ما هو عزيز عليه أو لأن منافسه أقوى منه فيطحنه واذا به مع أمانيه وآماله يتمرغ فى تراب الندم والهزيمة بجنى ثمرة تفكيره فى السلطان ورغبته فيه تلك الرغبة التى تركها تقوده الى مصيره المحزن .

عندما تتسلط على الانسان الرغبة فى شىء يهب للحصول على ذلك الشىء - ومن حوله كثيرون تدفعهم نفس الرغبة فيهبون لتحقيقها - وتتولد من هذه الحركة قوة نفسية قد يكون اتجاهها فى مصلحته فتتحقق رغبته أو تكون مضادة فتطحنه وذلك كله رهن

بالظروف المختلفة — قوة المنافسين وقواد هو المادية والمعنوية
وكم من رجل أحرقتة نار أشعلها بيديه أو نسفته قنبلة صنعها
بنفسه . ان الانسان يزج بنفسه في المشاكل وعليه أن يتحمل
تأثيرها .

وحتى من تتحقق أحلامهم ويصلون الى أهدافهم (اما في هذه
الحياة أو في حياة أخرى في المستقبل) قد يكون نجاحهم وتحقيق
أمانيتهم خيبة أمل كبرى وقد يجدون الحياة لعنة فالحاكم المطلق
السلطان قد يعاني من سلطانه ألوانا من الحسرات العقلية وصاحب
الملايين قد يكون أشقى في حياته من المتسول الواقف ببابه ، وليس
ذلك كل شيء ، فهناك الذين دخلوا حلبة السباق فراحوا بين الدفع
والجذب فسقط منهم من سقط صرعى من الجهد لم يؤذهم ما حل
بهم من الأضرار التي لحقتهم بقدر ما يحز في نفوسهم ألم الفشل .
لقد عرفنا رجلا أبغض الناس بغضاء ملكت عليه مشاعره
فحاول أن يوقع بهم الضرر ما استطاع اليه سبيلا . وكانت النتيجة
أنه أدخل نفسه في نطاق قوة البغضاء المتفشية في العالم فلم يمتض
عنايه سوى وقت قصير حتى جلب على نفسه عداوة المئات من
الناس وكراهيتهم له فأصابه من جراء ذلك الضرر ماديًا ونفسيًا
حتى شقى غاية الشقاء ، ومن بين الذين أراد أن يضرهم لم يستطع
مع ذلك أن يوقع الضرر الا برجل واحد كان يعيش هو الآخر في
نطاق الكراهية وحب الأذى فجلب على نفسه الأذى .

ولكن الدرس كان نافعا لصاحبنا الأول فقد انفتح بصره على سخافة الكراهية وتائجها فأقام عن الانسياق فيها ونجا بنفسه من العودة الى الوقوع في حبالها .

ان الذين يلعبون لعبة الكراهية يجب الا يغضبوا اذا أصابهم الضرر والذين يقعون في حبال الشره لا يلومون الا أنفسهم ان زاحمهم من هو أحذق منهم بأساليب الشره . ومن علق سعادته على شخص أو شيء لا يعجب ان كان ذلك الشخص أو ذلك الشيء مصدر آلامه وسبب شقائه .

ورب سائل يقول : ولكن كيف أتحاشى هذه الأشياء اذا كنت أسير في مناكب الحياة ؟

وتجيب فلسفة اليوجا : بأن هذا يكون بأن تقوم بدورك في الحياة وتلقى بنفسك في معركتها وأن تؤدي ما عليك من أعمال على أحسن وجه ولكن تكون في ذلك كله حريصا على ألا تتعلق بشمات الأعمال . اعمل للعمل لا للأجر اعمل راضيا منشرح الصدر باذلا كل جهد ولكن لاتكن طامعا في شيء واعلم أن كل ما تعمل له من الدنيويات فان لاقية له اعلم راضيا — وقد بذلت غاية جهدك ان نجحت أو لم تنجح .

سنجعل شرح هذه الاجابة محور الحديث بقية هذا الدرس لنظهر أن هذه الاجابة وان بدت نصيحة غير عملية ولا ممكنة لأول

نظرة الا أنها فى الواقع ليست عملية فحسب بل هى سبيل الرشد فى الحياة دون غيرها للرجل المجد الذى فرض عليه أن يقوم بأهم الأعمال وانها الطريق الوحيدة التى تناسب رجال الغرب الذين يدأبون فى غير انقطاع ويعملون كما لو كانوا خالدين .

ولكن يجب أن نوجه النظر الى أننا نعلم أن قليلين جدا من البشر سيقبلون هذه التعاليم أما الغالبية العظمى فقد بهرتهم الحياة بأوضاعها الراهنة وفتنتهم ببهرجتها فأخذوا أنفسهم بالجذب والدفع والتناحر والتسلق على جثث ضحاياهم من اخوتهم ضحايا هذا الصراع الدموى فى التجارة والصناعة مما يشغلهم عن تدبر أى أمر آخر فلا يزالون يأكلون بعضهم ويؤكلون يقتلون ويقتلون كارهين مكروهين وكل من يشترك فى دوامة هذا الصراع المرير يخضع نفسه لقانون العلة والمعلول - السبب والمسبب - فينالهم من ذلك القانون ما نصت عليه أحكامه واذا بهم يصرعون وهم يحسبون انهم بلغوا القوة التى تمكنهم من التحكم فى المصير .

أما القلة التى فيها الاستعداد لقبول هذه التعاليم فانها تفهم مانعنى وتستطيع أن تقف جانبا بأرواحها ترى نفسها تشترك فى المعركة دون أن تتأثر بأطماعها وأحقادها ومؤامراتها . انها تحيا كما يحيا الناس - فى الظاهر - ولكنها تعلم من الحق ما لا يعلم الجاهلون فلا تغرهم الدنيا ولا يعلقون بشباك شهواتها ومصايد شرها .

وكم سئنا : ماذا تكون مصائر الأمور لو اتبع كل الناس هذه
التعاليم ؟

ونحن نجيب بأنه لو حدث هذا لانهار كل نظام الحياة
الحديثة وحل محله شيء آخر خير منه لأقصى حد . ولكن هذه
الاجابة لا داعى لها فليس ثمة أى احتمال لأن يقبل الناس جميعا
هذه التعاليم فى مستقبل قريب . صحيح أن عدد من يقبلونها فى
تزايد كل يوم ولكنهم على أحسن الفروض لن يزيدوا على حفنة
من هذا البحر الزاخر من الخلق .

ان أمام الجنس البشرى تجارب ومحن وكفاحا ومحاولات
قبل أن يخطو الخطوة الأولى نحو هذا التحول ونحن لا نقول هذا
أسفين ولكن نقوله بإيمان العارف الموقن بأن الألم والكفاح لا بد
منهما لتقدم الجنس .

ونحن اذ نذكر هذه التعاليم لا تقصد تعاليمنا نحن هذه بالذات
ولكننا نعنى جميع أنواع هذه التعاليم التى يقوم بالدعوة اليها
مئات المعلمين الراشدين فى هذا العصر .

من أول الأشياء التى يجب أن يتعلمها تابع الكارما يوجا أنه
جزء من الحياة الكبرى ووحدة من وحداتها له مكانه فيها وله عمله
الذى عليه أن يعمل ولكن مهما بلغت أهمية وضعه وعمله فما هو
الا جزء من الكل خاضع لما يمليه عليه نظام ذلك الكل وما تفرضه

عليه قوانينه . ومهما بلغ من الضعة وتفاهة الشأن فانه أيضا جزء من نفس الكل له عمله وعليه عبء لامفر من حمله . ليس في الحياة نافه وليس لأهم الأشياء ما يجعله فوق قانون الحياة . علينا جميعا أن نقوم بدورنا وأن نقوم به على أحسن وجه لا لأننا بذلك نحقق سمونا ونضجنا ولكن لأن مدبر الكون أعدنا لغرض وغاية ويجب علينا أن نعمل لتحقيق هذا الغرض والوصول الى تلك الغاية لا على أننا آلات ليس لها عقل ولا ارادة ولكن لان غاية الحياة ومصالحنا تتفقان فاذا آمنا بذلك وجدنا أن عملنا لا يسبب لنا حزنا ولا ألما . اننا نشعر بصعوبة ايضاح ما نقصد ولكننا نأمل أن يزداد الوضوح كلما تقدمنا في الحديث .

ان غاية حياتنا ليست فقط أن نتقدم وتنمو أنفسنا وحدها ولكن نحن نؤثر في الغير ويؤثر الغير فينا وهذا التبادل والتفاعل يساعد المجموع على التقدم والارتقاء ، قد يبدو جزء من عملنا بلا هدف ولا أثر في تقدمنا ولكن لنعلم أن هذا الجزء ضرورى لناحية أخرى من نواحي الحياة الكلية وعلينا ، وان لم نفهم السر، أن نقوم بالعمل .

ان كل حركة وكل سكة لحكمة كنقل قطعة من قطع لعبة الشطرنج بيد الخبير فيها ربما بدا بغير معنى ولغير غاية ولكن عندما يتقدم الشوط تظهر حكمة هذا النقل ويتضح انه كان أساسا

لشيء خطير كذلك يخضع اليوجي لاملأ الروح وتوجيهه بغير
اعتراض ولا ضجر عالما أن الخير فيما اختار الله وأن ما كلف بعمله
سيكون له أثره فيما يحيط به وفيما يفعل غيره من الخلق .

أما الذين لم يؤتوا شيئا من العلم بحقائق الحياة وأسرارها —
أسرار اللعبة — فانهم يعترضون على ما لا يفقهون ، ويقاومون
ما يسير على غير هواهم ، فينالهم من المقاومة وما ينجم عنها من
احتكاك شر وألم . بينما من أوتوا العلم والحكمة يرون ما خفى ،
وتشرق عليهم ابتسامة الرضى ، يسلمون فلا يصيبهم ما أصاب
غيرهم وربما نالوا خيرا لم يطمعوا فيه ولا هم به إذ أتاهم فرحون
لقد علموا أن اليد التي تحرك كل شيء تعمل لحكمة وغاية فأسلموا
لها زمام أنفسهم وباتوا ناعمين رضوا عنها ورضيت عنهم .

ليس هذا مجرد حلم فلسفى رفيع . ولعل الكثيرين يدهشهم
أن يعلموا أن من زعماء الناس فى كل درب من دروب الحياة من
يشعرون بهذه القوة الخفية التي توجههم فأسلموا قيادهم لها ونذكر
تأييدا لهذا القول ان رجلا بارزا يعرف العالم كله اسمه ويتحدث
عنه كرائد من كبار أهل الحل والعقد ولا علم له بتعاليم الشرق
هذه (أو لم يكن له بها علم وقت الحادث الذي نرى خبره) الا
أنه أفضى بحديثه الى صديق نقله بدوره الينا قال :

« ينسب الناس الى القدرة على احكام التدبير ورسم الخطط

البعيدة المدى . وهذا وهم . فانى فى الواقع لا أرسم خططا تزيد على الخطوة التالية التى يجب أن أتخذها ولكن يبدو أن كل الخطوات معروفة مخترنة فى ناحية من نواحي عقلى . اننى أشعر كأننى جندى فى لعبة الشطرنج تحركنى قوة تهدف الى استخدامى فى تغييرات كبيرة فى مصائر الناس وشئون الحياة ولو أننى أجهل كل شىء عن هذه التغييرات . أنا لا أشعر بأننى مختار العناية لشىء أمتاز به على غيرى لأننى - ولست أريد أن أتهم بالتواضع - لا أستحق أى تقدير لشىء أمتاز به على الغير فلا أنا أنضح عقلا ولا أنا أطيب خلقا من أترابى .

اننى أشعر أحيانا - لغير سبب - أن ما أقوم به من عمل انما هو لصالح قوم أو لصالح البشرية عامة وان بدا ذلك العمل كأنه شر أريد بمن فى الأرض .

اننى لا أجد فى قلبى حبا للمال الذى أجمعه وان بذلت وسعى فى جمعه . وكلما أتممت عمل شىء شعرت برغبة فى اطراحه عنى كأنه لعبة بالية . أنا لا أدرك ما يدور حولى شيئا وان كنت واثقا أنه لحكمة . قد تساورنى فكرة أننى سأفقد كل ما أملك ولكننى أحس أن ذلك ان حدث فاننى سأعوض عما أفقد خيرا منه . لقد استولى على هذا الشعور منذ أول حياتى وقد درجت على أن أسلم قيادى لهذه القوة الخفية وكل مرة حاولت فيها التمرد والعصيان أصابنى

ضرر بشكل أو آخر وكل مرة استسلمت فيها كان النجاح حليفى
اننى أضحك من رأى الناس فى وتقديرهم لأعمالى وأنا أو من
بأننى لست الا آلة فى يد لا أراها ولا أظن أن لنفسى الحق -
لميزة أمتاز بها - فى أن تخصصنى تلك اليد بحبها .

هذا الرجل - كما يبدو من الوصف - وقع بدون وعى
ولا قصد على سر من أسرار الكارما يوجا ، سر العمل . انه لا يهتم
بنتائج عمله ولو أنه يهتم بعمله غاية الاهتمام ، ولا تهمة ثمرات
سعيه وكفاحه وان كان الذين يعرفونه لا يدركون ذلك السر فيه .
انه أدرك أنه قطعة من قطع الآلة الضخمة ويقوم بعمله منسجما
فيها راغبا راضيا .

وكثير مما يعمله - ولو فى الظاهر - (فكثير مما يتم على
يديه نتيجة أعمال الآخرين ممن يعملون معه أو ضده وتؤدى
أعمالهم فى مجموعها الى انجاح عمله) - كثير مما يعمله يجر
فى أعقابه آثارا قاسية على الانسانية وان كان المراقبون العارفون
يرون أنه هو وأمثاله يمهدون الطريق أمام التغيرات الكبرى التى
تنتظر الانسانية والتى تتركز على نمو روح الأخاء فى البشر .

نحن لا تقدم هذا الرجل كأنموذج للكارما يوجى ، فهو ليس
كذلك ، لأنه يقوم بدوره دون وعى ولا ادراك بينما الكارما يوجى
الحقيقى يعنى تمام الوعى ما يعمل والى ماذا يهدف اتنا ذكرناه

تأييدا لقولنا ان من الناس كثيرين يعملون بتعاليم الكارما يوجاوان
كثيرين في مختلف دروب الحياة يتبعون مبدأ أو آخر من مبادئها
فتجد بعضهم يتحدثون عن النظر للحياة نظرة فلسفية ، يريدون
بذلك انهم لا يتعلقون بمفاتيح الحياة كل التعلق حتى لاتستغرق
كل اهتمامهم أو انهم يعملون حبا في العمل ورغبة فيه لا في أجره
— حبا في الحياة لا فيما فيها من أشياء باذلين كل جهد خالين من
كل حقد لا يؤسفهم فوت الفرص وضياعها انهم يساهمون في اللعبة
كرياضة أما الجوائز والمكافأة التي تمنح للفوز في اللعبة فلا
تهمهم ، انهم يتركونها للبادئين فيها — للأطفال — أما هم فقد
شبووا عن الطوق .

ان هؤلاء الراسخين لاتغريهم زخارف الدنيا من شهرة أو جاه
أو سلطان فانهم عرفوها وعرفوا أنها زبد يذهب جفاء فتركوها
لمن يغريهم زيفها وجمالها الزائل احتقارا لشأنها . قد تعلق على
صدورهم الأوسمة ولكن لا مكان لها في قلوبهم ان المتنافسين من
حول أحدهم يحسبونه واحدا منهم يخالون شأنه شأنهم ولكنه
يعلم وهم لا يعلمون .

ان سر العمل — عدم التعلق — هو مفتاح كارما يوجا . ليس
معنى عدم التعلق أن يتجرد الطالب من كل المسرات . على العكس
انها تعلم ان هذا السر اذا اتبع بأمانة يجعل الانسان يحسن التمتع

بكل شيء . انه بدل أن يفقده لذة التمتع بالشيء وبهجته يضاعفها ألف ضعف . ويكمن الفرق في أن الرجل العادي يحسب أن سعادته تتوقف على أشخاص أو أشياء بذاتها بينما الرجل المتحرر يعلم أن سعادته تنبع من داخل كيانه — من ذات نفسه — لا من أى شيء خارج عنه ولذلك فانه قادر على أن يحيل الأشياء والظروف التي تسبب العناء والألم لغيره الى مصادر للسعادة والرضى .

مادام الانسان يربط سعادته بشخص أو شيء لا يجد عنه بديلا فانه عبد لذلك الانسان أو الشيء . فاذا وجد لنفسه فكاكا من سلطان هذه الرابطة وأصبح سيد نفسه ، يجد في قراراتها ينبوعا للسعادة لا يفيض — ليس معنى ذلك أن يكف عن حب الناس . بالعكس انه يجزل لهم الحب خاليا من المصلحة الشخصية والأناية — ولكن لندع هذا الحديث الى مقام آخر فنوفيه حقه من البحث .

تبدو كارما يوجا هذه للرجل العادي المتعلق بمتع الحياة سخفا أو هراء تأتي في أعقابه نتيجة محتومة هي الفشل أو الفتور في العمل وهذا خطأ مبين .

من الذى يؤدي عمله على خير وجه سواء في المتجر أو المكتب أو المصنع — الرجل الذى يعمل لمجرد الحصول على الأجر يرقب عقارب الساعة حتى لا يزيد وقت عمله دقيقة واحدة عن الوقت

المفروض عليه أم الرجل الذي يعمل - مع علمه بأنه يعمل ليعيش من أجر عمله - ولكنه ينصرف الى عمله بكل جوارحه ويبدل فيه كل همه وانتباهه ، لا يخطر على باله أنه يعمل لقاء أجر حسبه أن يوازي عمله قيمة أجره هذا ولكنه يعمل ويعمل حتى لينسى مواعيد راحته وأوقات انصرافه لاستغراقه في عمله ، فتمر تلك المواعيد وهو منكب على العمل ؟ . ان خير ما أنتج في العالم أنتجه الرجال الذين حصروا فكرهم في عملهم لا أولئك الذين يجعلون الأجر نصب أعينهم وهم يعملون .

ان الموهبة التي تدفع الفنان الى انتاج صورة خالدة أو تدفع الكاتب لوضع كتاب قيم أو الموسيقى لأن يتتكر لحنا رائعا ، تلك الموهبة هي التي تجعل الرجل ينجح في أى عمل يتولاه انها موهبة العمل للعمل الذى يجد العامل فى أدائه لذة ورضى عن نفسه لأنه أنتجه . هذا هو العمل الذى أنتج روائع العالم ومعجزاته .

يبدو للكثيرين أن الصوفى الزاهد صاحب خيالات لا يصلح لأعمال الحياة ، مجرد حالم ينسج أوهاما من خيوط الخمول . ولكن الذين نفذ بصرهم من السطحيات الى لب الحقائق يتبين لهم أن الصوفى العامل رجل يركن اليه فى كل فرع من فروع الحياة . ان مجرد زهده وعدم تعلقه يعطيه قوة يفتقر اليها الرجل العادى . الصوفى لا يخاف فهو جسور مقدم لعلمه أن نجاحه وسعادته

لا تتوقف على ملايسات بذاتها . وهو واثق دائما بأنه سيخرج من أية ظروف أو محنة أو شدة آمنة سالما . انه يشعر بأنه يرتكز على صخرة ثابتة وان قوة سر الكون تظاھرہ وتشد أزره . وهذا الشعور يكسبه قوة وشجاعة يفتقر اليهما الرجل الذي يحسب أن سعادته تتوقف على نجاحه في عمل أو شيء ان نجح فيه كسب كل شيء وان فشل كانت في الفشل نهايته .

ان الصوفي يلقي نفسه في تيار الحياة مندفعاً به ومعه ، نشوان باحساسه انه جزء من الحياة لا يخشى على نفسه من زحمتها وتطاحنها لانها منه وهو منها فلا يخشى اذاها . انه ينتقل فيها من جو الى جو ، ومن وسط الى وسط راضيا مطمئنا لأنه يعلم أن القوة التي تسير هذا الكون كله تسانده وتشد أزره فيعمل بكل قواه لأنه لا يدخر وسعا ولا يحتفظ بشيء من طاقته لاتقاء شر أو دفع مكروه ولذلك يكون اتاجه أعظم من اتاج غيره (ممن يعملون وهم يتلفتون يمنة ويسرة يوجسون خيفة مما حولهم فلا يبذلون في العمل الا بعض طاقتهم أما سائرهما فموزع مشتت يوزعه الشك ويشتته الخوف أو البغضاء والحق) .

ان اتاجه أعظم الاتاج أما نتيجة العمل — أما الأجر والمكافأة فأمر لا يعنيه كثيرا انه يستطيع أن ينصرف الى أي عمل آخر باذلا فيه ، كعهده ، كل جهد . انه يعمل فقط أما نوع العمل فلا يربطه به رابط من منفعة أو كسب .

والعامل من هذا الطراز لا بد وأن يدر عليه عمله ما يكفيه حقا مكتسبا له . ان من أتقنوا كارما يوجا وسيطروا على مبادئها بالرغم من اعراضهم عن زخرف الدنيا ومظاهرها يعيشون في سعة من الرزق تسد حاجتهم وتكفل راحتهم وطبيعي أن القليل يسد الحاجة ويكفل الراحة لهؤلاء الناس لأن ذوقهم بسيط يرضون بالقليل الجيد . انهم يجذبون اليهم رزقهم فيأتيهم طوعا كما تجذب الشجرة مادة حياتها من الأرض والماء والهواء .

انهم لا يجرون وراء السعادة ولا يهتمون بالرزق ومع ذلك فالسعادة تأتيهم والرزق ملء أيديهم بغير سؤال . ان الذين تخلصوا من حبائل الدنيا وأصبحوا بمنجاة من مطامعها يجدون من السعادة في أبسط أنواع العيش مالا يجده الرجل المتعلق بأذيال الدنيا حتى في لحظات نجاحه وتحقيق أمانيه .

كل شيء يطلبه الانسان وهو يعتقد أنه سيكون مصدر سعادته يجد فيه الانسان عند الحصول عليه نواة الألم أما اذا لم يربط الانسان سعادته بالأشياء وعرف أنها مجرد ضرورات عارية تمضي أو تسترد عند ذلك تفقد الأشياء ما يكمن فيها من أسباب الألم — ألم فقدتها أو عدم العثور على السعادة المنشودة من ورائها .

ان الرجل الذي يسعى وراء الصيت والشهرة على أن فيها سعادته المنشودة يجد يوم يصبح مشهورا ذائع الصيت في هذه

الشهرة من الأعباء والمضايقات ما ينغص عليه سعاداته ويفسد فرحه
بنيل أمنيته ، أما الرجل الذي يعمل ويجد حبا في العمل والجد
فاته ان جاءت الشهرة نتيجة لعمله ومجهوده ، يتلقاها راضيا كما
يتلقى رزقا ساقه العمل اليه ، فيسعد بها سعادة لا يشوبها شائبة .
كثير من الأشياء التي يوقف الناس على الظفر بها حياتهم ،
تجلب معها الألم أكثر مما تجلب من الراحة والسعادة ، ذلك لأن
الناس لا يعنون بالأشياء لذاتها انما يعنون بها ظنا أن فيها سعاداتهم .
في اللحظة التي يربط الانسان الحصول فيها على السعادة بشيء
أو شخص ، يفتح الانسان على نفسه باب الألم والشقاء فما من
شيء أو شخص يمكن أن يشبع جوع النفس ويروى عطشها ولذلك
فان خيبة الأمل التي لا بد وأن تصيب الانسان من ذلك الشيء
أو الشخص تملأ نفسه أسى ولوعة بدل أن تملأها السعادة التي علل
تفسيه بها .

حتى الحب ، ذلك الشعور النبيل مصدر ألم للمتعلق بالأشياء .
فلسفة اليوجا تنادى بالحب وتدعو الى الحب والى المزيد من الحب
بغير حد ولكنها تعلمنا أن الحب اذا كان أنايا جلب في أعقابها
الشقاء والألم . اننا عندما نقول اننا نحب شخصا انما نقصد أننا
نريد أن يحبنا ذلك الشخص . فاذا بخل علينا بحبه أصبحنا تعساء
لأننا لم نل حبه الذي تمنيناه .

الحب الصحيح ليس من هذا القبيل ، ان لذته في سعادة
المحبوب لا في كسب السعادة منه . الحب الصحيح الذي لا أنانية
فيه يفيض نحو المحبوب منطلقا لا يبغي عوضا ولا يسأل ردا
ولا ثمنا ، انه بدون مقابل ، الحب الصحيح منح وعطاء . أما الحب
الأناني فانه طلب والحاف في الطلب ، انه سؤال لا ينقطع ولسان
حاله يقول (اعطني ، هبني ، امنحني) . الحب الصحيح ينبعث من
المحب كأشعة الشمس تغمر المحبوب ولا تعود منه بشيء للمحب ،
أما الحب الأناني فانه يجذب اليه كما تجذب الدوامة الأشياء .
اذا أحب الانسان حبا أنانيا فان سعادته تتلاشى يوم يتحول عنه
محبوبه ، فهو يسعد ما دام ذلك المحبوب راضيا عنه يمن عليه
بحبه . انه مستعبد رق لتقلبات محبوبة وأهوائه ، انه معلق بإرادة
محبوبه معرض لآلام الاهمال والهجران اذا تبدل الحال . وفي معظم
الأحيان يناله الألم لأن الحب لا بد وأن ينتهي يوما — بسبب
أو آخر — وفي نهاية الحب لمن بنى سعادته عليه التعاسة والألم .

أما حب الصوفي غير المتعلق فهو شيء آخر غير الحب الأناني
انه هو الحب الأعظم انه الحب المجرد الذي لا مقابل له ولا ثمن
انه الحب الذي لا غاية له ، ان صاحبه يسعد به سعادة دائمة
لا يعكرها الجحود أو عدم المبادلة حبا بحب ، انه الحب الحقيقي
وليس ذلك الشعور الأناني الذي يحسبه الناس حبا وهو تزيف
خسيس له .

يقول ادوارد كاربنتر الشاعر الانجليزى عن الحب :

« ان من يحب المخلوق الفانى وينتهى حبه هناك لم يعد حرا
بعد . لقد وهب نفسه للموت .

ان شبح الموت الأسود البغيض يكمن له فى كل منعطف معكرا
صفاء الكون ومع ذلك فان من يحب لا بد وأن يحب المخلوق الفانى
ومن يريد أن يحب حبا حقيقيا يجب أن يحتفظ بحريته .

ان الحب رغم عظمتة مرض ما دام يدمر حرية النفس أو حتى
يمسها بسوء .

لذلك اذا أردت أن تحب فجنب نفسك الحب .

اتخذ منه عبدا لك تجد معجزات الطبيعة كلها فى قبضة يدك .

ثم يقول :

لا تجعل غاية الحب هذا العمل أو ذاك والا كانت فيه نهاية

الحب .

ولكن ابحث عن هذا العمل أو ذاك العمل أو ألف عمل ينتهى

كل منها بالحب .

بذلك تصل أخيرا الى خالق ذلك الذى تشتتبه الآن .

فاذا انتهى كل هذا وذهب كل شىء بقى ملكا لك شىء خالد

عظيم لا يستطيع رجل أن يسلبك اياه .

في أول درس من هذه الدراسة أشرنا الى القاعدة الأولى من الجزء الأول من الكتاب (اقتل الطمع) وأشرنا الى القاعدة الرابعة من نفس الجزء (اعمل كما يعمل الطامعون) .

ان هذا القول الذي يشبه الألفاظ فيه مفتاح العمل مع عدم التعلق به . لقد حاولنا في ذلك الدرس أن نظهر للقارئ جانبي الدرع وأن نفسر له كيف يقتل الرجل الطمع ومع ذلك يعمل كما يعمل الطامعون . انا ننصح القارئ أن يعيد قراءة ذلك الدرس عندما يفرغ من الدرس الحاضر .

ان الفكرة الأساسية في عدم التعلق — سر العمل — هي أن تتجنب الوقوع في شرك الأشياء غير الحقيقية في الحياة . الأضاليل والخدع التي تغرر بالكثيرين — متاع الغرور .

ان الناس عرضة لأن يربطوا أنفسهم بالأشياء التي يخلقونها بأنفسهم أو بالأشياء التي يعملون للحصول عليها . انهم يجعلون من أنفسهم عبيدا لها بعد أن كانوا لها سادة انهم يتعلقون برغبات معينة فتجرهم هذه الرغبات الى شتى السبل ، تمر بهم فوق الدمن وفوق الصخر ووعر الطرق ، لتتركهم آخر الأمر خائري القوى عاجزين مضطربين .

هذه الرغبات تأتي من الجزء غير الناضج من العقل ومع أنها تكون سليمة لا لوم عليها ولا تثير في محلها الا أن محلها هذا

هو أيام كان الانسان يقطع مرحلة بدائية قبل وصوله الى مستواه
الحاضر انها تتعلق بالماضى الذى انتهى منه الانسان وتركه منذ
أيام طفولته الروحية .

ان الانسان يجب ألا يخاف من هذه الرغبات اذا ساورته فانه
يعلم أنها جزء من كيانه . انه يعرف تاريخها وأصلها والدور الذى
لعبته فى نموه وتطوره ، وقد كان دورا ضروريا فى حينه ، وكان لا بد
من أدائه ، ولكنه اجتاز تلك المرحلة وانتهى الوقت الذى كان ذلك
الدور فيه شيئا طبيعيا صوابا ، فليس له الآن أن يجعل هذه الرغبات
تستولى عليه وتقيده ، يجب أن يأبى أن يقع فى شباكها ، يقول
كاربنتر :

« فى تودة وحزم ، كما تنتزع الذبابة أرجلها من العسل الذى
وقعت فيه .

كذلك — ولو مرة واحدة امح كل ذرة تكدر صفاء عقلك .
أرجع الى داخل نفسك . راضيا بأن تعطى ولكن غير سائل
أحدا وغير سائل شيئا وفى نور جلاله الهادىء الذى يملأ الكون .
نور الحى الذى لا يموت الى الابد اسكن ما استطعت أن
تسكن — راضيا .

ويقول الشاعر أيضا عن الرغبة :

إذا حملت رياح الهوى الجسد ، كما لا بد أن يحدث حتما ،
فلا تقل (أنا) أرغب هذا وأرغب ذاك .

لأن (الانا) لا يرغب شيئا ولا يرهبه ولكنه حر وفي مجدد
دائم مقره السماء يبعث أشعة البشر كالشمس في كل جانب .

لاتدع أى اضطراب يهبط بذلك الشيء الجوهرى الى عالم
المتناقضات والموت والآلام فيعلق بشركها .

فكما أن الشعاع ينطلق من المنارة بسرعة هائلة فوق البر
والبحر ومع ذلك لا يتحرك المصباح .

كذلك بينما جسدك تحركه الرغبات بغير انقطاع وهو لا بد
فاعل بحكم الطبيعة فى عالم الآلام ، يبقى ال (أنا) ثابتا محلقا
فى السماء .

لذلك أقول لك لاتدع أى اضطراب يستولى على عقلك فى
هذا الأمر .

ولكن اذا قرعت الرغبة بابك .

فمع أنك تسمح لها بالدخول وتغدق عليها الكرم قياما
بالواجب .

أقم حولها سياجا يفصل بينها وبين نفسك الحقيقية .

والا مزقتك وقطعتك . «

يرى الكارما يوجبى الحياة والعمل على حقيقتهما ، لا يندفع
بأخطاء الناس فى هذه الشئون ، فهو يرى أن اعتبار العمل لعنة
صبت على الجنس البشرى سخف اذ يجد أن العمل نعمة اختص
بها الجنس البشرى ، فيه منافع وفيه السعادة أن قام به الانسان
على الوجه الصحيح الذى أوضحناه . وفيه يسلو الهم ان حزبت
الأمر ، وبه ينصرف عن ايحاءات جميع الغرائز الدنيا . ويساعد
على مواجهة المشاكل التى لاتنقطع .

من الطبيعى أن يعمل الانسان حتى تظهر قوة الايداع والخلق
التي يظهر بها المبدع الخالق قدرته عن طريق الانسان . أن العمل
سبيل التطور .

اذا تراجعت نفسك مشمزة من مظاهر غرور العالم المحيطة
بها ومن تفاهة أهداف الناس وقيمها الجوفاء الفارغة—ومن شره
ومن ضراوته وقسوته ومن ظلمه ومن عمى بصره وبصيرته وسئمت
التميلية التى تدور فصولها وتقوم بها الدمى فى كل مكان ولكن
لا يبصرها الا ذوو البصيرة وأولو الألباب ، اذا اشمازت نفسك
من هذا كله ، فاخلى بنفسك وغص فى أعماقها حيث السكون
والصمت فى تلك الأعماق . لا تياس ولا تفكر فى اعتزال العالم
ولا تذرف الدمع السخين أسى وحزنا واذكر أن عليك عملا لا يحسن
أداءه أحد غيرك ، وان لحياتك غاية وان لها لحكمة . فاذا هدأت

ثورتك واستجمعت قوتك فعد الى المعركة وخضها في ايمان
وحزم وأد عمك كأحسن ما يكون الأداء وقم بواجبك خير قيام
فان في ذلك ذكاء نفسك وارتقاءها على سلم التطور لا تطورك
وحدك ولكن تطور الجنس البشرى كله .

لا تحزن لما وجدت من تفاهة وشر فكل شيء لحكمة ولكن
شيئا واحدا يجب أن تحذره ذلك أن تتعلق بشمار عمك وأن تطمع
في الثواب عليه . احفظ عينيك صافيتين وعقلك غير محجوب
بالغيوم .

لا تحسب أنك تستطيع أن تتجنب المعركة ولكن اهتد بهدى ،
(ضوء على الطريق) في قوله (ومع أنك تحارب فلا تكن المحارب) .
ان كانت (الكارما) قد وضعتك في صميم المعركة فخضها
فان ذلك سبيلك الوحيد للتغلب على ما يسبب لك الهم ويزعجك
فانك لن تستطيع الهرب من السبيل الذي أعد لك يجب أن تأتي
عليه وأن تصل الى نهايته فتؤجر ويجزل لك في الأجر .

لقد أوضح هذا الأمر غاية الوضوح في السنسكريتية شعرا
في (البهاجا فادجيتا) (Bhagavad Gita) حين يشكو الأمير
أرجوانا من اضطراره للقتال في معركة الحياة ويضرع الى كريشنا
(اسم من أسماء الالهة الهندية) أن يعفيه من عبء ذلك الواجب
وحين يوضح كريشنا له كنه هذا الواجب ويأمره بالقيام به وقد

أجساد أودين أرنولد الشاعر الانجليزي ترجمة هذه القصيدة
بالانجليزية شعرا - يقول كريشنا لارجونا :

« لا مهرب لانسان من العسل بالتخلي عن العمل

ولن يبلغ الانسان الكمال بالاعتزال

فليس في الزمان لحظة في أي وقت يتعطل فيها شيء عن الحركة

فالطبيعة في قانونها ، ولو أيينا ، الارغام على العمل

حتى التفكير - نوع من عسل الخيال

فالرجل الذي يقعد وقد كف عن كل نشاط لأعضاء جسده

ثم يفكر في ذلك النشاط يرتكب جريمة الرياء المقوت .

أما الرجل الذي يبذل قصارى جهده في أداء عمله ويسخر

جسده لتنفيذ أفكاره وهو مع بذل ذلك المجهود لا يطمع في الأجر

والربح .

ذلك الرجل - أي أرجونا - رجل شريف

فقم بواجبك المقدور فالعمل أحسن من الجنوح للكسل

فلا حياة للجسد بغير السعى والعمل

ان هناك واجبا مقدسا تقوم به ذلك هو العمل اذا لم تتعلق

به النفس

انه يختلف عن العمل الذي يشوبه التعلق بالدنيا . انه لا يقيد

النفس المطمئنة فقم بذلك الواجب الديوى لا تبغ أجرا
ولا شكورا .

تقم بخير عمل تتقبله السماء .

ولسنا نجد ما نختم به درسنا هذا خيرا من كلمات هذا الشاعر
التي نقل بها الى الانجليزية تلك القطعة الخالدة التي منها قوله :

« أبدا .. لم تولد النفس أبدا ، ولن يأتى عليها وقت فيه تزول

لم يخل الزمان من وجودها فالبدء والنهاية أضغاث أحلام

لم تولد ولن تموت ولن تتغير انها باقية للأبد

لم يمسه الموت بيده وان لاح الموت بموت الجسد ، بيتها

الجسد . »

إذا استطعت ادراك روح هذه الكلمات وجعلتها جزءا من

وعيك فائك بغير حاجة الى المزيد من ايضاح (كارما يوجا) انك

عندئذ تحيا حياة صحيحة وتدرک الأشياء ادراكا سليما لا تنخدع

بمظهرها الذى يبدو من وراء حجب الوهم انك تدرک نفسك

وتعرفها فان تم لك ذلك وضح لك كل شىء .

ألا فلتكن هذه الكلمات وهذه الأفكار لك مصدر السلام .

الدوس السادس

جنانى يوجا

جنانى يوجا هى (يوجا الحكمة) فكلمة جنانى مشتقة من الأصل السنسكرىتى (جنا) ومعناه (يعرف) ونحن نفضل كلمة جنانى على الكلمات الأخرى المستعملة مثل (جنا) و (جنيانا) وغيرها لاداء نفس المعنى .

جنانى يوجا هى الطريق الذى يفضله أصحاب الاتجاه العقلى من الطلاب والفلاسفة رجالا ونساء . أولئك الذين يستهويهم أعمال الفكر والتعليل والبحث العقلى الرفيع (الميتافيزيقى) الذى يقره العلم لأن هذا الطريق يسير بهم بين معالم يحبونها وفى جو يشبع رغباتهم ويرضيهم .

ولكن ليس معنى هذا أن جنانى يوجا وقف على المشتغلين بالبحث من الميتافيزيقيين والطلاب المتعمقين فى العلم دون غيرهم ، انها فى متناول كل من يريد معرفة أسرار الحياة — أسبابها وهدفها — أولئك الذين لا يقنعون بما تقدمه عامة المذاهب والديانات عادة من شرح وتعليل فطير ساذج لمشكلات الحياة

العويصة أولئك الذين يرون في ظاهر التعاليم الدينية ما يحقق الأغراض التي وضعت لها ولكنهم لا يكتفون بظاهر الشرائع ، لا يقنعون الا بإدراك ما أضمرته تلك التعاليم وأخفته وراء ذلك الظاهر ضنا به على غير أهله وصونا له ممن لم يبلغوا مبلغ ادراكه انهم يريدون ما عند أهل الباطن من أسرار .

الكارما يوجى دائما يتساءل (كيف ؟ وماذا ؟) .

أما سؤال الجنانا يوجى فهو دائما (لماذا ؟) .

(لماذا ؟) هذا السؤال يتفشى ويزداد كل يوم تفشيا في عقول الناس لقد أقض مضاجع الكثيرين ذلك التعطش للمعرفة الصحيحة الروحية فانطلقوا يبحثون عما يروى ذلك العطش . ان جوع الروح يطلب للروح غذاء فيه غناء لا قشورا لا تسمن ولا تغنى من جوع . لقد بدأ الناس يرون زيف الماديات التي تملأ الدنيا حولهم مهما بلغت تلك الماديات من خطر وقدر موهوم . رأوا مدينة تقوم على أنقاض مدينة ، وشعوبا تنهض وترتفع ثم تضمحل وتعود الى الحضيض من جديد . وكم من آثار دفينه تحت أطباق الثرى تنم عن مدنيات رفيعة لا يذكر التاريخ عنها شيئا ولا يروى لها خبرا . ويأخذ الانسان العجب والدهش حين يغوص خياله في قديم الزمن ليصل الى أصحاب تلك المدنيات ويتخيلهم يملؤهم غرور الاعتقاد بأنهم بلغوا قمة المجد البشرى وانه لم يبق لمن يأتي بعدهم شيء

لم يعرفوه هم ثم راحوا لم يتركوا لمن جاء بعدهم خبرا أو ذكرا يتحدث به التاريخ ، وراح ساستهم وأبطالهم وعلمائهم الذين أرسوا دعائم مدنيتهم حتى ان الشعوب أصحاب تلك المدنية نفسها لا يعرف لها اسم ، كل ما يدل على وجودهم بقية تمثال هنا أو قطعة من عمود هناك . والناس اليوم يرون أن هذا المصير قد يدركهم ويدرك مدنيتهم وشعوبهم فيمضى كل شيء ويعفى الزمن على كل شيء ويأتى أقوام بمدنيات فى مكاننا وعلى أنقاض مدنياتنا التى تيه بها كبرا وعجبا فيتساءلون عنا . من كنا ؟ وماذا كانت مدنيتنا وكيف كانت ؟ .

لقد نشأت ديانات وازدهرت آمن بها الملايين يخضعون لها وتتحكم فيهم الى أن هوت تحت ثقل الخرافات وعبء الطقوس التى يأبى الانسان الا أن يشيدها فوق شعلة الحقيقة فيندفن ذلك الضياء الذى نشأت تلك الديانات على هداه ونوره تحت الاقراض هكذا كان الحال وهكذا سيكون . انا نشك وكذلك كان أصحاب تلك الديانات يشكون ونظن — كما كانوا يظنون — أن ما نحن فيه خالد لا يزول ولكن لا مفر فان الانسان فان وما عمله الانسان فان مثله ولا بد للفانى أن يزول (١) .

(١) تتخلف الآثار بعد بناتها حيناً ويدركها الفناء فتتبع (المتنبى) . (الترجم)

يفتح الانسان عينيه فيرى . يرى أن الحياة حوله الى زوال
فيفكر في أمره وأمر ما حوله فيسأل نفسه من أين أتيت؟!؟ والى
أين أمضى؟! وما حكمة وجودى! ويحاول أن يجد لهذه الأسئلة
جوابا وأن يجد لهذه الأحجية — أحجية الحياة — حلا وتفسيرا
وإذا بين يديه أجوبة وحلول بلا عدد أنه يرى فيما تسلمه من
الأجيال من عقائد فسادا فيلقيه ليجعل مكانها عقيدة جديدة هي
الأخرى تحمل في وريديها فناها .

ويدور الانسان وراء الحقيقة وإذا به في دورانه ينتهى حيث
بدأ كالطائر في القفص يضرب قضبانه برأسه وجناحيه وهو يظن
بين كل قضيبين مخرجا لا وجود له حتى يموت وهو بعد في قفصه
حين يلفظ النفس الأخير .

يحاول الانسان أن يجد تفسيرا للأشياء فإذا به لا يأتى بتفسير
جديد للشيء انما هو يأتى له باسم جديد . انه يتسلق الجبل ليصل
الى قمته التى يراها أمامه ولا يرى بعدها شيئا حتى اذا ما انتهى
الى تلك القمة وجد أنها ليست سوى نهاية مرتفع صغير على سفح
الجبل وان أمامه قمة أخرى يحسبها القمة الحقيقية فيشد الرحال
اليها فاذا بلغها وجدها كسابقتها ووجد من ورائها قمما تختفى في
السحاب .

ان خطأ الباحث عن الحقيقة أنه يبحث عنها دائما حوله فلا

يجدها لسبب بسيط هو أنها في داخله . الحق ان نور البصيرة
الداخلي يجد الانسان على ضوئه حقيقة الأشياء التي حوله ولكن
بغير هذا النور لا يمكن أن يدرك حقيقة تلك الأشياء وكيف يمكن
أن تظهر الحقائق في الظلام ؟ انها تبدو أشباحا بين الحقيقة وبينها
أمد بعيد .

ان الباحث في الأشياء من حوله على المستوى المادى يجد أثناء
بحثه ما يتخيله أنه الحقيقة التي ينقب عنها لأن فيما يخيل له وما
يتصور وجوده تبعا لعقليته جزءا من الحقيقة لا الحقيقة كلها
وتتعدد الصور التي يتخيلها الباحثون ويؤمن كل بأن ما وجدته هو
الصحيح وأن ما يدعيه الآخرون كذب وافتراء ، وهكذا تختلف
العقائد لاختلاف الصور التي وضعها الباحثون أساسا لمعتقداتهم
وتنشأ بين العقائد وأصحابها الخلافات وينتصر كل فريق لرأيه
وعقيدته ويختلف أصحاب العقيدة الواحدة فيما بينهم على التأويل
وتنشأ المذاهب في الدين الواحد ينتاحر أصحابها وطالب الحقيقة
يزداد حيرة ويزداد تشككا في كل شيء ويعود الى التساؤل من جديد
ولا يحسبن أحد أننا نريد مذاهب الغرب ودياناته بهذا
الحديث عن البلبلة والشك والاختلاف فالأمر في الشرق لا يقل
عنه في الغرب سوءا . ففي الهند مذاهب ونحل وطرق بلا عدد بدأ
كل منها على قبس أو قطعة من الحقيقة . ولكن تراكمت على ذلك

القيس أو تلك القطعة ترهات وخرافات وفرضت طقوس حتى
اختفى الحق ولم تبق بعد ذلك الا الخرافات ظاهرة لأصحاب
المذاهب فبعدت الشقة بينهم وبين ما جاء به أصحاب تلك المذاهب
من يقين .

هذا هو الحال في الشرق والغرب على السواء ولكن هنا وهناك
فتية ما زالوا يمسون بالمشعل يحفظون الشعلة ويحافظون على
ضوئها مهما خفت من الزوال ساهرين مثابرين لا يسمحون لأنفسهم
ولا لغيرهم أن يلقوا على الحق شيئا من باطل يأتون به .

انهم يقولون (ان لنا أن نعرض وأن نستمع الى فروض الغير
ولكن يجب أن تتورع عن أن نخلط افتراضاتنا بالحق الأبلج الذي
تسلمناه صافيا تقيا ، يجب ألا نخلط الجوهر الثمين بالخسيس من
المعادن) .

حقا أن الهند كانت مصدرا لكثير من الحقائق الروحية ، وكان
الشرق مهد الديانات الكبرى كلها ، والهند اليوم أنسب من الغرب
الصاحب للتفكير العميق ولكن ليس معنى هذا ان عامة الهنود
على شيء من الصفاء الروحي ، بالعكس ليس في بلاد العالم كلها
بلد تنمو الخرافة فيه وتزدهر كما تنمو في الهند لسبب بسيط
واضح وهو أن الظروف الملائمة للخرافة والبدع هي نفسها خير
الظروف لأعمق التفكير والبحث . ألسنت ترى أن تربة كاليفورنيا

مثلا تنمو فيها الفواكه والأزهار بما لا عهد لسائر أجزاء الولايات المتحدة به وأنها تثبت كذلك شر أنواع النباتات الطفيلية التي لا فائدة فيها والتي ان لم تستأصل تفسد على الزراع زرعهم . وكذلك في الهند ان لم يبذل الزارع فى استئصال هذه الطفيليات من مزرعته أضعاف ما يبذل من الجهد فى العناية بمحصوله وأشجاره تبتلع هذه الطفيليات المزرعة وتحيلها غابة برية لا أثر لمظاهر الحقل فيها .

ان فى الشرق آلهة مزيفة بلا عدد أوجدتها الخرافة وفى الغرب اله جديد لا يقل عن آلهة الشرق زيفا ، اله المادة والثروة الذى اجتل المعابد ، وبين هذا الاله الذهبى وآلهة الشرق شبه القربى وصلة النسب .

الجنانا يوجى يرى فى كل الديانات وفى كل الفلسفات حقا ولكن الحق فيها ليس سوى ذرة من الحق الأعظم الكامل . انه لا يعترض على دين أو فلسفة ولا ينسفه منها أحدا ، انه يتقدم بشيء واحد هو أن أى دين أو فلسفة ليس هو كل شيء وليست هى كل الحق . انه لا ينتمى الى دين أو مذهب لأنه يرى اتباع كل الديانات المختلفة اخوة له مهما اختلفوا . ان مذهبه يتسع لمعتقداتهم جميعا ولكنه يأبى أن يتقيد بقيود أى منها .

ان المشكلة الرئيسية فى كل دين هى أن كلا منها يجعل لله

حدودا وللدین قیودا ویتهم غیر أتباعه بالعصیان ویحکم علیهم
بالاقصاء والحرمان ، والجنانا یوجی لا یری لله حدودا ولا یرضی
بأن یرج من خلق الله أحدا عن نطاق رحمته .

سنوضح فی هذا الدرس تعالیم جنانا یوجا ونوضح أسسها
مجردة عن الخلافات الشكلیة بین مختلف مذاهبها التي تتفق علی
التعالیم الأساسیة وهذه التعالیم الأساسیة موجودة فی باطن تعالیم
كل الديانات محجوبة وراء الظواهر سلمها مؤسسو هذه الديانات
الی حواریهم بعد أن تلقوها بواسطة عقولهم الروحية (بوحي روح
القدس) وانما تحورت التعالیم قليلا فی كل جيل حتى لتكاد التعالیم
الأصلیة أن تختفی تماما لكثرة ما أضفی علیها من شروح .

فان شئت دلیلا ومثالا فاقراً (موعظة الجبل) التي يعرف
خفاياها ومغزاها رجال مدارس الصوفیة والروحانیون فی كل
الأديان ویعملون بها بينما یقول من یدعون أنهم أتباع المسيح ان
تعالیم هذه الموعظة غیر عملية ولا یمكن اتباعها أو العمل بها^(١) .

ان غیر المسيحيين یقتصرون علی عدم الايمان بها أما المسيحيون

(١) خذ مثلا قول المسيح فی هذه الموعظة « اذا اعترتك عينك
فاقلعها خير لك أن تدخل ملكوت السموات أعور من أن تلقى فی النار ،
واذا اعترتك قدمك فاقطعها خير لك أن تدخل ملكوت السموات وانت
اقطع من أن تلقى فی جهنم حيث النار التي لا تطفأ والدود الذي
لا يموت » .
(المترجم)

أتباع المسيح فانهم يحكمون عليها بأنها سخيفة ولا تصلح للناس ،
وهكذا الحال مع أتباع كل دين انهم يتمسكون بالدين اسما ولكن
لا يعملون بأوامره ولا ينتهون عن نواهيه ، انهم لا يعملون الا بما
يوافق هواهم من الشرائع والأحكام التي جاء بها الدين أو بدلا
من أن يجعلوا سيرتهم متفقة مع أوامر الدين يحورون هذه الأوامر
بما يتفق والسيرة التي يفضلون .

انا لا نذكر هذه المآخذ ناقدين متهمين مجرحين ولكننا
نذكرها كمثال فقط على الفارق بين ظاهر أوامر الدين وما تنطوى
عليه تلك الأوامر .

ان تعاليم الجنانا يوجا لا تتعارض مع هذا الذي تنطوى عليه
تعاليم الأديان الأخرى جميعا — مع باطن تلك الديانات — ويستطيع
كل انسان أن يظل على دينه الذي وجد نفسه عليه مع قبوله هذه
التعاليم والسير عليها بل ان قبول هذه التعاليم كفيلا بأن يظهر
الانسان على ما بطن من شريعته ويجعله أكثر تقديرا لسموها
والتزاماتها بينما يتمسك أبناء دينه بالقشور والشكليات ويجرون
وراء الألفاظ ناسين حقيقة معانيها . أما اللادينيون فانهم سيجدون
في هذه التعاليم الراحة الروحية التي كانوا محرومين منها ويجدون
عندما يصبحون من الراسخين فيها أنها تتفق والعقل والمنطق تمام
الاتفاق . كانوا يقولون بأن الطبيعة هي الخالق وأن لا وجود لله

فاذا وجدوا أن الله والطبيعة في جنانا يوجا شيء واحد سقطت
الغشاوة عن عيونهم وآمنوا بالله .

في هذا الدرس سنضع أمام القارئ أوليات الحقائق فقط
دون أن نحاول أن نرسم حدود فلسفة قائمة بذاتها . ستكون المادة
التي في هذا الدرس مفتاحا للفلسفات جميعا ولكل قارئ أن
يكون لنفسه فلسفته الخاصة التي يستسيغها حسب مزاجه وتكوين
عقله على أن يكون مفهوما وواضحا أن الفلسفة التي يكونها ما هي
الاقواعد للسير ولكن لا تتعارض مع الاتجاه الصحيح – الاتجاه
نحو الهدف . وعلى هذا الأساس نبدأ .

عندما نبحث معضلة الكون لا بد وأن نبدأ بالمبادئ الأولية ،
الأسس التي تقوم عليها كل الأشياء التي تدركها الحواس فتبدو
يقينية .

يقول الرجل العادي تخلصا من هذا البحث « ان الله وراء كل
شيء ولا سبيل لادراك الله » وهذا حق .

ولكن سله ماذا يرى في الله ؟ تجد لكل رجل رأيا ولكنهم
يجمعون على أن الله كائن خارج عن الكون وانه بطريقة أو أخرى
خلق كل شيء وكثيرون يقولون أنه بعد أن أتم عملية الخلق تركه
وشأنه ويجد الانسان في قوله (ان الله خلقه) حلا لكل مشكل ،

ولكن اذا لم نحلل معنى الالوهية هذا فاننا لا نستطيع أن نصل الى معرفة شىء عن طبيعة الكون ولا طبيعة الحياة .

ان العقل المحدود لا يدرك (غير المحدود) ولكنه يدرك قليلا منه بواسطة (العقل الروحى) وهذا القليل هو الذى يطلق عليه اليوجى اسم (الحقيقة) لا لأنه هو يعتقد ذلك ولكن لأن كل انسان يستطيع ادراك ذلك القليل مثله اذا سمح (للعقل الروحى) بأن يمسك زمامه .

ان مجرد الاقرار بهذه الحقيقة يكفى وحده لالهام من بلغ مرحلة الوعى بأنه حق وصدق . قد يسمو هذا الاقرار فوق مستوى القوة العاقلة ولكنها لا تنكره اذا تجردت من الخرافات التى وضعت فوقها فأثقلتها وحجبت النور عنها .

ينصح المعلم طالب جنانا يوجا عادة بأن يقوم بتدريبات عقلية وأن يلزم النظام ومراقبة النفس بحيث يكون الهدف أن يستطيع الانسان أن ينحى عن عقله ما يثقله من آراء ومعتقدات لقنها تلقينا منذ طفولته بدون أن يسمح له بمناقشتها فبقيت ثابتة فى العقل مسيطرة عليه .

تقول ينحى عن عقله ولا تقول ينهى عن عقله الى غير رجعة ،
ينحيتها فقط فاذا وجد فى نفسه حاجة اليها استعادها من جديد ،
ولكن لا بد من تنحيتها حتى يستطيع العقل أن يبحث ويتدبر ما يلقى

اليه بدون عقبة قائمة ناشئة عن تأثير العقل بما يسيطر عليه من قديم ، وحتى لا يختلط ذلك القديم وما يحوى من شكليات بالجواهر الذى سيلقى اليه لأن اليوجى يرى أن العقل اذا تجرد مما ألفه وقد نضج لتقبل الحق يعرف الحق بمجرد أن يعرض عليه لأنه يميز بفطرته النفيس من الخسيس من المعادن .

ونحن لانريد أن يقوم الطالب الآن بتلك التدريبات التى يصر اليوجى على العمل بها بادىء ذى بدء ولكننا نكتفى بأن ينحى الطالب عن نفسه مؤقتا سابق معتقده وأن لا يتقيد به وأن ينظر فيما نقوله نظرة غير متأثرة بسابق رأى مقطوع بصحته فان لم يرقه ما نقوله فما عليه الا أن يتركه ويعود لما كان فيه ولا ضرر عليه . انه غير مستعد له فى وقته هذا اما اذا استساغه ورأى فيه أنه ملاً فراغا فى نفسه لم يجد قبل اليوم شيئا يشغله فهو اذن مستعد و (الحقيقة) أصبحت ملكا له .

يظن الكثيرون أن جنانا يوجا ترى رأى أصحاب وحدة الوجود وأنها شكل من أشكال عقيدتهم ولكن جنانا يوجا أكثر من وحدة الوجود بكثير .

نظرية وحدة الوجود تقول ان الله هو كل شيء تدركه الحواس كل ما ينظر ويسمع ويلمس ويشم ويذاق أى أن الكون كما نراه هو الله .

جنانا يوجا تقول ان هذا نصف الحقيقة فقط . انها تقول ان ما تدركه الحواس (بما فيه ما ترصده أقوى التلسكوبات وما تراه أقوى الميكروسكوبات وما تسجله أدق آلات التسجيل) جزء متناه في الضآلة والصغر من الكون واننا اذا قلنا هذا الكون هو الله فاننا اذن نكون كمن يقول ان قلامة الظفر هي الانسان .

جنانا يوجا ليس في تعاليمها أن الكون هو الله ولكنها تقول ان الله يتجلى في كل ما يشمله هذا الكون وفي ملايين أكثر منه انها تقرر أن الفكرة الصحيحة عن الله أجل وأسمى من أن يدركها البشر بل ومن هم أسمى من البشر من خلق الله حتى تلك الكائنات التي يعلو نوعها النوع البشرى في سلم الوجود بمثل ما يعلو النوع البشرى أتفه الحشرات .

وتقرر جنانا يوجا أن الانسان يستطيع أن ينمو عقله لدرجة تمكنه من ادراك أن الله في كل الحياة ويمكن القول بأن خلاصة التعاليم اجمالا هي أن الله حاضر في كل شيء ظهر أو خفى خلق أو لم يخلق عرف أو لم يعرف ، والفرق واضح بين هذا وبين القول بأن الله هو العالم — قول أصحاب مذهب وحدة الوجود كما أن الفرق واضح أيضا بينه وبين من يقولون ان الله كائن بعيد عن الكون .

ان جنانا يوجا لا تتحدث عن الخلق وانما تتحدث عن التجلى

انها لا تقول ان الأشياء مخلوقات صنعها الله ولكنها تقول انها
مظاهر تجلى قدرة الله .

من العسير على الطالب الذى تعود المعنى المألوف لكلمة الله أن
يدرك نظرية جنانا يوجا عن الاله ، انه متأثر بصورة الاله رجلا أو
شيئا ينظر ويسمع ويعضب ويرضى وغير ذلك مما يتصف به البشر ،
هذه الصورة التى ترجع الى عهد طفولة الجنس البشرى والتى
انمحت من عقول المفكرين منذ أمد بعيد اذ لا تتفق هذه النزوات
مع مصادر الحياة ومبدع الخلق وان كانت لا تنفى أن يكون لله
الصفات العليا كالرحمة الشاملة والحب العميم وغيرهما مما يقوم
عليه الكون (١) .

تبدأ جنانا يوجا بهذه الحقيقة « ان الله موجود » وهى لا تدعى
أنها تستطيع أن تفسر للعقل البشرى ما يتساءل عنه كيف هو وماذا
هو ولماذا هو وتجييب على كل من هذه الأسئلة اجابة واحدة ، انه

(١) هنا ثلاثة وعشرون سطرا تحدث فيها المؤلف عن قصور كلمة
(God) الله عن التعبير عن فكرة الالهية فى رأى جنانا يوجا ولذلك
فانه يقول للمقارئ انه سيستعمل كلمة (Absolute) - المطلق -
عند الحديث عن الله منعا للبس الذى ينشأ وسبب ذلك أن الهند تعرف
آلهة كثيرة مركزهم كمركز الملائكة عندنا . أما كلمة الله فى العربية
فهى تفهم على الوجه الذى يريده المؤلف ولذلك سنستعمل فى الترجمة
كلمة الله بدلا من المطلق . (المترجم)

موجود ، فان قيل كيف يوجد شيء بلا موجود أجابت ان العلة والمعلول شيء خاص بهذا المستوى المحدود الذي يوجد عليه الناس حيث يريدون أن يعرفوا لكل معلول علة ولكل نتيجة سببا ولكن الله فوق هذا المستوى وليست تعوز وجوده علة .

اننا على هذا المستوى من الوجود تفكر على أساس أن كل شيء حولنا نتيجة لسبب وأنه بدوره سبب لشيء آخر يكون نتيجة له . ان كل شيء نراه ونسمعه ونلمسه حلقة في سلسلة أسباب وتنتج أى أن الشيء سبقت وجوده سلسلة من الأسباب ترجع الى الماضى .. الى أين ؟ وان له سلسلة من النتائج تمتد في المستقبل .. الى أين ؟ وتجب الجنانا يوجا على السؤالين بقولها (الى الله) كل شيء من الله بدايته والى الله نهايته . اننا نستطيع أن نتبع سلسلة الأسباب فى الماضى حتى يكف العقل عن التفكير عجزا عنه . واننا نستطيع أن نتبع سلسلة النتائج فى المستقبل حتى يعجز العقل كذلك فيقف ويكف عن التفكير .

ويعجز العقل لأن المستوى الذى نحن عليه كما أسلفنا القول يستوجب لكل شيء سببا لأنه مستوى النسبية ولا يوجد عليه شيء مطلق فالظلام نسبي والبرد نسبي والقوة والضعف كل منهما نسبي ولذلك فلا سبيل للعقل يدرك به شيئا لا ينسبه الى شيء .
الفلاسفة الذين يقولون بأن كل معلول لا بد له من علة يقابلهم

فرضان لا بد أن يسلموا بأحدهما وبأيهما سلموا تنهار نظريتهم هذه
والفرضان هما :

١ — اما أن يسلموا بأن للوجود علة أولى وان علة الوجود
هذه لا علة لها .

٢ — أو أن يسلموا بأن سلسلة العلل تمتد في الماضي الى
ملا بداية وأن العلة التي لا بداية لها ليست بحاجة الى علة وبذلك
يكون القانون الذي يريدون اقامته من أن لكل معلول علة
لا وجود له .

واذن فالعقل البشرى عاجز عن حل هذه المعضلة وعن الاجابة
عن السؤال (من أين ؟) و (الى أين ؟) وكلما أمعن في محاولة ايجاد
الحل والجواب زاد امعانا في الحيرة والغرق في المعضلة الى غير قرار
ونعود الى سؤال الطفل من خلق الدنيا ؟ الله ! ومن خلق الله ؟

وكذلك الماديون الذين يقولون انهم لا يؤمنون بالله ويقولون
ان المادة موجودة منذ الأزل لا موجد لها ولا علة يحارون نفس
الحيرة عندما يرون لكل معلول علة فان سئلوا عن علة المادة قالوا
لا علة لها وسبب حيرة الماديين أنهم يسلمون بوجود مظهر من مظاهر
الله هو المادة وينكرون مظهر آخر هو الذي يسميه الانسان
العقل .

وأخيرا تضطر القوة العاقلة أن تعترف بأن هناك شيئا لا علة له،
وبذلك تعلن هزيمتها وعجزها ، وهي عاجزة لأنها موجودة على

مستوى النسبية ولا قبل لها بأن تدرك الا ما على هذا المستوى
والله محيط بالمستويات جميعا .

يقول الیوجيون ان الله هو العلة التي لا علة لها – العلة الأولى
ويقررون أنه موجود فحسب ولا بد للطالب أن يستقر هذا في
ادراكه بادیء ذی بدء وقبل أن يخطو أول خطوة ولا بد أن يكف
عن كل محاولة لوصفه أو معرفة ذاته باع انه يجب عليه أن يكف عن
التفكير حتى في اطلاق اسم عليه ولكن لا بد وأن يسلم بوجوده
تسلیما وليترك الأسماء التي سماه بها الناس هم وآباؤهم من قبلهم
أيا كانت الأسماء (الله أو المادة أو الطبيعة أو العقل أو غيرها) عليه
أن يؤمن بوجود الله مطلقا من كل قيد مجردا عن كل شكل .
منه كل شيء ، وبه كل شيء ، واليه كل شيء ، وهو في غير حاجة
الى شيء .

وسعت رحمته وقدرته وعظمته كل شيء وهو يتجلى في كل
شيء .

الخطوة الثانية أن يقتنع بالحقيقة التالية : كل ما هو موجود
ما يرى وما لا يرى انما هو مظهر لله أو منبثق عنه ، اذ لا يمكن أن
يكون شيء خارجا عن الله أو ليس منبثقا عنه ، فما من شيء عنه
خارج كل شيء لا بد قد أتى من المنبع الوحيد وان الله اذ يصنع شيئا
فمن محض قدرته يصنعه ، هذا على الأقل كل ما تستطيع قوتنا العاقلة
أن تدركه . لا يمكن أن يكون في العالم الهان ولا قديمان لا أول

لهما . اله واحد أو قديم واحد لا ثانى له ومن هذا القديم كل شيء
خرج بإرادته ومشيئته لا من شيء آخر كان موجودا معه بلا سبب
مثله .

واليكم شعرا لا يعرف شاعره ولكنه يعبر عن حقيقة عظمى
بكلمات بسيطة :

« أنت الله العظيم الأبدى الكل الواسع بغير حد . »

« الكون جسمك والنفس من روحك . »

فان كنت أنت ملء اللانهاية وان كنت أنت الكل فى الكل .

وان كنت موجودا قبلى فأنا لست موجودا على الاطلاق .

اذ كيف أعيش خارجك . أنت تملأ الأرض والسماء .

فليس لى حيز خال فأشغله فى أى مكان .

ان كنت أنت الله وأنت ملء كل المكان .

فأنا من الله ، تصورها كما تشاء ، والا فليس لى مكان .

وان لم يكن لى مكان وان لم أكن أنا هنا .

منفى ! لا يمكن أن أكون والا كنت فى مكان ما .

واذن فأنا جزء من الله لا يهم مهما كنت صغيرا .

فان لم أكن جزءا من الله فلا وجود اذن لهذا الله .

الخطوة الثالثة التي على الطالب أن يتخذها هي أن يدرك أن
الله له الصفات التالية :

١ - القدرة .

٢ - العلم بكل شيء .

٣ - الحضور والتجلى في كل مكان .

وليس على الطالب أن يقبل هذه الحقيقة قضية مسلما بها بل
لابد له من فهمها :

١ - القدرة : معناها أنه قوى قدير لا بمعنى أنه أقوى من
شيء بذاته أو أقوى من كل الأشياء مجتمعة ولكن بمعنى أن كل
ما في الوجود من قوة هي قوته ليس لأحد ولا لشيء قوة خاصة به
مستقلة عن قوة الله منفصلة عنها يتصرف فيها ويستخدمها متى شاء
إذا شاء فيما شاء ، وأن كل ما ندرك من قوة إنما هي قوته ، بل إن
قوة ادراكنا هي من قوته فلا مكان لقوة غير قوته .

كثيرون يتكلمون عن قوة الله يتكلمون عن إله قوى قدير
ولكنهم يدركون ذلك ادراكا يشوبه الغموض الشديد يتحاشون
أن يفكروا في حقيقة هذا الإدراك وما يترتب على قبول القول بأن
القوة كلها قوة الله . انهم ينسبون إلى الله كل مظاهر القوة والقدرة
التي يرون فيها مصدرا لما يسرههم ويسمونونه الخير ، أما ما يصدر

عن هذه القوة ويؤذيهم أو يبدو لهم قسوة وشرافانهم يخافون أن ينسبوه الى قوة الله : الى الله وهم اما أن يروغوا عن الاجابة أو ينسبوا هذا الشر الى قوة أخرى كالشيطان مثلا ناسين أنه ان كانت كل قوة قوة الله فكل ما في الوجود من قوة من خير أو شر (وهذان نسيان) فمصدرها هو الله وغاية الأمر وعلّة المشكلة كامنة وراء رأى الانسان فى الخير والشر ، فهو يرى كل ما يأتية بفائدة تسره خيرا ، وكل ما يعترض هذا الخير ويعكر هذا السرور شرا . (فالطقس الجميل مثلا هو الذى يسر الانسان والطقس الردىء هو الذى لا يسره ، ولو كان الانسان مجردا من الجسد الذى يحس بالطقس لاستوى لديه الطقس الجميل والرديء) .

٢ - الحضور والتجلى فى كل مكان (١) :

يراد بذلك أن الله فى كل مكان فى نفس الوقت . ان الله يملأ المكان كله كما نعرفه وكما لا يبلغه ادراكنا انه فى كل مكان وهنا أمر لاتدركه القوة العاقلة من غير أن تساعدها قوة على ادراكه — المكان — انها لا تستطيع أن تدرك وجود مكان بلا حدود كما أنها لم تستطع أن تدرك حدود المكان أو تتصور ما وراء المكان .

(١) فى الترتيب فى الصفحة السابقة وضع المؤلف العلم بكل شىء (٢) ولكنه فى التعليق جعل الحضور والتجلى فى كل مكان (٢) وقد ذكرنا هذا حتى لا يظن القارىء بالمرجم الظنون . (المترجم)

انها عاجزة عن تصور مكان لا نهاية له وهي عاجزة عن تصور مكان له نهاية — والا كانت بعد نهاية المكان أمام مكان جديد ولا تدرك زمانا له نهاية ولا زمانا لا نهاية له .

لنعد الى موضوعنا — وجود الله في كل مكان — ونحن لا نتصور امكان غير ذلك لأن الله لا بد أن يكون في كل مكان في كل وقت ، في الفضاء والناس والذرات (١) ، في المادة وفي العقل وفي الروح . فان لم يكن موجودا في أية نقطة أو في أصغر ذرة فانه اذن غير موجود في كل مكان وتكون الحقيقة التي قررناها باطلة . وان كان موجودا في كل نقطة فلا مكان لغيره اذن : فان صح ذلك فان كل شيء وكل نقطة تكون جزءا من الله أو مظهرا له أو منبثقة عنه . وكل شيء يجب أن يكون جزءا من الكل الأعظم الواحد الذي لا يوجد غيره .

يتشدد الكثيرون بأن الله موجود في كل مكان ويلقن ذلك كل طفل في العالم الغربي ولكن ما أقل الذين يقفون أمام هذه العبارة يتدبرون معنى أن الله موجود اذن في الأماكن المنحطة والعليا في الأماكن القذرة الدنسة والأماكن النظيفة الطاهرة . انهم لا يدركون أنهم بقولهم ان الله في كل مكان يقولون ان كل مكان لا بد وأن

(١) ان صعدت الى السماء فأنت هناك وان هبطت الى الجحيم فأنت هناك أيضا (من مزامير داود) المترجم

يحتوى على الله ويجب في الحقيقة أن يكون ذلك المكان مكانا لظهور الله ، لتجلى الله .

ان هذه الكلمات التى يستعملونها بغير اكتراث وبغير اهتمام تحمل معنى ناييا كريها ولسنا نريد أن يقبل الطالب القول بأن الله موجود في كل مكان بغير فحص ولا تمحيص ولا يتسع المقام هنا لبحث الموضوع بحثا مستفيضا شاملا لكل وجه من وجوهه . ولكن العلم الحديث ملئ بالنظريات التى تثبت أنه ليس في الوجود إلا مادة واحدة وأن هذه المادة تشغل كل مكان كما يقرر العلم أن ليس في الوجود سوى طاقة واحدة تظهر بمظاهر وأشكال متعددة . صحيح أن العلم وصل الى هذه النتيجة بطرق البحث المادية ولكن هذه النتيجة هى نفس ما تمسك بها الجنانى يوجيون منذ قرون ، تلقوها عن معلمين يرجع تاريخهم الى وقت موغل في القدم . والديانات الأصيلة تؤيد نفس الحقائق — قدرة الله على كل شيء وجوده في كل مكان .

٣ -- العلم بكل شيء .

ان الله حكيم بكل شيء عليم ، انه يعلم كل شيء وان له العلم كانه وان ليس من شيء يخفى عليه وان لديه علم كل ما كان وما هو كائن وما سيكون فان فرضنا أن هناك مثقال ذرة تغيب عن علمه أو لا يستطيع أن يسعها علمه ، فالقول بأنه بكل شيء عليم اذن

لا يصح . وان كان يعلم كل شيء فلا يمكن أن يخطيء ولا يجوز أن يغير شيئاً ولا أن يغير فكره في شيء وانه لا يفكر الا عن علم ولذلك فكل قضاء يقضى به حكمة وعدل .

ولكن يبدو أن بعض الناس يرون فيه غير ذلك يرون أنه يخطيء أو أنه لا يعلم كل شيء عن كل شيء ولذلك فانهم يرون من الضروري الواجب عليهم أن ينبهوه سبحانه الى أمور لم يعرها اتبأهه أو الى أخطاء ارتكبها ويرجونه أن يكون لهم أكثر رعاية في المستقبل ، يحسبون أنهم على مداهنته وتملقه وخذاعه قادرين .
يا للأطفال المساكين !!

ان الطالب يستطيع أن يدرك حقيقة علم الله بكل شيء اذا أجال البصر حوله وفكر قليلا . ان لم يكن عند الله العلم جميعا فمن أين يأتي العلم ؟ ليس من غير الله ، هذا لاشك فيه فليس في الوجود غير الله حتى يأتي العلم من ذلك الغير .

أليس المعقول أن العلم موجود دائما وان ما يأتي من العلم انما هو بقدر تفتح عقلنا لاستقبال العلم أو بقدر ما يتسع لما يفيض عليه من نور .

على أى حال من العبث التطلع الى مصدر للعلم غير الله ، اذ لا وجود لغير الله حتى يأتي العلم منه .

يقول الجنائي يوجيئون ان الله قوى قدير عليم حكيم وهو ملء

السموات والأرض — فى كل مكان — ان له القوة جميعا ، كل ما فى الوجود من قوة ، وان له كل ما فى الوجود من علم وأنه فى كل ما فى الوجود من مكان وفى كل ما فى المكان من كائن ان كان كائن فى مكان وانه فى كل مكان وفى كل شىء فى كل وقت وفى نفس الوقت .

انهم يقولون ان الله مجردا من الصفات لا يمكن للعقل البشرى فى حالته الراهنة ادراكه ، ولذلك فانه سبحانه يتجلى فى صفات ثلاث يمكن العقل البشرى حتى فى حالته هذه ادراكه بها ولو ادراكا جزئيا .

وهذه الصفات التى يتجلى بها أو يظهر فيها هى المادة والطاقة أى القوة والعقل .

أما ما يعرفه اليوجيون بأنه الروح فهو مظهر أعلى وليس من هذه المظاهر الثلاثة وقد قال البعض أن الروح عقل فى أسى درجة من درجات الصفاء ولكن الروح أكثر من ذلك . انها شىء من الله لا تدرکه الحواس وسنعالج الصفات الثلاث فى هذا الدرس على أنها مظاهر تجلى الله .

اننا نوجه نظر الطالب الى ما بين المظاهر الثلاثة والصفات الثلاث السالفة الذكر من علاقة .

١ — فصفة الحضور في كل مكان تتجلى في المادة .

٢ — وصفة القدرة على كل شيء تتجلى في الطاقة .

٣ — وصفة العلم بكل شيء تتجلى في العقل .

نحن لا نريد أن نفهم من قولنا هذا أن هذه الصفات التي يتجلى فيها الله هي الله بل انها مظاهر قدرته ، انها اشراقات نوره (انه من العسير أن نجد الكلمات التي تحمل المعنى المقصود بالدقة الدقيقة الكافية) .

ان الله لا يمكن أن يرى ، أن تدرك ذاته بفكر الانسان ، ولذلك فلا بد للعقل أن يمسك بصفة أو أكثر ليستطيع أن يكون الفكر أو يدرك الفكرة .

فاذا فكرنا في الله على أنه العليم فكرنا في العقل ، ذلك المظهر من مظاهر قدرته . واذا فكرنا في الله على أنه الخالق المبدع فكرنا في القدرة التي هي مظهر له .

واذا فكرنا في الله على أنه موجود في كل مكان فكرنا في المادة بصورة من صورها المتناهية في اللطف كالأثير الذي لا يرى ولكنه مادة على أي حال تتجلى فيها قدرة الله .

انه من العسير على الرجل المتدين التقى أن يتصور الله ظاهرا في القدرة أو المادة أنه يتصوره صانعا للمادة أو مستخدما اياها ولكنه لا يستسيغ أن الله يتجلى في المادة ولكن جنانا يوجا تساعده

على أن يرى قدرة الله في كل شيء حوله وفي كل مكان (ان رفعت حجرا وجدتنى وان شقت شجرة فأنا هناك أيضا) .

ومن ناحية أخرى لا يجد المادى من السهل عليه أن يقبل التسليم بأن الطاقة والعقل مظهران من مظاهر الله والا كان مسلما بأن الهه (المادة) شيء قريب الشبه من اله المتدين الذى ينكر هو وجوده . ولكن جنانا يوجا توفق بين هذين الأخوين (المتدين والمادى) اذ تقول لهما انهما كانا ينظران الى شيء واحد من ناحيتين متقابلتين فاختلف حكم كل منهما عن حكم الآخر .

قد يقول رجل العلم ان العقل ليس مظهرا مستقلا من مظاهر الله وانما هو من نتاج المادة وأثر من آثارها واليوجى يرى العقل مائلا في كل شيء من أصغر ذرة من ذرات المعادن الى الانسان وان تفاوتت درجاته .

انه يدرك أن أقل ذرة تملك ذكاء باطنا يجعلها قادرة على أن تعمل ما يعجز العقل البشرى عن معرفة كيفية عمله . وأن أقل نرع من أنواع النبات فيه ذكاء غير محدود يعمل بواسطته ما لا يستطيع الانسان بعقله مهما سما أن يعمل شيئا مثله .

ان الله يتجلى في أدق ورقة من أوراق النبات على ثلاث صور ، المادة أو الجسم والقدرة أو الطاقة والتدبير أو العقل .

يستطيع الانسان أن يجمع عناصر بذرة ما من بذور النبات من المواد التى حوله ويكون منها بذرة صناعية تشبهها تماما ويستطيع

أن يحيط تلك البذرة بالتربة الصالحة لنموها ويهيئ لها ظروف النمو ولكنها رغم ذلك لا تنبت ولا تنمو انها تنقصها القدرة على النمو والتدبير الذى يرتب عمل القدرة على النمو وينظمها ، انها تحتاج الى العقل الذى تعجز قدرة الانسان عن أن تصنعه أو أن تهبه للبذرة التى صنعها .

كل ذرة فى بذرة النبات تحوى فى نفسها العقل الكامن الذى يعمل على تنشئ النبات من البذرة وبنفس الطريقة تتكون أجسادنا. ان فى كل شئ قدر من العقل العام المطلق يناسب حياته ويفى بحاجاته والعقل العام يصدر عن الله وينبثق عنه . أيجسب الانسان أن قوته العاقلة المفكرة الواعية تمثل أعلى درجات العقل فى الوجود؟ هراء ما يجسب ! .

ما على الانسان الا أن ينظر حوله ويتدبر فى كل شئ وفى صنع كل شئ من كل شئ والوسائل التى تؤدى الى نتائجها المحتومة ليجد نظام الكون وكيف تتداخل الأشياء وتندمج أطرافها بعضها فى أطراف بعض لتتكون موجة الخلق وموكب الابداع . انه لا يستطيع بعقله أن يعمل مثل هذا الذى يتم حوله والذى كان يحدث قبل أن يظهر الجنس البشرى على الأرض . ان قوة عاقلة لا تقاس بها قوة عقل الانسان تدبر شئون الحياة ، يستطيع الطالب أن يحسها حوله فى كل شئ ان هو فحص حبة قمح أو عين أرنب فتكشف له عجائب الاعداد والخلق والابداع .

ومن كان في شك فليرقب خلية نحل كما فعل صديق لنا كان
مفكرا ملحدا حتى اشتغل بتربية النحل ففتتح عقله فقال انه وهو
يرقب حياة النحل والعمل في الخلية يحس شيئا هاتفا في نفسه
(الهى انى الآن أقرب اليك) .

ان ذكاء الانسان ثابت لا يزيد ولكن الذى يزيد فيه هو قدرته
على تقبل المزيد من علم العليم الحكيم مصدر كل علم . انه يتقبل
من ذلك النبع ما يتسع له عقله فان الله لا يضع كيلة في صاع . ان
رجلا من أهل المستوى الثالث لا يستطيع أن يدرك ما يدركه عقل
رجل من المستوى السابع .

وشىء آخر ، كلما تقدمت النفس وتفتحت استطاعت أن تتقبل
نصيبا أكبر من كل من صفات الله الثلاثة .

١ — انها تستطيع أن تعلم أكثر .

٢ — انها تصبح أقوى .

٣ — انها تتسلط على المكان والمادة .

كلما تفتحت النفس ساعدت على نيل حصة أكبر من علم الله
ومن قوة الله ومن قدرته على الوجود في كل مكان .

ولن نتحدث في هذا الدرس عن واجبنا لله وعن التصرف
الواجب علينا نحوه سبحانه وموقفنا منه فان موضع هذا الحديث

في (بهاكتي يوجا) في الدرس القادم أما هذا الدرس فقاصر على جانب علمنا بالله (جنانا يوجا) .

وهنا نرى لزاما علينا أن نحذر الطلاب من خطأ شائع بين طلاب الفلسفة الشرقية ويشاركونهم فيه بعض الأستاذين ، نريد بذلك الفهم الصحيح (أو بعبارة أصح عدم الفهم الصحيح) للعلاقة بين المصدر والصادر عنه ، فالإنسان وان كان من الله الا أنه ليس الها وهو وان كان مظهرا للخالق فانه ليس الخالق نفسه انما هو التعبير المحدود لغير المحدود .

نشاهد هنودا وغير هنود من طلاب التعاليم الهندية يطوفون مهلين صائحين (أنا الله) لقد غلبهم على أمرهم وسلبهم ليهم ذلك الوعي الذي أشرق عليهم فرأوا وحدة الكل وبهرتهم صلتهم بالله وقربهم اليه فاختلط عليهم الأمر فظنوا أنهم كالله أو أنهم هم الله نفسه (١) .

وللغريب عن هذه التعاليم أن يرتاع لهذه الجرأة على الله التي توصف بالكفر والمروق وأن ينفر من هذا القول وينقبض له صدره . ان هذا شر تحريف للتعاليم عن مواضعها وشر انزلاق بها الى مهاوى الضلال وظلمات الجهل ، ونحن نحذر الطلاب من الوقوع

(١) لعل الحلاج يمكن فهمه على ضوء هذا القول فيزول ما حوله من لبس ولغظ .
(المترجم)

في هذا الاثم مهما سما مصدر هذا التحريف والتحول في التعاليم
ومهما أحيط بمظاهر الحكمة والعلم .

ان الراسخين في العلم من أساتذة الهند لا يقعون في هذا
الخطأ ولكن بعض أتباعهم ينزلقون الى مهاويه . وقد حاول بعض
كبار الأساتذة الهند أن ينقلوا الفلسفة الهندية والأفكار التي
تدور حولها الى اللغة الانجليزية وكان من جراء عدم اتساع
الكلمات الانجليزية لتحمل كل معنى الكلمات الهندية اذ أنها تارة
تحمل معنى أوسع وتارة معنى أضيق مما تؤديه الكلمة
السنسكريتية . كان من جراء ذلك أن عجزت التعبيرات الانجليزية
عن تمييز ظلال الحقيقة بعضها من بعض تمييزا دقيقا مما ترتب
عليه ذبوع آراء غير مطابقة تماما للآراء والأفكار الحقيقية وسقطت
المذاهب التي ابتكرها بعض الانجليز والأمريكيين في هذه الهوة
مما جعل أتباع تلك المذاهب يجرحون شعور الناس من حولهم
بادعاء كل منهم أنه الله سبحانه فاذا استطعنا أن نقتلع هذا الرجس
من قلوب من وقعوا فيه فان هذا الدرس يكون اذن قد حقق
أسمى غرض .

ان أساس تعاليم جناني يوجا هو هذا .

كل الوجود ظاهره وباطنه صادر عن الواحد الأحد .

تدبر كلمة (صادر) انها مفتاح القضية وبها يمكن فتح

مغاليقها ، صادر يعنى خارج من مصدر أو تابع من منبع . ولتتمثل
بالشمس فهى المثل المفضل عند اليوجيين .

الشمس مصدر الاشعاعات والذبذبات التى تصل الينا فنتميزها
نورا وحرارة فاذا دققنا فى استعمال الألفاظ لم نذكر كلمة الشمس
الا اذا قصدنا ذلك الجرم السماوى البعيد فى الفضاء ، ولكن كل
شعاع وكل ذبذبة صادرة عن الشمس هى فى الواقع جزء منها
وشعاع نبصر به وكل حرارة نحسها هى الشمس ولكنها ليست
شمس الشمس — ألا نقول اخرج الى الشمس وخذ عن الشمس
تعنى شعاعها وحرارتها .

ويقول وليام لويدي فى كتابه (فجر الفكر Dawn of Thought)
« اذا لمسنا طرف ظفر الرجل نلمس الرجل ولكن ليس كما نلمس
منه نهاية أحد الأعصاب ولمس نهاية العصب يختلف عن لمس المخ » .

وعلى قدر المخلوق يكون مقدار الحياة الكامنة والسر الالهى
فيه . الحياة والعقل موجودان فى كل كائن وكل مكان ، ولكن ليس
مظهرهما فى كل مكان وكل كائن بدرجة واحدة . هناك خلاف بين
المخلوقات فى الوعى كما تختلف مواضع الوعى والارادة والاحساس
فى جسد الرجل الواحد فبينما تزداد فى جزء من الجسد نجدتها
تقل فى الأجزاء الأخرى تبعا لقربها من المركز الرئيسى . ودرجة
اتصالها به . كذلك الحال مع أصل الوجود ومصدر الحياة والقوة

والعقل ! فقد يكون من الخلق من يقترب أو ما يقترب منه فيكون نصيبه من قوته وآثاره ما يجعله أقرب اليه وأشبه به وقوته من غيره من الخلق ويتدرج الشبه في القوة والعقل مع البعد عن مصدر القوة والعقل .

انا نذكر هذه الأمثال والآراء حتى نضع أمام الطالب عدة صور للفكرة نفسها ملونة بألوان تفكير أصحابها ، فان البعض يتأثر بالصورة الواحدة أكثر من البعض الآخر ، والبعض يرى الحقيقة ماثلة في مثال بينما لا يرى البعض الآخر في المثال نفسه شيئا من الحقيقة .

نحن مثلا نفضل مثل الشمس - جرمها والأشعة الصادرة عنها - لأننا نراه أقرب لعقيدة الجنائي يوجين من غيره ولكن أهدي الأمثال للطالب هو أحسنها عنده وأفضلها لديه وله .

كان أحد المعلمين يقدم للطلاب وردة يتضوع شذاها ويقول لهم ان الذرات التي تحمل الى الأنوف ريح الوردة ولو أنها من الوردة الا أنها ليست الوردة نفسها انها منها ولكن ليست هي .

نظن أننا قد نلينا فكرة الجنائي يوجا من ناحية واحدة وسنتناول بعض نواحيها الأخرى في الدروس القادمة .

سيكون درسنا القادم عن بهاكتي يوجا - فلسفة التقوى وحب الله ، الاخلاص والعبادة - وهو القسم المناسب لأن يلي

الموضوع الذى تحدثنا عنه ، فهو يصف العلاقة بين الانسان والله ،
ويقرر أن الانسان يحيا فى الله ويعيش فى الله وكل كيانه قائم بالله .

لن يكون الدرس موعظة كالمواعظ ولو أن بهاكتى يوجا
تتقدم بنفسها الى القلب لا الى العقل الا أنها تسير العقل والمنطق
ولا تتعارض معهما .

ان فلسفة اليوجا تستجيب لحاجات الانسان جميعا بعضها
لفريق من الناس وبعضها الآخر لفريق آخر ولكنها كلها تصلح
للجميع فلا تهمل جانبا لأنك تفضل الجانب الآخر انك ستجد فى
كل جانب ما ينفعك .

وأخيرا نود أن نوجه انتباهك الى حقيقة هى أن الكون ليس
جمادا لا روح فيه ، انه حى ينبض بالحياة والقوة والعقل . انه
كائن حى وأنت جزء منه ، من كله .

انك لست الله ولكنك ذرة فى شعاع من أشعة نوره تتجلى
فيك قدرته .

انك على اتصال بالمركز والمركز يعرفك ويعرف صلتك به
وصلته بك .

انك وان كنت ذرة الا أنك جزء من الكل ضرورى للكل
لا غنى له عنك انك منه فلا يضرك شيء ولا يدمرك شيء .

انك تزداد معرفة له وتزداد شعورا باتحادك معه شعورا ليس
نتيجة التفكير العقلى وحده . انه يقين ، عين اليقين .

ليكن السلام معك !!

الدرس السابع

بهاكتى يوجا

(طريق الاخلاص والعبادة)

ذكرنا فى الدروس السابقة أن فلسفة اليوجا تنقسم الى عدة فروع أو طرق يتفق كل منها وحاجات طائفة من الناس واستعدادهم وأن طرقها كلها مع ذلك تؤدي الى غاية واحدة هى التقدم والسمو واشراق الروح . فالرجل الذى يريد أن ينمو ويصل بقوة ارادته أى بضغط العقل على الحجب التى تكتنف الروح حتى تنحسر عنها ينجذب نحو الراجا يوجا ، والرجل الذى يريد النمو والوصول بالمعرفة أى بدراسة لغز الكون والادراك العقلى للقوانين والقواعد التى ترسى عليها أسس الحياة ينجذب نحو جنانى يوجا . وأما من كانت طبيعته الدينية قد سمت سموا كبيرا فإنه يفضل أن يتقدم فى معرفة الله والاتحاد به بقوة الحب بقوة الالهام التى تأتى من التعلق بحب الله على أى دين من الأديان ، وسلوك طريق العبادة التى تتمشى مع ذلك الدين . من كانت هذه حاله فهو بين أتباع

الطريقة التي نحن بصددھا — بهاكتی یوجا ، طریق الاخلاص والعبادة .

ومن الجائز أن يكون الرجل تابعا جادا للراجا یوجا أو عالما من أعلام علماء الجنانی یوجا وهو غارق في نفس الوقت في التقديس والحب لله وبذلك يكون من الاتباع البارزين لطریق بهاكتی یوجا . والحق أننا لا نستطيع أن ندرك كيف يتجرد من يتبع أي فرع من فروع الیوجا عن الايمان والحب ، فمن عرف الله أحبه وكلما ازداد به معرفة زاد له حبا وإذا عرف الانسان نفسه أحب الله لأنه يشعر بما يربط نفسه بالله وكلما سمت النفس وجدنا أنها تزداد امتلاء بحب الله .

بهاكتی یوجا أو طریق الاخلاص والعبادة تولد في القلب الحنين الى الحب في الله والحب لله ، تلك الرغبة التي يطلق علی مظهرها العاطفة الدينية — غريزة التعبد . وما من انسان الا وهذه الغريزة فيه بادية في صورة من الصور حتى أولئك الذين يسمون أنفسهم (أحرار المفكرين) أو اللأدرين أو الملحدين الذين ينكرون وجود الله علی الاطلاق والذين يعتنقون مبادئ الماديين العقلية كل هؤلاء يحسون هذه الغريزة ويظهرونها في ثوب حب (الطبيعة) أو الفن أو الموسيقى ولا يخطر علی بالهم أنهم بحبهم هذا لأي مما يحبون انما يحبون مظهرا من مظاهر الاله الذي يجحدونه وبذلك يمجدون الله وهم لا يشعرون .

وإذا قلنا أن بهاكتى يوجا (فلسفة الاخلاص والعبادة) هى علم محبة الله فاننا لا نقصد بذلك أنها علم يضع فاصلا بين من يعبدون الله ويحبونه بطريقة بعينها ومن يحبونه ويعبدونه بطريقة أو طرق أخرى ، أى من يعبدون الها غير الههم .

هذه الطريقة على حقيقتها تفرض على معتقدها أن يعترف بأن من يعبد الله على أية صورة هو أخ وزميل له ، فالبهاكتى يوجى يرى أن كل الناس يعبدون الله روح الوجود ومصدر الحياة ، فهو بالرغم من وحشية صورة اله المتوحشين وقسوة طقوس عبادتهم يرى فيهم اخوة يعبدون الله على أحسن ما تؤهلهم له عقليتهم وحالتهم البدائية وهو لذلك يرى فى المتوحش أخا له فى بهاكتى يوجا ولكنه أخ ما زال فى أول مراحل الطريق فى ألف باء المعرفة فيحنو على ذلك المتوحش ويقدر عقله الساذج فيسيل اليه حبه وتنهل رحمته نحو ذلك الأخ البسيط الذى يفعل غاية ما وصل اليه ادراكه ، وبدل أن يحكم عليه بأنه كافر ، يدعوه أخاه ويفهم حقيقته وبلواه ..

فأنت ترى أن أهل هذا الطريق لا تقوم بينهم حدود فاصلة . لا يتأثرون بالطائفية ولا باختلاف المذاهب لأنهم يشعرون بأن الناس جميعا أخوة لهم وهم على استعداد لأن يمدوا يد الصداقة للجميع . ان الله واحد لا يتغير هو هو بالأمس واليوم والغد ولكن

تصور الانسان لله هو الذى يتغير مع تطور الانسان الفكرى .
فاله كل انسان دائما يسمو قليلا على ذلك الانسان وقد أحسن من
قال ان اله الانسان هو صورة لذلك الانسان فى أحسن حالاته .
فالصورة التى رسمها العهد القديم لله (اله اسرائيل) تختلف عن
الصورة التى تخرج بها من العهد الجديد . والصورة التى ترسمها
الكنيسة المسيحية اليوم تختلف تماما عن الصورة التى كانت
ترسمها من خمسين سنة (١) .

وبديهى أن الله سبحانه ما تغير قط وانما هذا الخلاف سببه
تطور عقول الناس الذين تتألف منهم الجماعة أو الطائفة ، فكلما
ارتقى الانسان تكشفت له فى الله صفات لا تليق به ، ولما كان
الانسان يتعبد لله فى أحسن ما يتخيله من صفات فانه دائما يضع عن
اله ما أضفاه عليه بالأمس من صفة ينكرها عقله فى يومه ليضفى
على الهه ما يتناسب مع فكره اليوم . فاذا أشرقت على الانسان فى
غده أفكار أعلى وأسمى من أفكار اليوم رأينا اله الغد يتمتع من
صفات الالهية بما لا يتمتع به اله اليوم . وتعالى الله عما يصفون
فانه الأحد الصمد لم يتغير فلم ينقص ولم يزد ولم يفقد ولم يجد

(١) يقول الملحدون الحديثون ان الله لم يخلق الانسان ولكن
الانسان هو الذى خلق الله ولعل هذا الشرح يجعل ما يقوله الملحدون
قولا مفهوما اذا كانوا مستعدين لاتخاذ الخطوات التالية التى
سيشرحها المؤلف ويرضون بتفسيره
المترجم

وانما الذى يتغير هو الانسان وتبعا لتغيره تتغير الصورة التى يرسمها لمعبوده .

المتوحش أى المتخلف فى الطريق يؤمن باله يبدو لنا شيطانا رجيمًا ولكنه اله شبيه بذلك المتوحش وان كان يفضل له لحد ما . أنه ينحت صنما بشعا يمثل له ذلك الاله ثم يخر له ساجدا أو يرقص حوله وهو يقدم له القرابين التى قد يكون من بينها دم الانسان ينضح به مذبحه . وهو يعتقد ان الهه يجب منظر دماء أعدائه كما يحبها هو . وأعداء ذلك المتوحش هم دائما أعداء لإلهه وهذه عقيدة تصاحب الانسان منذ أمد بعيد ومن اليسير أن نراها اذا أنعمنا النظر حولنا فى يومنا هذا (سنة ١٩٠٤) م .

ومع الأيام يزداد المتوحش معرفة أو قل تزداد ذراريه معرفة وتفهما فيعمدون الى اله آبائهم فيخرجونه من هيكله ليضعوا مكانه الهها يتناسب مع المستوى الذى ارتقى اليه علمهم ومع درجة تقدمهم .

قد يكون ذلك التقدم بسيطا ولكنه خطوة فى الطريق فى الاتجاه القويم اذ يكون الاله الجديد خيرا من القديم نوعا ما . فهو أكثر رأفة ورحمة وهو أكثر عظما ومحبة من سلفه .

وهكذا تتقدم البشرية خطوة خطوة ويرتفع مستوى اعتقاد المؤمنين فى صفات الله أو ما يتخذونه رمزا لله ويصحب كل خطوة

التخلى عن مثل عليا قديمة لتحل محلها مثل أكثر تهديبا وترفعا ومع
أن عقول الناس ترى في الله سبحانه آراء مختلفة ترتقى كلما ارتقت
العقول فانه سبحانه هو هو جلت قدرته .

والأجناس المتخلفة لا تستطيع تصور فكرة الاله الواحد وانما
تتصوره آلهة متعددة كل منها مظهر لصفة من صفات الله أو لمرحلة
من مراحل الحياة أو لمظهر من مظاهر الشعور الانسانى أو الفكر
أو العاطفة فلهم اله للحرب واله للسلام واله للحب واله للزراعة
واله للتجارة واله لكل ما يخطر على البال وما لا يخطر . وهم
يعبدون هذه الآلهة ويتقربون اليها يستجلبون رضائها وهم
لا يشعرون بأنهم في عباداتهم هذه المختلفة انما يستجيبون للفريزة
الدينية التى تقودهم فى النهاية الى عبادة الله الواحد الذى يجلب عن
الوصف . انهم يضيفون على الله سبحانه صفات الانسان حتى بعد
أن يتطوروا فى ايمانهم من عبادة الالهة المتعددة الى عبادة اله واحد
كيفما كان ادراكهم له — فهم يتصورون أن ذلك الاله الذى
يؤمنون به يقسم الناس الى فريقين — أصدقائه وأعدائه —
يحسن الى أصدقائه وينكل بأعدائه (١) .

(١) واما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا
فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريما (التثنية اصحاح ٢٠
من التوراة) .
المترجم

انهم ينسبون الى الله فعل ما كانوا هم أنفسهم يفعلون لو أتيح لهم أن يقدروا على منح المكافأة وتوقيع العقوبة وهم يعتقدون أنهم أحباب الله المختارون الذين اصطفاهم لنفسه فهو — ان قاتلوا — ينزل معهم الى ميدان القتال ينصرهم على أعدائهم وأعدائه . وهم يعتقدون أنه يجب سفك الدماء ويفرح بالدم المهرق وانه لذلك يأمرهم باعمال سيوفهم في أعدائه الى حد قتل النساء والأطفال الصغار ، أى والله بل انه ليأمرهم بأن يبقروا بطون النساء الحوامل وأن يجعلوا الأجنة طعما للسيف ، ان الهمم سفاح متوحش لأنهم هم أنفسهم سفاحون متوحشون . أما الله سبحانه فقد تعالى عما يصفون ، انهم انما يصفونه بما في نفوسهم ويعبدون ما تخيلوا ، وما تخيلوا الا جهد ما سمت اليه عقولهم تبعا لمكانهم من الزمان وما وصلت اليه قبيلتهم من مراحل التطور البشرى يسوونه سبحانه اسما بعد اسم .

وكذلك أعداء هؤلاء لهم الهمم التى رسمها لهم خيالهم يطلقون عليها من الأسماء ما راق لهم وهم يعتقدون أيضا أن الهمم هذه تنصرهم على من يعاديهم وتقاتل معهم حتى يحرزوا النصر على أعدائهم وعلى الهمم الزائف . وهذه الآلهة ما هى الا اتاج عقل الطائفتين المتقاتلتين خلقت استجابة للفريزة الدينية فى مرحلة من مراحل تطورها .

اذا لتصيينا رجفة من هذا القصص وهذه الأفكار ولكن هل
نحن تقدمنا كثيرا عن هؤلاء المتوحشين؟!

في حروبنا العصرية نجد كلا من الطائفتين المقتلتين تدعو الله
لينصرها على عدوها وكل من الفريقين يعتقد أن الله معه .

ففي الحرب الكبرى الدائرة رحاها الآن بين روسيا واليابان^(١)
تدعو كل من الأمتين الها رسمه لها عقلها وتساءله أن يسير في صفها
لقتال أعدائه وهم لا يشعرون أنهم جميعا يعبدون الها واحدا
تحت اسمين مختلفين وان الله الواحد الحق لا يفرق في حبه ورحمته
بين الفريقين المتقاتلين !!

وفي الحرب الأهلية الماضية في الولايات المتحدة الأمريكية كانت
كل من الطائفتين تدعو الله لينصرها وتعتقد كل منهما أن الله معها .
لقد انشقت الكنيسة على نفسها واعتقد كل جانب أن الله يقاتل معه
أو أنه الهان اله للشمال واله للجنوب ، اله يكره الرق ويمقتته ويريد
أن يقتل من يتمسك به ، والآخر يرى أن الرق من مشيئة الله وبأمر
منه وأنه سيصيب بالهزيمة من يريد أن يمحوه .

ولا شك أن كل فريق كان يرى الله بمنظاره الخاص فيراه مثله

(١) كانت الحرب تستعرب بين الدولتين في ذلك الوقت الذي القيت

فيه هذه الدروس (١٩٠٤)

وان كان أكبر — ويرى ارادة الله صورة لارادته ، ومشية الله
صورة لرغباته التي يتمنى تحقيقها .

وقد انتهى الفريقان بعد هذا الخلاف وبعد قتال مرير الى رأى
واحد في الله وحكمه ، فالرق كان شيئاً أخذ دوره في الوجود نشأ
ونما ثم زال ، انه كان مرحلة من مراحل التطور البشرى تطور معه
اعتقاد الانسان في الله ومشيته أما الله سبحانه فما تغير وما تبدل
تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

لقد اضطهد الانسان أخاه الانسان لأنه رأى في الله غير رأيه
فلما اشتد ساعد الضعيف المضطهد وتمكن ممن هو أضعف منه
ومن يرى في الله غير رأيه اضطهده . وكل يعتقد أنه ينفذ مشية الله
وهو ينكل بخصمه الضعيف وذلك الخصم وهو يلقي النكال يلقاه
راضيا لأنه في سبيل الله .

لقد أخرج المتزمتون (Puritans) من ديارهم بعد أن ذبح
منهم من ذبح لعقيدتهم في الله فلما استقروا في الأرض الجديدة
انتقموا من أصحاب المذاهب الأخرى المسلمين الوادعين (Quakers)
لأنهم لا يرون في الله رأيهم . والكل يعتقد أو يدعى أنه يرضى الله
بإذنته من أعدائه .

وكم يبدو هذا كله عبث أطفال لمن أوتوا من سعة العلم وبسطته
ما يجعلهم يدركون أن الناس جميعا عيال الله ، وأنهم جميعا

يعملون بخير ما وصلت اليه عقولهم ومعرفتهم ولا لوم ولا تشريب عليهم . فمن كان يعمه في ضلاله فهو انما يعمل ما وسعه وكل ميسر لما خلق له ، وكل يعبد الله بما ألقى في روعه وهو يؤمن بأن عبادته خير العبادات وأن ايمانه أصح الايمان وأن معبوده هو الحق وما يعبد الناس من دونه الا الباطل وكلهم يعمل بدافع الغريزة الدينية التي تحفز الناس الى الامام ، ان هؤلاء جميعا أتباع بهاكتى يوجا في مراحلها البدائية وهم لا يشعرون .

انهم يظنون أنهم يعبدون آلهة مختلفة وما ذلك الا وهم ، فهم جميعا يعبدون الها واحدا ويقدسونه ، الخالق المبدع لا اله الا هو الواحد الحق .

ان العقول المختلفة لها مناظير مختلفة ترى خلالها الله صورا متعددة حتى ليبدو بعضها للناس مخيفا ولكن هذا كله لا يغير الواقع ولا يبدله . فالحقيقة هي هي والله لا اله الا هو لا شريك ولا مثل له الواحد الدائم الأول الآخر .

وأيا كانت العبادة ومهما بلغت من البدائية والهمجية فانها تصعد الى الله بمشيئته وسواء كان الرمز الذي يتعبد له الناس حجرا أو عصا أو صنما أو شجرة أو حية أو ما أوحى خيال الانسان من صور يرسمها لما يعتقد ويتصوره الها له ، فان المعبود هو الله الدائم القوى العليم بكل شيء الموجود في كل مكان ، فمن

عبده في أعلى ما يتخيل من صفاته فقد أحسن صنعا شأنه شأن
الذين وصلوا الى المراحل السامية الذين يعبدونه حق عبادته وعليه
أجرهم ، وسيزداد ايمان المتوحش والعالم التقى مع الزمن اذ ينسبط
عقل كل منهما عاما بعد عام ليتقبل نعمة الله ويتفتح ليسمح للمعرفة
الروحية بأن تفيض عليه .

وواجب من أوتى شيئا ولو قليلا من العلم أن يأخذ بيد من هم
أقل منه شأننا ان استطاع وان قبلوا معوته وارشاده . ولكن ليس
لنا أن نعير من هم دوننا ايماننا وعقيدة فهم اخوتنا في الله يسرون
على الطريق شأنهم شأننا وما نحن وهم الا أطفال في مختلف مراحل
التعليم كل حسب سنه ونضجه ، كل يعمل على شاكلته ، يعمل
ما يؤهله له سنه ودرجته . كل له من الفهم ما يمكنه منه سنه ،
كل يحاول أن يصل بما عمله الى حد الكمال الذي يستطيعه
ويتصوره .

يجب علينا ألا نسخر من أحد أو نتهم أحدا أو نبغض أحدا
يجب أن يفمر حبنا كل اخوتنا حتى ولو كانوا لم يفتحوا أعينهم
بعد على ضوء المعرفة . هذه بهاكتي يوجا في احدى درجاتها .

بهاكتي يوجا تنقسم الى طبقتين عظيمتين أو فرعين :

فالأول (جوني بهاكتي) وهو مرحلة ابتدائية فيه يعبد الانسان

الله ، الها شخصيا (Personal God) والثاني بارا بهاكتي وهو الأعلى

وفيه يعبد الانسان الله مجردا (Impersonal God) والواقع أن العبادتين تتجهان الى اله واحد وان كان مبلغ نضج أتباع المذهب الأول لا يسر لهم العبادة المجردة فيجدون أنفسهم قد تخيلوا الها يصفونه ويعبدونه .

ولكل من الطائفتين درجات يختلف العابد في أحدها عن زميله الذي في درجة غير درجته طبقا لما بلغ كل منهما من نضج عقلى وروحي .

وسنحاول أن نلقى ضوءا على هذين القسمين في اختصار ولكن بما يكفي للتمييز بينهما والحكم بأنهما من جنس واحد وان اختلفا فان اختلافهما مرجعه درجة النمو العقلى والروحي .

الانسان البدائي مدفوعا بالغريزة الدينية ولعجزه عن التفكير المستنير في الموضوع يرضى غريزة العبادة في نفسه بتوجيهها الى رموز فجأة فيعبد قطعا من العصى أو الحجارة ويعبد الرعد والبرق والشمس والقمر والنجوم والرياح وغيرها من ظواهر الطبيعة ثم يتطور الفكر الى الشعور بأن الاله لا بد أن يكون شخصا ما في صورة رجل بالغ الضخامة والكبر يعيش في مكان ما من الفضاء حيث يرى ولا يراه أحد ويتصور العقل في هذه المرحلة أن الله يتصف بنفس صفات الانسان الا أنه يفوقه في كل صفة قدرة وعظمة . ونظرا لأن الانسان في هذه المرحلة من تطور البشرية يكون

قاسيا متعطشا للدماء فاته لا يستطيع أن يتصور الله الا متصفا
بالقسوة محبا سفك الدم ، فان كان الانسان أسود اللون فإلهه
أسود اللون مثله وان كان مغوليا ففيه تقاطيع المغول وان كان
هنديا أحمر فإلهه كالهنود يصبغ وجهه بالحمرة ويحوط رأسه
بالريش ويحمل قوسا وكنانة أسهم .

وان كان هنديا من جهة الهنود فان إلهه يركب ثورا أو فيلا
وهو عار أو يكاد يكون عاريا وهكذا يتصف إله كل شعب بصفات
ذلك الشعب ويتزيا بزيهم . كل أمة مندفعة وراء الغريزة الدينية
تبتكر صورة لآلهها ولا تخرج هذه الصورة المبتكرة عن صورة من
ابتكروها أو ما انبته خيالهم وكل إله من هذه الآلهة المخلوقة على
صورة البشر يحب من يحبه شعبه ويكره ما يكرهه شعبه ومن
يكرهه ، وكل إله من هذه الآلهة وطنى متطرف فى وطنيته وحبه
لموطن الشعب الذى يعبده متطرف فى كراهيته للبلاد الأخرى
وأهلها .

وكثيرا ما تكون تلك الآلهة عجيبة الصورة والتكوين منها ما له
عشرة أيد ومنها ما له رؤوس متعددة وعيون تنظر فى كل اتجاه
وآذان مرهفة نحو كل فج لتحصى خلجات الأعين وهمسات الألسن
ويتسلح الآلهة عادة بأسلحة عصرهم ومنهم من يخرج للصيد
والقنص وكثيرا ما خاضوا غمار الحروب ينصرون المؤمنين بهم .

وتغضب الآلهة وتآكل قلوبها الغيرة ويثور بعضهم ويشتم حقدهم
وكثيرا ما غيروا فكرهم وشعروا بالندم ، ومن الآلهة من يحب
الأخذ بالثأر . ومجمل القول أن آلهة هذا الطور من أطوار البشرية
يتصفون بصفات البشر أنفسهم في هذه المرحلة وكيف لا والناس
الذين رسموا للآلهة صوراً لا يستطيعون أن يتخيلوا لها يتسامى
عنهم تسامياً كبيراً وأنى لهم أن يرسموا ما لا يدركون !?

هذه الآلهة تطلب من عبادها التملق والقرايين ولهم طائفة كبيرة
من الكهان يتغنون بمدائحهم ويرتلون لهم عبارات الخضوع والطاعة
ويعول الشعب كهانه بأمر مزعوم من الآلهة التي وهبت الكهان
سلطاناً ، فهي تسمع بأذانهم وتمنح النعم استجابة لدعائهم ،
والشعب والكهان يرون فرضاً عليهم أن يسبحوا بحمد آلهتهم
ويتغنوا بجبروتهم يتباهون بقوتهم ويؤمنون بأنهم قادرون على
البطش بآلهة الشعوب الأخرى ، ومن صفات هذه الآلهة حبها أن
يتمرغ عبادها في التراب تحت أقدامها يعلنون عبوديتهم لها وكأنما
هذه الآلهة تسير سيرة ملوك العصر وشيوخه .

وهذه الآلهة تسبغ الخيرات على الشعب ان هو أغدق القرايين
وأجزل النذور وأوفأها فان لم تتقبل القرايين وان لم ترض عن
النذور لأنها ليست قرايين ونذوراً سخية صبت على الشعوب من

ألوان العذاب والضربات ما يكفل الاسراع في تقديم القدر الكافي
من تلك القرابين .

وتحب هذه الآلهة رائحة اللحم المشوى رائحة لحوم الثور
أو الشاة تقدم محرقة قربانا لها كما تحب رائحة البخور والند
والعود ، وكثيرا ما تتطلب الآلهة بين الفينة والفينة دما بشريا يرش
على مذبحها .

والآلهة ترسل الوحي لرؤساء الكهنة والويل لمن يشك في
الوحي أو يكذبه ! ان الكثيرين من الكهنة مخلصون أمناء ولكن
الأكثر يستغل سداجة الشعب فيتخذ منه بقرة حلوبا تهيب لهم
مترف العيش .

ولقد رسمت شعوب كثيرة آلهتها ونحتت لها تماثيل فاختلف
الأمر على البسطاء من الشعب فلم يميزوا كثيرا بين الرمز والاله
الذى نحت الرمز ليقربه لأذهان الناس فأغراهم الرمز لقربه منهم
بعبادته فعبدوه وغاب الاله عن أنظارهم فاخفى من وعيهم فنسوه .
نحن لم نذكر هذه الأشياء بروح النقد الجارح أو السخرية
اللاذعة فما لهذه الأحاسيس فى نفسنا أثر . انما ذكرنا هذه الحقائق
لنرى الطالب وعورة المسالك التى اجتازها الانسان فى سعيه الى
الله ، ومهما كانت الفكرة عن الله فجة بدائية ومهما كانت طريقة
العبادة بربرية وحشية ومهما طمرت الخرافة جوهر هذه الألوان من

الديانات ، فان كلا منها خطوة من خطوات تقدم الانسان نحو اتحاده بالله ويجب أن ننظر اليها على هذا الأساس .

لقد طرح الانسان عن روجه حجابا بعد حجاب واتزع عن قلبه قفلا بعد قفل وكلما نزع حجابا وجد ما تحته أقل منه كثافة وأقرب لأن يشف عما تحته ، ولا تزال عملية نزع الحجب هذه مستمرة تنتقل بنا من حالة الى حالة أفضل منها وهذا جزء من عملية التطور .

يشير الملحد المادى الى هذه الحقائق التى ذكرناها يؤيد بها رأيه فى فساد الديانات جميعا فان التاريخ يثبت فساد ديانة كل عصر فى رأى العصر الذى يليه وهو لا يدرك أن نظريته نفسها عن المادة والطبيعة ماهى الا خطوة أخرى من خطوات التطور الفكرى وان مركزه الحالى ما هو الا درجة من درجات السلم تماما كما كانت تلك النظريات والآراء السابقة التى سخر منها فى حاضره ، انه كالمتوحش وذرايه يبحث عن الله ولو أنه لا يدرك ذلك وهو يتمادى فى انكار وجود الله .

ان من يدرس الديانات يدرك من غير شك أن فكرة الانسان عن الله تنمو مع الزمن فهى تزيد أفقها اتساعا وتصبح أرق حاشية وأخطر قدرا وأكثر رحمة عاما بعد عام حتى وقتنا هذا اذ امتازت السنوات العشرون الأخيرة بتغير خطير فى هذه الناحية فلم نعد نسمع بأن الله يحرق صغار الأطفال فى نار أبدية وازداد ترديد ذكر

محبة الله ورحمته بدل الحديث عن تقمته وكراهيته للبشر لأنهم يخطئون. وبدأ التعليم يتجه نحو حب الله بدل الخوف من بطشه. وهذا التحول يسير حثيثا نحو أمور خير مما عهدنا، ولكن يجب ألا ننسى أن كل طريقة من طرق العبادة وكل نحلة وكل مذهب أيا كان ما يبدو على تعاليمه من البدائية، لها مكانها في التطور الديني للبشرية، وإن كاد منها يناسب المؤمنين به وعلى هذا فيجب أن يقابل بالاحترام.

وكلما تقدم ادراك المؤمنين وارتفع عن مستوى نوع من تعاليم دينهم أسقط أئمة ذلك الدين من تلك التعاليم ما لم يعد يتناسب مع حال المؤمنين حتى تستقيم الأمور.

إن الأئمة عادة سابقون لماحون يرون ما لا يمتد إليه بصر رعيتهم وتابعيهم فهم أبعد منهم نظرا ولكنهم ينتظرون الوقت المناسب لإدخال التعديل بالتدرج وإن أشد الديانات محافظة واستمساكا بتقديم شرائعها لتبدو في نظر السلف من أئمتها بدعا لما أدخل عليها بل وجحودا وكفرا. إن المذاهب والديانات تتطور فيسقط عنها من المعتقدات والتعاليم ما رثت وبلى وظهرت للناس عيوبه وعوراتها لتحل محلها أخرى يستسيغها الناس ويتقبلونها بقبول حسن ومع ذلك تترك هذه المذاهب والديانات رغم ما يطرأ عليها من التغيير بأسمائها القديمة.

مثلها كمثل قصة مديّة الصبي التي تحطم نصلها مرة بعد مرة
فركب لها في كل مرة نصلاً جديداً ثم تحطم مقبضها مرة بعد مرة
فغير لها المقبض كل مرة ومع ذلك فإن صاحبها يعتبرها مديته
القديمة .

كثيرون أدركوا فساد بعض التعاليم الدينية فخرجوا من حظيرة
الجماعة وهم ينظرون باحتقار وازدراء الى أولئك الذين ظلوا
ثابتين حيث كانوا هم الى وقت قريب ، وهذا خطأ فادح ، فإن
أولئك المحافظين على تلك التعاليم تمسكوا بها لأنها أصلح بيئة
لهم وأنسبها لظروفهم وادراكهم ، فاذا نضجوا وسما ادراكهم
خلعوا تلك التعاليم كما يخلع الثوب القديم ولحقوا بمن سبقوهم
واقترفوا آثارهم ولو بعد حين . واستهزاء السابقين بالمتخلفين لا يقل
خطأ عن ثورة المحافظين على المجددين المارقين . واليوجي الحقيقي
بين هؤلاء وهؤلاء ينظر الى الناس جميعاً نظرة المواساة والحدب
فالكل متجه نحو الله بغض النظر عن المرحلة من الطريق التي
يجتازونها .

أما من لم يصلوا الى شيء من صفاء الروح فانهم يبرهنون على
حبهم لله باظهار الكراهية لمن لا يدينون بدينهم ومحاربتهم ، يتقربون
بذلك الى الله ويكسبون رضاه فهم يظنون أن عدم ايمان غيرهم
بما يؤمنون به أو اختلافهم معهم عليه افتراء على الله واهانة له

سبحانه وأنهم وهم عبيد الله يجب أن يثوروا لهذا الافتراء كأن الله محتاج الى مساعدتهم ليؤدبوا له من عصاه ، وكأنما الله فى حاجة الى نصرتهم له على أعدائه وحاشا أن يكون لله من خلقه أعداء سبحانه ، ان من بلغ من صفاء الروح أى مبلغ خليف بالأى يرى مثل هذا الرأى الذى لا تستسيغه الا الطفولة وأن يرى أن حب الله يجب أن يكون حبا دائما وحبا صافيا توجهه صلة كل المتعبدين ببعضهم أيا كان نوع تعبدهم اذ أنهم زملاء فى السفر ، السفر على الطريق ، وان حب الله لا يمكن أن يكون سببا فى بغض أحد أو شىء .

أنواع العبادة التى تتخذها الهيا (شخصيا) سواء كان ذلك الاله المتوحشين الذى أشرنا اليه أو اله الرجل المستنير المتمدنين ، كل هذه الأنواع يشملها القسم الأول الذى ذكرناه من بهاكتى يوجا (جونى بهاكتى) .

فاذا أسقط الانسان من ادراكه كل فكرة الصور الشخصية عن الله انتقل الى القسم الثانى (بارا بهاكتى) حيث يكون الايمان بالله بسعنى أسمى وأرفع لا لأن الله تنقصه الشخصية ولكن لأنه يتسامى عن الشخصية ويتجاوزها لأنه يتعارض معها .

ان من يجب الله يستطيع أن يحبه كما يجب الولد أباه وأمه أو الرجل طفله أو صديقه أو المحب حبيبه فان صفات الله تشمل هذه الأنواع من الحب جميعا ولها القدرة على الاستجابة لكل نوع

منها ومقابلته بمثله وان كان المحب في غير حاجة لأن يسأل الله مقابلة حبه بمثله ، فكما يفرق الانسان في أشعة الشمس ودفئها اذا خرج اليها وعرض نفسه لها كذلك الرجل الذي يحب الله يغمره الحب الالهي ويكتنفه ويضفي عليه فضله وبركته ، فان مجرد حب الانسان لله يفتح مغاليق نفسه لفيض العطف الالهي . فمن وجد في نفسه حاجة الى بر (الأب) وظل جناح رحمته فما عليه الا أن يفتح قلبه ليستقبل ذلك البر وأن يطوى نفسه تحت جناح رحمته فيغمره البر ويظله جناح الرحمة .

وإذا أراد الانسان أن يبسط لله من الحب ما يبسطه الوالد للطفل فان هذا الحب كسابقه في متناول يده . ولئن خشى الكثيرون أن يكون في حب الله كما يحب الطفل شيء من الكفران حين يعدون الله طفلاً فانهم يجدون فيه تسرية لهم عنهم تشبه الرضا بما يحسون به من استجابة الطفل لحبهم وتعلقه بهم .

ان الديانات الغربية لا تعرف هذا النوع الأخير من حب الله ولكنه ليس بالشئ الغريب في الشرق وانك لتجد المرأة الهندية تلجأ الى التعبير الشعري الهندي فتتحدث عن نفسها كأنها (أم الله) ومهما بدا هذا القول عجبا للعقل الغربي ، فما هو من هذه النسوة الا ايمان بأن الله يلبي كل حاجات القلب البشري لأنواع الحب فيحب الانسان الله كما يحب صديقه وزميله وأخاه ويحبه الحب

المتأجج الذى يشتعل فى قلب المحب لحبيبه ويحبه كما تحب الأم طفلها وهذا أسمى أنواع الحب وأكثرها ذيوعا فى قلب المرأة قلب الأم .

كل هذه الأنواع من حب الانسان لله معروفة لتابع بهاكتى يوجا بخلاف ما عرف الغرب الذى لا يرى الا أن يكون حب الانسان لله كحب الطفل لأبيه بينما يجد كل قلب بشرى فى بعض الأوقات حاجة ملحة الى حب كحب الأم ولدها يفيض عليه من عند الله . ليس الله ذكرا وليس الله أنثى سبحانه تنزهت ذاته وتعالى صفاته وما هاتان الصفتان الا نقطتين فى بحر صفاته ومظهرين من مظاهر قدرته وحكمته وكثير منها غيب لم يكشف لعلنا حتى اليوم .

اليوجى يعلم أنه بفضل حبه الدائم لله يقترب من الله شيئا فشيئا حتى يصل فى النهاية الى معرفة صلته بالله والاحساس بها وتذوقها .

أما ما يحسه أصحاب (جوني بهاكتى) من حب الله فلا يقاس بما يحسه أتباع (بارا بهاكتى) من عارم الحب ولذة القرب وان مثل الأول كمثل حب الطفل لزميل طفولته ولعبه وهو يظن أنه يعرف طعم الحب ومثل الثانى كمثل هذا الطفل اذا بلغ هو وصاحبه الرجولة وأحس الحب كل منهما لزميله ، الحب العميق البرىء الذى يدفع الرجل الى اقتداء صاحبه بروحه .

الأول يس حب الله ناحية واحدة على أحسن فرض بينما الحب الآخر يجعله يحس بأن الله يستجيب لكل نجوى ويحقق كل رغبة وأنه يس نفسه في ألف ناحية وناحية انه يحيط به احاطة أشعة الشمس بمن يريد لها فما عليه الا أن يخطو نحوها فتغمره بدون أن يطلب من الشمس أن تغمره بأشعتها ، كذلك يشعر صاحب (بارا بهاكتى) بحب الله ، ليست به حاجة الى أن يسأل الله فضلا انه غارق في فضل الله .

ولا يحسبن الطالب الغربى أن هذا الحب شىء مما يراه في اتباع بعض المذاهب من تلك النوبات الهستيرية الصاخبة ، فان أتباع هذه الفلسفة في الغالب الأعم رجال يزينهم الوقار حظهم من العلم كبير . انهم لا يطوفون مهللين مكبرين ، انهم يسرون في دروب الحياة المختلفة يؤدون عملهم ويوفون التزاماتهم كغيرهم من الناس أحسن وفاء ولكن يملأ قلوبهم احساس بحب الله مقيم لا يريم ينبع من معين معرفتهم به وقربهم منه وحقهم في الاتصال به وحقه عليهم بعد أن عرفوه .

انهم ثابتون فيه وهو ثابت فيهم انهم يحسون أنهم به يحيون وبه يغدون ويروحون وأنه آناء الليل وأطراف النهار منهم قريب ، بل انه معهم أقرب اليهم من أجسامهم انهم ليسوا محترفي صلاح وتقوى مظهرى تهجد وتعبد ولكنهم فتية آمنوا بربهم يرونه في كل

مكان وفي كل شيء وانهم بكل ما يؤدون من عمل يتعبدون له . انهم جادون في السعى (لملكوت السموات) انهم يعلمون انها في قرارة أنفسهم ومن حولهم . انهم يحسون كأنهم بين الملائكة في كل لحظة ، أن عبادتهم لله دائمة في كل مكان وفي كل وقت ، انهم يرون أن كل ما يعملون كسب لمرضاته لأنه بأمره ومشيئته وان كل مكان معبده لأنه فيه ، انهم يشعرون دائما بأن قوة الله تغمرهم وانها هي قوتهم لا قوة لهم الا بها وأنهم دائما بسمعه وبصره وانهم دائما في حضرة . انهم لا يعرفون الخوف فقد ملأ الحب كل جوارحهم فلم يبق فيها متسع لغيره من الاحساسات لقد أقصى نوره كل ظل لكل شيء بنعوض .

ان كل يوم من أيامهم أحد وكل وعر وسهل وحقل وبيت معبد لهم وفي نظرهم كل رجل وكل امرأة كاهن وكاهنة في محرابه وكل طفل عاكف على هيكله انهم ينفذون ببصرهم خلال الجسد متخطين هذا الحجاب الكثيف الى ما وراء الجسد من روح .

ان اليوجي لا يؤمن بأن الله يطلب من الناس أن يحبوه وأنه يحتفظ بالخير والبركات مكافأة يصدقها على من يحبه وأنه أعد العذاب لمن يبخل بحبه عليه ويضن به فانه يرى في هذه العقيدة ما يتنافى وما يعتقد في الله من يعرفه حق معرفته .

انه يرى أن الله أجل وأعلى من هذه الأحاسيس التي توحى

بالمكافأة والعقوبة وهو يرى أن رحمة الله وسعت كل شيء وأن حبه لخلقه جميعا حب لا تزيده عبادة ولا ينقصه كفران ، وهو يعلم أن الله لا يأمر الناس بتقديم خدمة له ولا يسألهم عبادة ولا خشوعا وان مثل الله عنده كمثل الشمس لا تنظر الى الناس تحرم منهم العاق من أشعتها وتسكب أشعتها على الطائعين انما تشرق على الجميع . كذلك فضل الله يصيب الناس جميعا لا يحرم منه حتى من يجحد وجوده ويكفر به .

ولكن الیوجی مع ذلك يعلم أنه قد أعد نعيم لمن أتى الله بقلب سليم ولكن ذلك النعيم ليس مكافأة له لرضا الله عنه انما هو نتيجة لعمل الانسان .

فكما أن المقرور يجد الدفء في ضوء الشمس ان هو عرض نفسه لها والدفء في هذه الحالة نتيجة خروجه الى ضوء الشمس لا لرضا الشمس بأن تدفئه كذلك يغمر النعيم من يبتغي فضل الله ورضوانه فيخرج بنفسه الى حب الله وابتغاء مرضاته ذلك الحب وتلك المرضاة التي أعدت للمتقين مقيمة لا تريم في انتظارهم أنى شائوا ومتى أرادوا فمن تخلف عن الخروج الى دفتها استمر في زمهرير الخوف محروما من نعمة ومغفرة وفضل عميم لا لأن الله غضب عليه فعاقبه ولكن لأنه لم يسع الى ما فيه خيره ورضى بالمقام غير الحميد ولا عجب اذن أن نجد في كثير من كتابات الشرقيين

الرمز الى الله بالشمس فقد وجدنا هذا الرمز في معظم ما قرأنا بما في ذلك التوراة — والتوراة من كتب الشرق .

قد تبدو بعض هذه الآراء في الله غريبة للغربيين ولكن الباحث المسيحي لو أنعم النظر لوجد هذه التعاليم سارية في تعاليم المسيحية مسرى الخيط الذهبى الذى ينتظم حبات العقد فتعاليم المسيح مليئة بهذه الآراء التى اختلفت على مر القرون لقد آمن المسيحيون الأولون بهذه الآراء كما يتضح ذلك من الرجوع الى ما كتبه آباء الكنيسة ولكن علماء اللاهوت أحاطوا تلك الآراء الأصيلة بطبقة سميكة من القذى أخفتها عن العين الا أن ينفذ البصر وراء هذه الطبقة .

اليرجى صلى الله فى أول مراحل الطريق صلاة يحملها بمطالبه وحاجاته كأنما هو سائل يقف بباب الله يطلب حاجة بعد حاجة — حاجات مادية كلها فى الأعم الأغلب حتى اذا قطع من الطريق مرحلة فقرب بعض الشئ من النور بدأ يشعر أن صلاته هذه ليست وسيلة التقرب من الله فينتقل الى المرحلة التالية التى يسأل الله فيها العون على الهداية ويطلب منه القوة على بلوغ مرحلة الصفاء الروحى وهو فى هذه المرحلة يعتقد أن الله يشبه على صلاته باجابة سؤله فيمنحه ما طلب من عون وقوة كما ينعم الملك على من يتوسل اليه بما طلب . ولكن اليوجى الحقيقى — تابع باراً بهاكتى — لا ينتظر أجراً

ولا يطلبه ومع ذلك فانه يحظى بأرفع الهبات فهو يعلم أن الصلاة لا تنفع الله ولا تساعده وأن الله غنى عن عبادته وثنائه وحمده ومع ذلك فان للصلاة أعظم الفائدة وفيها أكبر الخير للانسان لأنه بفضلها يقترب من مرضاة الله وفضله وتنسجم بها روحه مع الملائ الأعلى وتفتح مصاريع روحه لتيارات القوة والحكمة التي تغمر من يتقرب من الله مصدر كل قوة ومنبع كل حكمة . هذا هو سر الصلاة .

ان الرجل الذى يتجه الى الله بحرارة قلبه وعميق وجدانه وروحه حين يصلى ينقل نفسه وروحه الى جوار الله حتى تمس روحه حجب العظمة فتنصهر بنارها وتصفو بنورها بغض النظر عن الكلمات التى تصاغ بها الصلاة ، ان الحالة النفسية والعقلية وقت هذه الصلاة هى التى تجعل الانسان ينتقل الى نوع من الاندماج فى قدرة الله وحكمته فتغمر الحكمة والقوة روحه . ومع ذلك فان أكثرنا يتعلق بالكلمات والآيات يرددها فى صلاته يجد فيها العون على هدوء العقل وشعوره بالرضا ولكن الكلمات ما هى الا وسائل لهذه الغاية ليس الله بحاجة اليها فان العقل المحدود — عقل الانسان — اذا اتجه الى العقل الكلى غير المحدود استمد منه الحكمة من غير قول .

ولكى تؤتى الصلاة ثمارها يجب ألا تكون صادرة عن الشفتين كأنما هى ثمرة ببغاء فهذه لا تؤدى الى فتح مصاريع العقل لتقبل

الحكمة الالهية ، يجب أن تكون الصلاة حديث قلب لقلب بين العبد وربه لا لأن الله بحاجة الى حديث يحمل اليه حاجاتنا فانه يعلم من أمرنا ما لا نعلم ولكن لأن حديث القلب يفتح شغافه فاذا تفتحت انصب فيها ما يملؤها عزاء وحكمة من فيض من تفتح القلب للحديث معه ، فان فيض الحكمة موجود دائما وما علينا الا أن ندنى أرواحنا وقلوبنا من سيلها الدافق وأن نفتح القلب والروح له فيمثلان فضلا وحكمة . انه مجانا يعطى كالهواء والضياء ولكن يجب أن نرفع الحواجز التي بيننا وبينه تلك الحواجز التي أقمناها حين أبعدنا أنفسنا عن الله اذ تصورنا أنه بعيد عنا مع أنه منا قريب .

ناج الله كما تناجى أباك وأمك أو زوجك أو حبيبك ونجيك ، انه كل هؤلاء وأكثر وما أحسست أنه يقربك منه فعليك به .
آمن بقرب الله منك تجده قريبا ، وابشه نجواك كما تبثها لأقرب القلوب من قلبك تجده سميعا ان الله لا يترجع على عرش كملك يطلب منك أن تسجد أمامه ذلة وخضوعا وتلقى سؤلك عند قدميه .

ان الله يأمرك أن تقترب منه وأن تجلس اليه وأن تضع نفسك في كنف رحمته وعطفه وأن يث قلبك نجواك وشكواك وأن تذكر قصة همك وبلواك ولا تظن أن الله بحاجة الى رأيك في تهريج

كربك أو مشورتك في قضاء حاجتك انما ألق عليه همك ودع الأمر له مؤمنا بأنه سندك وأنه راعيك وهاديك ومرشدك يسدد خطاك لخيرك ويلقى السداد الى عقلك فلا يخطيء وهو يقويك ويعينك على ما فيه صلاح أمرك .

ان لم تجد من كربك مخرجا ولا لمشكلتك حلا وان لم تجد الطريق أمامك واضحا فاتجه الى الله بجوارحك فانه يفتح عينيك على الطريق فتسلكه وأنت آمن .

ليس هذا الذى تقوله وعظ كاهن مما اعتدت سماعه من كل منبر يلقى كالقاء البيغاء ، انه الحقيقة العظمى التى يحيا فى ضوئها آلاف السالكين . انك ان تسلك هذا السبيل تزدد مع الامعان فى السلوك شجاعتك وتقوى ثقتك فى هذا الطريق ، وترى أى أفق واسع تفتح لبصرك وبصيرتك .

ان لب الفكر فى بحث صلة الانسان بالله هو أن الله هو المصدر الأكبر للحياة . هو محورها وقطب رحاها هو مركز الدائرة ونحن ذرات فى الأشعة التى تنبعث من ذلك المركز . نحن لسنا منفصلين عنه ولكننا لسنا ذلك المركز نفسه اننا مرتبطون به ارتباط الأشعة بالشمس .

ان القوة والحكمة التى تفيض منه مع الأشعة المنبثقة عنه لنا ان نحن رضينا أن نتخذها عدة لنا ورضينا أن نمكنها من أنفسنا لتكون أنفسنا أداة لها .

ان العجلة الصغيرة المرسومة في وسط الشعار الخاص بالدار
التي تطبع هذه الدروس ، هذه الدائرة داخل المثلث تمثل هذه
الحقيقة ولو أنه تمثيل قاصر دون الكمال لأن الأشعة المنبعثة في
الرسم تنتهي بمحيط الدائرة بينما أشعة الخالق لا نهاية لها ، ذلك
لأن اللانهاية لا يمكن تمثيلها برسوم محدودة ، ولذلك رسمت
حول الأشعة دائرة تمثل فهم الانسان المحدود .

إذا استطعت أن تتمثل هذا الرمز لله وما يصدر عنه من أشعة ،
وجدت نفسك تتدرج في ادراك هذه الحقيقة . المركز روح نقي .
هو الله . وإذا ما تفتحت روحنا اقتربنا من ذلك المركز وكلما ازداد
الناس نموا في الروح ازدادوا قربا وزادوا نورا ، وكلما بعدوا عن
المركز ازدادوا مادية واطلاما ، وان هناك وراء كوكبنا . هذا عوالم
أكثر بعدا من المركز فيها ذرات أمعن في المادية مما تتخيل هنا على
الأرض كما أن بيننا وبين المركز عوالم بها كائنات تسمو على ادراك
البشر بمراحل ذلك بما اقتربوا من الله . والانسان في حالته هنا بين
بين انه وسط بين الملأ الأعلى الذي صفاه القرب وتلك الذرات
المظلمة التي ما زالت بعيدا . بعيدا عن مركز النور . عن الله .

ان فوقنا كائنات نورانية الفرق بينها وبيننا كالفرق بيننا وبين
الأسماك البدائية ، ومع ذلك فهذه الأسماك البدائية وما دونها من
مخلوقات داخلية في دائرة الحب الالهي متصلة بتلك الأشعة المنبثقة
من الله .

فلم نخاف اذن ولماذا تفقد الايمان والشجاعة ، اننا لانفنى حين نموت ولا يمكن أن نمحي من الوجود ، اننا جزء من الكل العظيم، اننا في حركة دائمة متجهة نحو الكمال نحو مركز الحياة وقطب الوجود ، أما سر الوجود وحقيقة الحياة فهي في علم علام الغيوب وواهب الحياة وموجد الوجود ، كلما ازداد الانسان صفاء وقربا أشرق عليه ضوء ينير له ما يكتنفه من ظلام الجهل بأصل وجوده وهدف حياته فيزداد حكمة ويزداد قوة ، والحكمة والقوة من صفات الله فيفيضان على من يقترب من حضرة الله مصدر القوة والحكمة فيتسربل بردائهما على قدر قربيه واتصاله . هذه ومضة من نور المعرفة يبصرها من تفتح بصره ويسمع حفيفها من ألقى السمع وهو شهيد .

لا تحسبن حب الله يستوجب طريقة خاصة من الحياة يرضى عنها الله ، فما على الانسان الا أن يعيش كغيره من الناس يعمل في أية مهنة ويسعد في الحياة بكل طيباتها التي تقع فيما قدر له من أسباب لا يتشبت بشيء بعد عنه ولا يزهد في شيء أتيح له ولا تظن أن الله يرضى عن العابس المقطب جبينه أكثر من رضاه عن المرح الطروب . كن على سجيتك وفطرتك بغير تكلف ، هذا كل ما عليك . ان الرجل (أو المرأة) الذي يحس حب الله يسرى في كيانه خليق بأن يكون سعيدا مرحا يشرق حوله نور يمشى بين يديه

أينما سار ولا جناح عليه ان صدح بالغناء أو هزه الطرب للرقص
فرقص . فهذه الأشياء لا ضرر فيها اذا كان لنا عليها السلطان ولم
يكن لها السلطان علينا . لتنتعج بالشمس والهواء والمطر ولنضرب
في السهل والجبل ولتكن الطبيعة بجمالها وجمال ما فيها من مشرق
الشمس ومغربها مجلبة لسرورنا . ان اقتربنا من الله يزيد احساسنا
بما حولنا من جمال ويجعل كل شيء مصدر سعادة لنا . ليكن
شعارنا في الحياة الرضا والمرح .

لقد رسم كاربنتر الشاعر الانجليزي في احدي مقطوعاته
ما يفيض من الفرح والانشراح على من يحس حب الله يسرى في
نفسه ويأنس بقربه من جلاله وعظمته اذ يقول :
« انى لأصحو خارجا من ندى الليل فأهز جناحي .

لم يعد للدموع والنواح وجود . والحياة والموت محدودان
أمامي .

انى أشم عبير نسيمات الأثير الحلوة تهب من أنفاس الله .
ان حياتى عميقة عمق الوجود . هذا ما أعرفه معرفة لا ينتزعها
منى شيء . لا يستطيع شيء لى ضرا ولا أذى .
المرح والسرور يصحوان فأصحو أنا .
ترسل الشمس نحوى سهام ضيائها التى لا ترد فتخللنى نشوة
السرور بها فاذا جن الليل استنقذها منى .

انى أظير خلال الليل فأخترق جميع مجاهل العوالم ، والمفاوز
التي أختزن فيها الموت والدموع منذ القدم ، ثم أعود منها ضاحكا
مستبشرا ضاحكا .

انا نمخر عباب الفضاء تحت لمعان النجوم على جناحين أنا
والضحك الضحك الضحك « .

ان من يعرف الله حق معرفته وينعم بحبه متفائل أبدا .

انه ينظر الجانب المشرق للأشياء دائما .

انه يستخلص من أشد الأماكن ظلاما ضياء كالشمس .

انه يقطع مفاوز الحياة وعلى ثغره ابتسامة مشرقة وأغنية عذبة
قوى الايمان بالله .

انه يحب الحياة ويحمل دائما رسالة الأمل واليقين والاقدام .

انه واسع الأفق متسامح رحيم برىء من الحقد والحسد
والضغن بمنأى من الخوف والهم والغم ، انه لا يتعرض لما لا يعنيه
ولا يفرق بين أحد وأحد من الناس .

انه ملئء بالحب يفيض منه على الجميع .

انه يسير في دروب الحياة مستبشرا بما يلقاه ولو كان ما يلقاه
يبعث الرعب في قلوب غيره من البشر ، انه يتخطى العثرات ويجتاز
العقبات التي تعترضه في الطريق .

ان السلام الذى يكتنفه ينبعث من قرارة نفسه فيحسه من حوله من الناس .

انه لا يسعى لاجتذاب الأصدقاء والأحباء ، انهم ينساقون اليه بقوة جاذبيته .

انه فى أكواخ العمال وفى قصور الأغنياء كأنه فى بيته وبين ذويه لا فرق بين الكوخ والقصر ولا يفرق بين العامل والغنى .

انه أخ للقديس الورع والخطيئ الشريير يحبهما كليهما فهو يرى أن كلا منهما يعمل على شاكلته وأن كلا منهما ميسر لما خلق له . انه يبحث عما فى الشرير من خير وحسن أكثر من بحثه فى الورع عن مواطن الشر والضعف ولعلمه أنه غير خال من الشر ولا منزه عن الخطأ لا يقذف أحدا بحجر .

ان المنبوذ يرى فيه أخا له والمرأة التى جربت وذافت حنظل الخطيئة واكتوت بنار العار وذله تركزن اليه وتثق به لأنها تعلم أنه يقدر الظروف التى لا ترحم .

انه لن يحجب حبه عن أخ مهما انزلق فى مهاوى الشر ولا أخت مهما أظلمت الهاوية التى تردت فيها حتى يحجب الله رحمته وبره عن أشد الناس امعانا فى العصيان .

انه لا يدين أحدا فهذا عمل الله ولن تغتصب ما خص الله به نفسه .

انه يعمل ويتقن عمله ويجد في العمل مسرته .

انه يحب أن يبتكر شيئاً ينفع الناس تشبها بمبدع الأشياء .

انه لا يتعجل ولا يندفع لأن الوقت أمامه لا نهاية له . وهل

للأبد نهاية؟!!

ان ايمانه بالله لاحد له ولا حد لايمانه بعدل الله ورحمته . وانه

مصدر الخير كل الخير ولا شيء غير الخير .

انه يؤمن بقرب الله منه لأنه يحس يده تسنده .

انه أحس قرب الله منه في ظلام الليل فلما أشرق عليه نوره

تبينه فترة أقل من طرفة العين ولكن نار تلك الاشراقه تركت أثرها

في عقله .

انه مخلوق بسيط وادع شفيق ، انه نبوءة بالمستقبل . فاذا

شئت أن تصبح مثله ، اذا شعرت بالدعوة فلا تتردد ولكن أجب

الدعاء ليك ليك ليك . اللهم ليك انى عبدك بين يديك .

اذا أحسست الرغبة فلا تمنع ولا تعارض ولكن افتح للشمس

مغاليق نفسك وتقبل أشعتها وسيكون كل شيء خيرا . لا تخف

وتجمل بالحب الذى يقصى عنك الخوف ، ضع قلبك في يد الله وقل

« اللهم اهدنى . انك بعد آجال من الطواف تعود الى موطنك » .

لعلك تحسب أنك تحب الله ؟ تعلم كيف تحبه ، اصغ الى هذه

الأقصوصة ثم انظر ان كنت تحبه حقاً .

حدث ذات يوم أن أقبل تلميذ على أستاذه يسأله أن يعلمه
آخر مراحل بارا (بهاكتى) وأسمائها لأنه فى غير حاجة الى تعلم
مراحلها الأولى لأنه قد حذق معرفة الله وعرف كيف يجب .
وأجاب الأستاذ تلميذه بابتسامة .

وعاد التلميذ مرة بعد مرة يلحف فى الطلب ولا يظفر من الأستاذ
بغير الابتسامة . وأخيرا فقد صبره وأصر على أن يعلم من أستاذه
تفسير هذا المسلك الذى التزمه معه .

عند ذلك أخذ الأستاذ تلميذه الى نهر عظيم فدفعه فيه حتى
غمره الماء . والتلميذ يحاول أن يتخلص من قبضة أستاذه وأن يطفو
على وجه الماء ليتنفس فقد أوشك على أن يختنق فلما أشرف على
الغرق تركه الأستاذ فخرج يملأ رئتيه بالهواء فلما استرد أنفاسه
سأل أستاذه عن سبب ما فعل به فقال له :

أى بنى أى شىء كان أحب اليك عندما كنت تحت سطح الماء ؟
قال التلميذ : نسمة هواء .

قال الأستاذ : اذا أصبح حبك لله ورغبتك فيه كحبك لنسمة
الهواء واشتغائك لها عندما كنت تحت الماء فعند ذلك فقط تصبح
أهلا للمرحلة العليا من اليوجا التى تطلبها وعند ذلك فقط تكون
محببا حقا لله .

وليكن السلام لكم .

الدرس الثامن

دارما (Dharma)

دارما كلمة سنسكريتية تترجم بكل من الكلمات الآتية :
فضيلة . واجب . قانون . استقامة .

وما من كلمة من هذه الكلمات تحمل المعنى الدقيق لكلمة دارما . ونحن لا نستطيع أن نعدل هذه الترجمة الى ما هو خير منها ولكننا لكي نستطيع أن نلتزم أقرب تعبير عن معنى هذه الكلمة سنستعمل في درسنا هذا عبارة (العمل الصالح) ولكن المعنى بالتحديد لكلمة (دارما) هو (خير طريقة للعمل والحياة تلائم حاجات روح الشخص وتفي أحسن الوفاء بمساعدة تلك الروح بالذات في الخطوة العظمى التالية في تطورها) .

فعندما نتحدث عن (دارما) انسان ما تقصد أرفع طريق للعمل يجب أن يسلكه . الطريق الذي يناسب درجة نضجه وحاجات روحه .

نحن نعتقد أن هذا الدرس قد آن أوانه وأن فيه اجابة لطلبات الكثير من الطلاب . نحن نسمع هذا السؤال من كل جانب : ما هو الحق ؟

ان الناس لا ترضيهم الاجابات القديمة التي كانت تناسب
الماضى والتي كانت تسوى في الأهمية بين بعض الشكليات
والطقوس والتقاليد (المرعية) وبين العمل الصالح والتفكير
الصحيح ان لم تفضلها عليها .

ان الباحث الحصيف الناضج يبين لنظره سخف التقسيم القديم
بين الحق والباطل ويعلم أن أشياء كثيرة باطلة اعتبرت (باطلا)
أو (حراما) لأن رجالا مخصوصين حكموا استبدادا عليها بأنها
باطلة وان أشياء كثيرة اعتبرت حقا أو حلالا لنفس السبب .

ينظر حوله فيرى أن الحق والباطل يختلفان باختلاف المكان
وان تقدير الحق والباطل يتغير باستمرار على مر العصور بالتعديل
والالغاء ولهذا فان الطالب اليوم يتعرض للحيرة فيما يتعلق
بمستور الاخلاقيات فقد ضاعت منه القيم والمقاييس والمعالم
القديمة وليس يدري بأى ميزان يزن الحق والباطل أو الحلال
والحرام فيفرق بينهما .

فهو من جانب يجد الفلسفات القديمة تقرر مراعاة شكليات
واتباع طقوس استبدادية لا يقرها العقل وتأبأها الروح لأنها سمت
عن مستوى تلك الترهات .

وهو مع ذلك لا يستريح لما يسمعه من الجانب الآخر جانب
المحدثين الذين يقولون ان (كل شيء حسن وصالح) وكثيرون من

هؤلاء المحدثين لا يدركون معنى هذا القول ، وهذه النظرية أو الفلسفة الحديثة لا ترضى الطالب العادى فان فطرته ووجدانه يدلان على أن هناك أشياء سالحة وأخرى سيئة وان من الطرق ما هو خير ومنها ما هو شر ولو أنه لا يستطيع أن يحدد السبب الذى يعتبر من أجله الشئ خيرا أو شرا ، انه فى حيرة من أمره .

ومما يزيد حيرة على حيرته أنه يدرك ادراك اليقين أن ما يبدو له حقا صراحا لا يبدو كذلك للبعض ممن حوله الذين لم يبلغوا مبلغه من صفاء البصيرة فلا يستطيعون أن يؤمنوا بما آمن به من مثل ومبادئ .

وهو يتبين أن ما قد يكون سالحا لهؤلاء الذين لم يبلغوا مبلغه لأنه خير مما يعملون يكون سوءا بالنسبة له ان فعله فقد ارتد على عقبيه ومن ارتد فقد ساء سيلا .

وشئ آخر : انه يرى هؤلاء الرجال الذين لم يتقدموا على الطريق يعملون الحسنة ويمتنعون عن السيئة طمعا فى عشرة أمثال الحسنة وخوفا من العذاب أن قارفوا السيئة وذلك فى نظره أنانية لا تجعل بمن يعمل الحسنة لأنها حسنة والاحسان للاحسان لا يبنى جزاء ولا شكورا وهو مع ذلك يسلم بضرورة احتياج هؤلاء المتخلفين الى ما يحفزهم للخير والى ما يمنعهم عن الشر لأنهم لا يسمون الى ما فوق ذلك من دوافع .

هذه المشاكل ، وغيرها مما لا يحصى ، تقوم في وجه الطالب فتحيره وتجعله يشعر بأن ما كان يقف عليه من ركائز الايمان قد ماد تحت قدميه دون أن يجد عنها بديلا يرسى عليها أقدامه ونحن نعتقد أن هذا الدرس المتواضع من فلسفة اليوجا الذى يطلق عليه (دارما) سيساعده على أن يتلمس طريقه . انه سيسدد خطاه على الطريق الذى أخفته عن ناظره في وقته هذا ومرحلته هذه أشواك نمت على الطريق حتى حجبتة فضل عنه . ولئن كان الموضوع أكبر بكثير من أن نلم بأطرافه في هذا المقام فائنا نرجو أن نوفق لتحديد القليل من القواعد العامة والخطوط العريضة والمقدمات التى يستطيع الطالب أن يسير عليها ويقتفى آثارها حتى يصل الى نتائجها المنطقية المحتومة .

فلننظر نظرة موجزة خاطفة الى مسألة الاخلاقيات عامة Ethics وبعض النظريات أو المبادئ المقررة فيها .

الاخلاقيات أو الأخلاق تعرف بأنها (علم السلوك) وهى تعالج مشكلة جعل العلاقات بين الرجل والمجتمع منسجمة ، وفي الغرب ثلاث نظريات هى :

أولا — نظرية الديانات المنزلة والسلطان فيها لله .

ثانيا — نظرية الالهام والسلطان فيها للضمير .

ثالثا — نظرية المنفعة والسلطان فيها للعقل .

والمتبع في الغرب أن صاحب كل نظرية من هذه النظريات
الثلاث يؤمن بأن مذهبه هو وحده الحق وما عداه هراء ، أما
فلسفة اليوجا فانها ترى الحق في كل من هذه النظريات والمذاهب
على السواء ولكل منها مكانه فيما تسميه (العمل الصالح)
(دارما) وحتى نكون فكرة صحيحة عنها يجب أن نلقى نظرة عاجلة
فاحصة على كل من هذه المذاهب الثلاثة .

(فالأخلاق) عند أصحاب الديانات المنزلة تجعل أساس طهارة
السيرة والاحسان (نقصد حسن السيرة لا الصدقة) ما أنزل الله
على الأنبياء والرسل ومن تبعهم من الكهنة والشيوخ والأستاذين
وان اختلفت أسماؤهم ونحلهم .

والشرائع والسنن التي رسمها الأنبياء نزلت عليهم وحيا من
عند الله وقوبلت بالسمع والطاعة على درجات متفاوتة من ايمان
الشعوب بها في مرحلة أو أخرى من مراحل تطورها ، ومع اختلاف
كبير في تصور هذه الشعوب لله الذي أنزل تلك الشرائع والذي
من عنده نزلت .

وهذه الشرائع جميعا تشابهت الأسس التي أرسيت عليها وان
اختلفت التفاصيل اختلافا شديدا .

فكل من الكتب السماوية الكبرى جاء بمجموعة من الشرائع
والقوانين شاملة لمبادئ الأخلاق فرض على المؤمنين الايمان بها

وتصديقها والعمل بموجبها لا جدال فيها ولو لم تقرها أو بعضها
عقولهم وتفسير هذه الشرائع متروك لأئمة الدين دون غيرهم من
الشعب .

يرى كل قوم أن دينهم الذى نزل به كتابهم على الرسول الذى
بعث فيهم هو دين الحق وأن الدين كله بعد دينهم باطل . ومع ذلك
فقد اختلف كهنة كل دين فيما بينهم واختلف شيوخ كل دين فى
تفسير نصوص كتابهم ، وأدى اختلافهم الى أن أصبح كل دين
شعبا ومذاهب ، وتباينت الآراء فى تفسير كل شيعة لما أنزل عليهم .
وتصر كل شيعة على أن تفسيرها هو الصحيح الذى يستند الى
ما أنزل على رسولهم وأن هذا الذى أنزل هو وحده الحق .

ومع الزمن والتطور عادت كل شيعة الى ما بأيديها فحرفت
الكلم عن مواضعه ليلائم التطور الذى وصل اليه الشعب ، فحاجات
كل شعب تتغير مع تطوره ، ولا بد أن تأخذ التعاليم الشكل الذى
يناسب الحالة بعد أن تبدلت . فيقول الشيوخ ويقول الكهنة فى
هذه الحالة ان الله أراد بهذا القول (كذا وكيت) لا (كيت وكذا)
كما قال السلف أو كما يظن أنهم قالوا ، ومع مضي الزمن تصبح
مبادئ الأخلاق وقواعد السلوك وقد استندت على التفاسير
لا على ما أنزل .

ويحتج أتباع المذهبين الآخرين — مذهب الالهام ومذهب

العقل – على ما انتهى اليه أمر أصحاب الديانات السماوية بقولهم: لو أن الله أراد أن ينزل دينا بقانون للأخلاق والسلوك يطبق على جميع الناس في جميع العصور لوضعه في صيغة واضحة جلية لا يستعصى ادراكها على أشد الناس غباء وجهلا ، وأنه سبحانه يعلم من غير شك أن البشر يتطورون مع الزمن وان حكمته سبحانه وعلمه بما سيحتاج اليه الناس من تطور في قانون السلوك كانت تقضى بأن يضمن ما أنزل ما يحتاج اليه الناس في مستقبلهم وقت نزوله على الرسول أو في رسائل متواترة . وسنعود الى بحث هذا المذهب فيما بعد .

ونتقل الى النظرية الثانية نظرية الالهام .

يرى أصحاب هذا المذهب أن الانسان يعرف الخير والشر بالالهام وأن الله جعل في كل انسان قدرة غريزية تميز الخير من الشر ومركز هذه المعرفة الضمير وأنه بدافع من ضميره يتحكم في نفسه .

وهذه المدرسة تقول بأن كل انسان يجب أن يحكم ضميره في تصرفاته جليلها وتافهها ، متجاهلة حقيقة مسلما بها هي أنه لا يمكن أن ينطبق ضميران لشخصين مختلفين على بعضهما تمام الانطباق . والأخذ بهذا المذهب من شأنه أن يجعل عدد مبادئ الأخلاق بعدد أفراد المجتمع ، لأن لكل فرد ضميرا يختلف كثيرا أو قليلا عن

ضمير الآخر ، ويتبع ذلك أن تختلف المثل العليا ويتسع الخلاف الى ما لا نهاية له وبذلك يكون لأى فرد أن يفعل أى شىء ما دام (ضميره يرضاه) لأن الضمير عنده هو الناموس ، وقد اختلف أصحاب المذهب أنفسهم في تحديد الضمير وماهيته .

فقال جماعة ان الضمير هو الجانب الرفيع من العقل يتحدث الى الانسان .

وقال آخرون انه العقل الباطن يردد ما ألقى اليه وان الضمير لذلك يزداد وينمو مع التجارب والخبرة وانه يتغير بتغير البيئة .
وقال آخرون انه صوت الله يتحدث الى الروح .

وقال غير هؤلاء بغير هذا مما سنعود الى تفصيله فى مكان آخر .

أما أصحاب المذهب الثالث والأخير أصحاب نظرية المنفعة التى تسمى أحيانا بالمذهب النفعى فهم يقولون بأن الفضيلة هى ما تمليه المصلحة ، وقيل فى تعريفها (سعادة الأغلبية يجب أن تكون أساس جميع الدساتير الاجتماعية والسياسية) وهذه هى النظرية التى تبنى عليها القوانين الوضعية . وقد قال بلاك ستون الشارح الكبير للقانون الانجليزى ان القوانين البشرية وضعت على أساس (قانون الطبيعة) The law of nature ، وهو يقول ان قانون الطبيعة هذا يرتكز على القوانين الالهية ، القوانين الازلية التى لا تتبدل .

ولا تتغير ، قوانين الخير والشر التي جعل الله الانسان يدركها بعقله . ويستمر بلاك ستون فيقول ان قانون الطبيعة هذا لأنه خلق مع الجنس البشرى موازيا له ولأنه من وضع الله سبحانه ، له السيادة والأسبقية على كل ما عداه . وليس لأى قانون بشرى وضعى قيمة ولا اعتبار اذا تعارض مع قانون الطبيعة . وان كل قانون من هذه القوانين البشرية ان كان سليما (valid) انما يستمد كل قوته وكل سلطانه مباشرة أو بالواسطة من هذا الأصل .

هذا كله يبدو سهلا جميلا يستدرج الانسان الى أن يعجب لأمر هذه المدنية كيف لا تجعل الحياة على الأرض نعيما حتى اذا تذكر كيف تسن القوانين فى هذا العصر الحديث وكيف تنفذ وعلم انها ما هى الا قوانين العصور الماضية مع تحسين بسيط زال عجبهم انه لسهل أن تتحدث عن (قانون الطبيعة) ولكن ما أعقد تطبيق هذا القانون على واقع الحياة وتنفيذه فيها ، وقد تبين بلاك ستون هذه المعضلة فهو يقول : (لو أن عقلنا كان دائما صافيا كاملا لكان الأمر سهلا وجميلا ولما احتجنا دليلا سواه وهاديا . ولكن الذى انتهى اليه الانسان بعد التجربة والاختبار هو أن العكس هو الصحيح . ان عقله غير صاف ، انه مشوش التفكير خاطيء الفهم والتقدير ملىء بالأخطاء يسوده الغباء والجهل) .

ان من خبر شئون القضاء واجراءات المحاكم يتفق مع الفقيه الانجليزى الكبير فيما وصل اليه من الحكم .

صحيح أن قوانين أية أمة إنما هي صورة لخير ما وصلت إليه
ثلها الأخلاقية ، ولكن صحيح أيضا ان هذه المثل الأخلاقية تتطور
سرعة أكبر من السرعة التي تعدل بها القوانين . ولذلك فإن هذه
لقوانين تكون دائما متخلفة عن الوقت الذي تطبق فيه بالنسبة
لا يراه الناس صوابا وما يرونه خطأ ، انها دائما متخلفة عن الرأى
العام ، وهذا التخلف يجعل فى القانون منافذ ينفذ منها من يريد
الخروج على القانون اذا أراد أن يعتدى على أى من مبادئ
الأخلاق التي تطور اليها المجتمع بدون أن يقع تحت طائلة القانون
لقصوره عن تناوله لأنه — كما قلنا — متخلف لم يدركه التعديل
الذى يجعله ينطبق على هذا الخارج عليه . يرى بعض
الناس فى الأخلاق رأيا يلتزمون به ، ذلك الرأى هو أنه لا خطأ
ولا ذنب فيما لا يتعارض مع حرفية القانون ، وهم لذلك يدبرون
ويأترون مستندين الى المستشار القانونى البارع الذى
يستخدمونه ليصلوا الى أهدافهم بما يصون نص القانون وهم
ينتهكون روحه ، وما دام القانون لا ينال تصرفاتهم بالعقوبة فهم
فى نظر أنفسهم شرفاء تستريح ضمائرهم الى ما اجترحوا ما داموا
آمنين غائلة القانون .

لقد حدد جستنيان المشرع الرومانى العظيم القانون البشرى
فى ثلاث نقاط :

أن تعيش بأمانة . ألا تضر أحدا . وأن تعطى لكل ذي حق حقه .
هذا قانون بسيط جميل واتباعه بأمانة كفيلا بأن يصلح العالم
في يوم وليلة . ولكن كل انسان يفسر كل مبدأ من هذه المبادئ
الثلاثة بما يتفق ومصالحته الخاصة ولو تعارض التفسير مع مصالح
الغير . وانه لمن العسير على الانسان في حالة العالم هذه أن يحدد
تحديدا دقيقا كيف تكون الأمانة التي بموجبها يتحاشى الانسان
الاضرار بالغير ، أو التي بانتهاجها يعطى كل ذي حق حقه ، أو حتى
معرفة ما لكل واحد من حقوق حتى يعطيها له .

على أننا نشير مرة أخرى الى ما وضعه جستنيان قاعدة لمدى
ادراك العقل للسلوك القويم فهي قاعدة يقرها كل لب سليم
يريد أن يبرىء ذمته من حق كل ذي حق وان لم يسم الى الآفاق .
العليا لتعاليم الطريق .

ولكن حتى أولئك الذين يستطيعون أن يسيروا السيرة التي
رسمها جستنيان يجدون أنفسهم عاجزين عن ارضاء الناس الذين
يتطلبون مراعاة بدع كثير منها يدعو الى السخرية ولكنها بدع
أدخلت على الشرائع الواجب اتباعها ولا نريد أن نتعرض لما توجبه
السلطات المدينة بأوامرها ونواهيها . وأصحاب فلسفة المنفعة هؤلاء
يختلفون فيما بينهم في أصل قواعد الاخلاق وتاريخها ونشأتها .
فيقول بعضهم ان هذه الاخلاق أقرها العقل بتوجيه الله وأمره بينما

يقول البعض الآخر مؤثرا التفسير المادى البحت ان القانون والتقاليد والأخلاق انما هى وليدة تطور الانسان ونتيجة تجاربه تجربة بعد أخرى ، كل منها تعدل ما سبقها الى أن وصل الانسان الى ما هو عليه الآن . وواضح أن هذا البعض يرى أن القانون والتقاليد والفضائل انما مرجعها كلها العقل البشرى ، لا أثر فيها لقانون سماوى ولا لوحى الهى ولا لمعرفة روحية . وأمام هذه المدرسة وخير من شرح قواعدها العالم الانجليزى هربرت سبنسر فى كتابه حقائق الأخلاقيات The data of Ethics فانه تحفة خالدة فى البحث العقلى على هذا الأساس .

(دارما) تعترف بالمذاهب الثلاثة وتحل كلا منها محلا كريما فى اعتبارها لأنها ترى فى كل منها قبسا من الحق ، وترى أن ثلاثتها ان مزجت ببعضها وربطت بينها التعاليم الروحانية كونت كلا مترابط الأجزاء . وسنبين كيف تتلاقى هذه النظريات ، المتباينة فى ظاهرها ، وتتفق . ولكن لعله من الخير قبل هذه المحاولة أن نلقى نظرة أخرى على كل من هذه المذاهب نحل فيها ما يوجهه كل مذهب الى المذاهب الأخرى من انتقاد وطعن فى صحتها واتهام لها بأنها قاصرة عن الكمال المنشود لنصل بعد ذلك الى ما فيها جميعا من قوة اذا اتحدت تمشت مع قوانين (دارما) . وسنأخذ هذه المذاهب واحدا بعد واحد حسب ترتيبها :

١ - نظرية الوحي (الكتب المنزلة) :

الاعتراض الأساسي الذي يوجهه خصوم هذه النظرية من أنصار المذاهب الأخرى إليها هو أنه ليس هناك دليل أو برهان على صحة الوحي .

يقول أصحاب مذهب العقل والمنفعة ان هذه الأوامر السماوية ان كانت تتفق مع مصلحة الشعب لا مع مصلحة الكهنة الخاصة - فهي نتيجة تفكير النبي السليم ذلك النبي الذي كان عملاقا يميز معاصريه من بني جنسه في عقله وتفكيره ، وان ذلك العقل الجبار أدرك ما فيه الخير لشعبه ، وانه صاغ بثاقب ادراكه مجموعة من الأوامر والنواهي قائلا انها هبطت عليه من عند الله ليكون تقبل الناس لها وائتمارهم بأمرها وابتهاؤهم بنهيها أتم مما لو قال انها من أمره ونهيه .

ويقول أصحاب مذهب الالهام أن ما يسمى بالوحي والشرائع السماوية انما ينبع من ضمير النبي وبالهام روحه وان النبي وهو انسان بلغ من التقدم الروحي ما لم يبلغه معاصروه كان أكثر استماعا الى صوت روحه منهم الى أصوات أرواحهم وانه كان يعتقد أن صوت ضميره وحديث روحه هو صوت الله ووجيه ، ولذلك فانه كان يبلغ رسالته للناس على أنها من عند الله وكان معاصروه يجدون لما يقوله صدى في ضمائرهم فيؤمنون بما أبلغهم على أنه وحي الله حقا .

واعترض آخر يوجهونه الى نظرية الوحي : ذلك أن هناك أكثر من وحي ، وان كل وحي يختلف عن الآخر اختلافا بينا وان كل نبي واتباعه يختلفون مع النبي الآخر وأتباعه ، وان الله سبحانه لو أراد أن يرسل وحيا للناس فيه ما يعملون وما لا يعملون ، يبين فيه الحسنة والسيئة فيتبعون الحسنة ويمتنعون عن السيئة ، لأرسل وحيا واحدا لا خلاف فيه ، وحيا من السهل أن يعرف الناس انه وحي .

ويمضي الاعتراض فيقول : انه من المستحيل التسليم لاحدى هذه الديانات الموحى بها بأنها هي الحق دون غيرها لصعوبة اختيار واحدة من هذه الكثرة من الديانات ، لأن نبي كل ديانة يصر على أنه تلقى الوحي من الله ، وليست هناك محكمة عليا لها الكلمة النهائية في الفصل بين هذه الديانات المتنافسة .

ويقولون ان بعض الأوامر التي تنسب الى الله ليس فيها ما يمت الى الأخلاق بصلة ، وانما هي تتصل بشكليات في شئون الناس كطريقة ذبح الحيوان مثلا ، وتحديد ما يؤكل من الأطعمة وما لا يؤكل ، وطقوس مختلفة للعبادة واحتفالات دينية وغير هذه كثير مما توجه الأديان وتلزم الناس باتباعه على أنه من الدين والأخلاق وان اتباعه حلال واهماله حرام وللحلال ثواب وللحرام عقاب .

كذلك يقولون ان الأوامر السماوية تجعل قتل الأعداء في وحشية تمنعها القوانين الدولية الآن عملاً من أعمال البر والتقوى والتقرب الى الله ابتغاء مرضاته وهو الآن عمل همجى لا تقارفه الا الشعوب البدائية المتوحشة .

ويقولون ان ضمير الانسان الآن أصبح فى مستوى أعلى من المستوى الذى رضىه الله للناس ويضربون المثل بالرق وغيره مما يسوقونه ضد الديانات السماوية بالاضافة الى اعتراضهم الأساسى وهو ان لا دليل على صحة الوحى ، وأن ما سُمى بالوحى ما كان الا نابعا من عقل النبى وأنه أذيع بين الناس اما لمصلحة الناس ورخائهم واما لحفظ نفوذ الكهنة ورجال الدين والابقاء على مصالحهم أو للسببين معا .

وفلسفة اليوجا تبحث هذه الاعتراضات وتجب عليها كما سنرى فيما بعد .

٢ - مذهب الالهام (الضمير) :

والاعتراض الأساسى الذى يوجه الى هذا المذهب هو أن الضمير انما هو نتيجة لما بلغ الانسان من علم يتأثر بما للبيئة والجنس والتهديب والسن وغير ذلك من أثر فيه . وأن ضمير انسان قد يمنعه من قتل بعوضة بينما يرى انسان آخر غاية الصواب فى قتل عدوه والتمثيل به . وان الضمير قد يدفع صاحبه الى أن

يتقاسم ما بيده مع أول عابر سبيل ويرى أنها خطيئة أن يحتفظ
لنفسه بملكية شيء مهما قلت قيمته بينما يبيع ضمير النشال
واللص اقتناص كل ما تصل اليه يده من مال الغير وربما أنبه
ضميره وأقض مضجعه لأنه ترك فرصة للسرقة تفلت من يده .

فمن الناس من لا يختلف ضميره عن ضمير الهرة التي لا تجد
حرجا في سرقة قطعة لحم أو جبن لا يمنع من خطفها الا خوف
العقوبة .

ان من درس طبيعة البشر وتاريخ الشعوب يعلم أن الضمير
مرتبط بالجنس والعصر والحضارة والبيئة حتى انه ليرفض أن
يجعل ضمير أى انسان العمدة في وضع قانون للأخلاق للانسانية
قاطبة تسير عليه كل الشعوب في كل العصور .

فقواعد الأخلاق التي توضع استجابة لالهام ضمير رجل غير
متحضر تكون بعيدة كل البعد عن أن تصل الى مستوى الرجل
العادى فى عصرنا هذا . بينما تكون القواعد التي يملها ضمير رجل
صفت روحه وحلق فى سماء التقوى أرفع بكثير من مستوى الرجل
العادى أيضا لما توجهه من مثل عليا يملها ذلك الضمير الرفيع . وكم
من أعمال قارفتها الشعوب ارضاء لضمائرهما ونحن نرى فيها اليوم
ذنوبا لا تعتفر . كم عذب الناس فأحرقوا أحياء ومزقت ألسنتهم
وجلودهم لعقيدة يعتقدونها فذاقوا النكال ارضاء لضميرهم بينما

معذبوهم ومضطهدوهم يصبون ألوان العذاب ارضاء لضميرهم هم الآخرون .

إذا ترك الحكم للضمير كانت النتيجة أن تديق الغالبية الأقلية سوء العذاب كما يحدثنا التاريخ كلما استمعنا الى حديثه ، واذن فنظرية اعطاء السلطان للضمير والهامة على أنه السلطان الذي لا يخطيء والواجب الاتباع نظرية عليها ألف مطعن ومطعن ، ومع ذلك فان فلسفة اليوجا (دارما) مع اقرارها بصحة تلك المطاعن ترى هذه النظرية صحيحة من نواح ، وهى لذلك تدخلها فى حسابها وتدمجها فى جهازها وسنبين ذلك بعد قليل .

٣ - نظرية العقل (المنفعة) :

وهذه النظرية الثالثة الأخرى يهاجمها خصومها لأنها مبنية على الأنانية وحب الذات ، لأنها تقول ان أساس الأخلاق يجب أن يكون السعادة - سعادة الفرد مشروطة بسعادة من حوله - سعادة أكبر عدد لأقصى حد ، وهذا أساس لا يعنى بالمصير الأعلى للإنسان لأنه مبنى على الماديات الدنيوية دون السعادة الروحية .

ويرد أصحاب هذه النظرية بأن كل نظرية أخرى فيها الكثير من الأفانية وحب الذات وان الرجل الذى يرغب فى أفعال ويعرض عن أضرارها ابتغاء مرضاة الله وما فى أذيال ذلك من نعم وبركات أو فردوس وجنات ، وافتقاء غضب الله وما يجره من عذاب وجحيم ،

انما يفعل ذلك مدفوعا بأنانيته شأنه شأن من يسعى لكسب السعادة
الدنيوية ويتقى الشقاء في هذه الحياة .

وخصوم هذه النظرية يهاجمونها بقولهم ان الانسان في سعيه
وراء ما ينفعه يندفع حتى يحتفظ لنفسه بالكثير فيسعد هو ويشقى
غيره ، وما الذى يمنعه من ذلك ما دام ينفذ القانون حرفيا لا يحيد
ولا يزيد . والقانون يبيح له ما يفعل .

ويقولون كذلك ان هذه النظرية وان كانت تليق بالانسان في
مراحل الصفاء الروحي ، الا أن الرجل العادى ان سار عليها جعلها
مطية لأهوائه ، غير عابىء بمصلحة غيره ولا بمصلحة الأجيال
القادمة . فهو يرى في الرجل الذى يضحى بمصلحته لأهداف الخير
والانسانية أبله أو معتوها لأنه يلقى بسعادته في الهواء استجابة
لنزوة أو جريا وراء خيال .

وكذلك يقول خصوم هذه النظرية ، نظرية سعادة أكبر عدد ،
ان وجود القلة البائسة المحرومة من السعادة وصمة في جبين هذه
النظرية ، وان سعادة الكثرة لا يمكن أن تكون سعادة حقيقية
صحيحة وعلى مرأى من الكثرة تلك القلة المعذبة مهما قلت ولو
كان المحروم من السعادة انسانا واحدا .

ويقول أصحاب الديانات السماوية ان كفر أصحاب هذه
النظرية بالله وانكار وجوده كاف لهدم هذه النظرية . ويقول

أصحاب الالهام (الضمير) بفساد هذه النظرية لاهمالها للضمير ،
وجعل الحكم للمصلحة والمنفعة فقط ، وجعل العقل وحده هو
الذى يحكم على شىء بأنه صواب أو خطأ مع أن العقل ينظر الى
الأشياء نظرة تختلف باختلاف العصر والبيئة ودرجة الحضارة
والمصلحة الشخصية وغير ذلك من المؤثرات التى لا تستقر على حال.
وفلسفة اليوجا (دارما) تنظر الى هذه المآخذ جميعا بعين
الاعتبار ولكنها ان رأت أن نظرية العقل ليست هى كل الحقيقة فان
لها من الحق نصيبا ، انها أحد الأعمدة الثلاثة التى يرتفع عليها
صرح الحق ، وهى ترى أنها والنظريتين الأخرين دعائم الحق
لا غنى لواحدة عن الأخرى .

دارما تقول انها تستطيع التوفيق بين هذا التناقض والتناهد
فهى تعرف أن كل نظرية صحيحة من ناحية وتستطيع أن تنهض
بجزء من العبء ولكنها بمفردها تعجز عن القيام بالعبء كله . فهى
تأخذ من كل نظرية شيئا فتبنى من هذه الأشياء مجتمعة بناء كاملا
متماسك الأركان وبذلك توفق بين النظريات المتعارضة .

أوهى ترى فى الكون بنيانا كاملا وانما لا يرى أصحاب كل
مذهب من ناحيتهم الا الدعامة التى يقوم عليها جانب من جوانب
ذلك الكيان الكامل فيظنونها الدعامة الوحيدة للبناء كله ولا يرون
دعامتى الجانبين الآخرين فيجحدون وجودهما ويتهمون من
يتحدثون عن أيهما بالجهل والكفر .

وهكذا ينظر أصحاب كل من المذهبين الآخرين الى مخالفيتهم
ويتهمونهم بنفس التهمة ولكل منهم بعض العذر لأنه يرى جانبا
واحدا يظنه الكل وما هو الا جزء فقط .

وشعوب الغرب اليوم فى أشد الحاجة الى تعاليم (دارما)
هذه لما هم فيه من اضطراب روحى وعقلى وخلاف على مثل
الأخلاق وآداب السلوك ، فهم شيع ثلاث :

الأولى - الذين يؤمنون بالأديان السماوية ولا يعملون
بتعاليمها لأنها على حد قولهم تعاليم غير عملية وغير قابلة للتنفيذ ،
وهذا الفريق فى الواقع يؤمن بالوحي معدلا بما يتفق مع العادات
والتقاليد الخاصة بكل عصر ومبلغ تقدم أهله .

الثانية - الذين يقولون بالتقيد بالضمير والالهام ولكنهم
يخسرون أنهم لا يستندون الى أساس متين ولذلك فهم يخضعون
لقانون بلادهم وما تمليه عواطفهم ويرضى احساسهم .

الثالثة - الذين يستندون الى العقل دون غيره مسترشدا
بهدى القانون الوضعى ويتأثرون لحد بعيد بما يشرق عليهم من
آفاق العقل العليا من لمحات وان كانوا ينكرون وجود هذه الآفاق .

ان لنا أملا أن يكون فى دراسة (دارما) ما يساعد على وضع
الأمور فى نصابها بالنسبة للبعض . صحيح أن هذا الدرس الصغير
ما هو الا اشارة وجيزة الى دور (دارما) وحقائقها ولكننا نظن

أنه سيكون لا يوضح الأمر للبعض ويجعل من السهل تحديد موقفهم من هذه التيارات المتعارضة التي تتقاذفهم ، تيارات هذه النظريات الثلاث . فلننظر ماذا لدى الدارما من قول .

انا في هذه الدراسة الموجزة نرجو الطالب أن يهنا أفقا واسعا من عقله ، تقصد أن يترك — لفترة قصيرة — ما يؤمن به من قبل من نظرية أو مذهب وأن يستمع اليها استماعا مجردا من التأثير بعقيدته الأصلية ونحن لا نطلب اليه أن يعتق تعاليمنا — اللهم الا اذا اقتنع بها وأقرها عقله والهامة . نريد منه استماع القاضى غير المتحيز لا استماع المحامى الذى يتلمس السقطات قبل أن تتم سرد ما نريد من نقاط القضية فى كل جوانبها ، ذلك ما نريد وليس هذا أكثر مما يسير عليه الطلاب الراغبون فى العلم حين يقبلون على الدرس والتحصيل ، انا لانملى على أحد ما يجب عليه أن يفعله ولكننا نبسط أمام الطالب المبادئ العامة (للدارما) .

ولعل خير طريق لعرض فلسفة الدارما أن نوضح وجهة نظرها ورأيها فى هذه المذاهب الثلاثة التى تركز عليها مبادئ السلوك والأخلاق فنأخذها مذهباً بعد مذهب ، ولكن قبل ذلك نود أن يكون ماثلا فى ذهن القارئ دائما الفكرة الأساسية فى فلسفة اليوجا وهى أن الأتفس جميعها تنمو وأنها تتفاوت فى الدرجة التى بلغت على الطريق ، وأن التطور الروحى الدائم دائب لا تفتقر

حركته ، وان كل نفس تبنى على ماضيها أساس مستقبلها وأن ماضيها يمتد من حياتها الراهنة هذه الى حياة تتلو حياة في المستقبل يكون للنفس فيها جسد بعد جسد كما كان لها في الماضي جسد قبله جسد .

ليست الحياة مجرد وجود النفس في الجسد أعوام العمر في هذه المرحلة من الوجود . للنفس أمس سبق وجودها هذا ، سبقه أمس متكرر بلا عدد . ولها غد بعده غد الى ما لا نهاية في الأبدية يرتفع بها كل غد الى مستوى أرفع من سابقه في حلزون دائر مرتفع لا نهاية له .

نحن لا نصر على الايمان بهذه الحقيقة ولكننا نذكرها ليتضح لك أن النفوس التي حولك في الرجال والنساء تختلف في درجة ارتقائها على سلم الوجود وان كل نفس لها درجتها التي بلغتها من الارتفاع على ذلك السلم ، وان اختلاف المرحلة التي تجتازها كل نفس عن المرحلة التي تجتازها غيرها في الارتفاع ، يتبعه اختلاف في حاجات كل نفس عن حاجات غيرها .

ويرى اليوجي أن تقدم المثل العليا للأخلاق والمعاملة والسلوك ايدان بأن العقيدة الخاطئة في انفصال كل نفس عن غيرها واستقلالها بكيانها قد بدأت تسير نحو الزوال وان فجر الوعي والاحساس بالوحدة قد بدأ يطلع على العقل البشرى ، وعلى ضوء فجر هذا

الوعى بدأ الناس يرون أخطاء كانوا هم وأسلافهم يرونها صوابا ،
وأصبح الانسان يشعر بالآلام أخيه الانسان ويحزن لحزنه ويفرح
لفرحه ، لقد أصبحنا أكثر تأثرا بما حولنا وبمن حولنا اذ صرنا
نشعر بما يربطنا بالغير من صلة لا انفصام لها . هذا هو سبب تزايد
الشعور بالأخاء الذى يبسط جناحيه على الانسان فى هذا العصر
وان كان القليلون فقط ممن غمرهم هذا الشعور يدركون سر
التحول .

ان تقدم النفس وارتقاءها نتيجة ارتقاء الفكر البشرى وسمو
المثل العليا للانسان وهو السر فى تطور معايير الأخلاق ومفاهيمها ،
ذلك التطور الذى يراه من يدرس التاريخ ويستطيع ملاحظة
مميزاته فى مختلف الأعصر ، وفهمنا الصحيح للدارما يمكننا من
دراسة الأخلاقيات دراسة مقارنة تعصمنا من أن ندين أخوتنا فى
البشرية أولئك الذين يعيشون على مستوى منخفض عن مستوانا
ويقدسون مبادئ للأخلاق ما زالت غير مهذبة اذا قيست على
مبادئنا . فكلما ازدادت النفس صفاء وتقدما ازدادت المثل الأخلاقية
ارتفاعا وتهديبا ، لأن تفتح النفس يكشف لها عما فى المثل الموروثة
من غلظة وقسوة يجعلها تنحيا لتختار ما هو أرقى منها وأليق بها
بعد أن كانت تعتبرها صالحة فى مرحلتها السابقة . على هذا الأساس
نبدأ بحث مصادر السلوك الثلاثة .

تعترف فلسفة اليوجا بالوحي السماوى واحدا من أعمدة
الدارما الثلاثة ، وترى أن الله سبحانه فى فترات من تاريخ
الجنس البشرى أوحى الى نفوس سامية بما يحتاج اليه الناس فى
الفترة التى تعيش فيها بين الناس ، وأن تلك النفوس عادت الى
الحياة الدنيا من مستويات الوجود العليا — عادت برغبتها
واختيارها لتسدى الى اخوتها ما تحتاج اليه من هدى وارشاد ،
وتأخذ بأيديها فى طريق السداد ، فعاشت بين الناس فى صورة واحد
منهم يؤدى رسالة النبى أو المعلم . وتاريخ البشرية حافل بهؤلاء
القادة الروحانيين وان كانت سيرهم قد انحدرت الينا عبر العصور
ومنها ما مسخ والتوى حتى لو بعث أصحابها لأنكروها وتبرأوا الى
الله منها ومنها ما نسجت لها برد فوقها برد من الخرافة والتهويل
حتى حجبت الحقيقة واختفت الا عن النظر السليم ، ومنها ما تأكلت
أطرافها وزالت معالمها حتى أصبحت كالمسخ الممجوج .

ليس من أولئك القادة من كتب بنفسه ومن كتب منهم اختفى
الأصل الذى كتبه تحت أنقاض الزمن ، لذلك فقد وصلت الينا
تعاليمهم^(١) التى كتبها أتباعهم بعد فترة طالت أو قصرت مصبوغة
يلون أولئك الأتباع مرسوسة بينها آراؤهم ، الا أنها برغم ذلك

(١) الكتاب لا يذكر الاسلام انما يعنى ما سبقه من الديانات
السماوية والقرآن لا ينطبق عليه هذا القول فقد حفظه الله من التحريف
(المراجع)

تحمل جوهر التعاليم التي جاء بها النبي أو المعلم . وكان أولئك الأنبياء على درجات مختلفة من الصفات والتقدم ، منهم من عادت نفسه من مستوى رفيع غاية الرفع ومنهم من جاء من مستويات أقل من ذلك درجة أو درجات ، ولكن كلا منهم جاء قومه بما يناسب وعيهم في مرحلتهم تلك وعصرهم ذلك فتقبلها قومهم تبعاً لاستعداد نفوسهم فكان ما تقبلوه وآمنوا به أساساً عليه بنت الأجيال التي تعاقبت ومنهم من كان أسمى من جيله سموا جعل أهل جيله ينكرونه فقتلوه أو أخرجوه .

ولا يقلل من شأن تلك التعاليم ولا من شأن الأنبياء الذين جاؤا بها ولا من شأن المصدر الذي استقى منه الأنبياء تلك التعاليم أننا الآن قد تقدمنا شأوا بعيدا أرفع مما ترمى إليه تلك التعاليم حتى لقد اطرحنا الكثير منها فلم نبق الا القليل من الأسس التي أريد لها البقاء والخلود ، ولو أن أصحاب هذه المذاهب المتشيعين لها بالحق والباطل يصرون على أنها لا يأتيها الباطل وأنها نزلت بأحكام لا تنقض للأخلاق والسلوك لكل الناس في كل العصور ، ونظرة تأمل تظهر فساد هذا المعتقد .

خذ مثلا موسى وانظر الى تعاليمه تجدها وضعت لقومه في عصره خاصة لخيرهم وفائدتهم فحققت كليهما لهم ، وارجع البصر كرتين في تلك التعاليم تجدها أو معظمها تصبح سخفا وهراء ان

طبقت على الناس في هذا العصر ، ولا يخفى أن القواعد الرئيسية التي أرسى عليها موسى شريعته ما زالت وستبقى راسخة سليمة أما التفاصيل التي وضعت لبنى اسرائيل في شئونهم اليومية فقد انتهى وقتها وفات أوانها ومن العبث محاولة التزامها أو فرضها اليوم .

ان نقاد نظرية الوحي يرون في الكثير من المبادئ التي وضعها موسى بربرية ووحشية يترفع عنها الناس في عصرنا هذا ومع ذلك فان تلك المبادئ والتعاليم كان هدفها الذي وضعت لتحقيقه مساعدة الناس في طورهم ذلك من الرقى والتقدم الروحي ، أعنى تقدم النفوس التي كانت في أجسادهم آنذاك باعطائهم شرائع أعلى قليلا مما كان يسود عصرهم فتأخذ النفوس بها فترتفع على السلم درجة ، وقد قطعت بها في طريق التفتح الروحي مرحلة أخرى . ومن تلك التعاليم التي تبدو لنا وحشية قاسية ما لو بحث على ضوء الحالة السائدة عند ظهورها لاتضح أنها كانت تقدما محسوسا في ذلك العصر ، ولكنها تبدو لنا الآن ونحن ننظر اليها من حيث نقف من سلم الحياة على درجات أعلى من تلك التي كان يقف عليها الناس في ذلك العصر الذي نزلت فيه ، تبدو لنا على مستوى منخفض من مستويات التقدم ولكن لو نظرنا اليها من المستوى الذي كان الناس يعيشون فيه وقت نزولها لوجدناها فوق مستواهم بكثير .

ومن غير المعقول أن يقال انه كان يجب وضع شريعة تبلغ غاية الكمال للانسانية في مراحل طفولتها ويكفى لاثبات هذا أن تتصور ما كان يحدث لو وضعت تعاليم المسيح السامية لبني اسرائيل في أول أمرهم يوم كانوا أقرب للبربرية طبعاً وأخلاقاً . ولكن لا نريد في هذا المقام أن تفوتنا الإشارة الى أن في تعاليم موسى البدائية نواحي خفية تكفى للتذكرة بأن سدنة الشريعة وواضعيها كانوا على بينة من التعاليم العليا التي ضمن بها على الكافة . هذه الأسرار أخفيت في طيات التعاليم الظاهرية التي وضعت لسواد الناس . وهذا هو الحال دائماً في كل شريعة . وهذه تعاليم المسيح لا يدركونها الكافة في عصرنا هذا بله العصور السابقة واسمع التاريخ يحدثنا عن المسيحية خلال العصور التي مرت بها وكيف أن من يدعون أنهم أتباع المسيح أساءوا فهم تعاليمه والى أي حد من البربرية والتوحش انحطت مبادئهم ومفاهيمهم للمسيحية حتى في عصرنا هذا ولكن هذا لا ينفي أن النفوس التي سمت وارتفعت الى حيث يشرق النور كانت خلال التسعة عشر قرناً الماضية في كل جيل تستطيع أن تنفذ الى تعاليم المسيح السرية الباطنية من بين السطور — تلك السطور التي نقلت إلينا أقواله مثقلة بالشروح والتفاسير حتى بدت محرفة حيناً ومشوهة في معظم الأحيان .

ومع ذلك فقد أتت تلك التعاليم بالعجب العجاب رغم عدم

ادراكها على حقيقتها ! وهذه موعظة الجبل - جبل الزيتون - لم تبلغ المسيحية حتى اليوم مستواها ، ولكن الأجيال القادمة ستعيش من غير شك في ضوءها الساطع وتهتدى بهديها الرفيع .

ونريد أن نوجه النظر في هذا الموضوع الى هذه الحقيقة : ان كل الشرائع قصد بها مساعدة الانسان على نزع الحجب عن العقل ، عن الجزء الأسفل منه ان صح أن نتخيل للعقل أجزاء سفلى أقرب الى الغرائز وعليا أقرب الى الروح والكمال فتساعد الانسان بنزع تلك الحجب على الارتقاء الى المراتب العليا . وان تطور النفس وارتقاءها هو ما هدفت اليه تلك الشرائع ، والقاعدة التي وضعت لذلك التطور هي خطوة واحدة كل مرة - وما زالت هذه القاعدة قائمة لا تبديل فيها . كانت الكلمة التي تقال في كل مرحلة ليست هي الكلمة الأخيرة وانما كانت لتملأ فراغا في وقتها لا يملؤه غيرها ، هذا هو مفتاح ادراك سر التفاوت بين الشرائع والتناقض البادى في الأديان أن الأديان والشرائع كلها انما أريد بها رفع الانسان درجة بعد درجة وأريد بها رشدا .

لم يقصد بها أن يقوم الانسان بأعمال على أنها واجبات عليه لله كما ألقى في روعنا وطلب اليها الايمان به فما كان الله بحاجة الى ما يعمل الانسان وما كان الله فقيرا الى ما يقدمه الانسان له وما كان الله تياها يحب المدح ويطمع في الثناء ، وما كان يرغب في لذة

ينالها من ذبائح الناس ومحرقاتهم حين يرتفع اليه ريح الشواء ،
ان هذا ما تصوره الناس والانسانية بعد في المهد ، والله غنى عن
العالمين وغنى عن عبادتهم وابتهاالاتهم . انما الذى ترجع اليه فائدة
ذلك كله هو الانسان نفسه انه هو الذى يكسب من حبه لله
وما كان سبحانه ليناله من فعل الانسان ضر ولا نفع وهو الغنى
الحميد .

فان شرع الأنبياء والحكماء للناس فروض العبادة فما ذلك
الا ليوجهوا نظر الانسان ووجدانه الى وجود قوة فوقه ، فانه
اذا اتجه الى هذه القوة ببصره وبصيرته حولت اتجاهه الى آفاق
السمو فارتقى وسما بدل أن ينصرف الى الصغائر والدنيا فيصغر
ويصبح دنيئا .

انزع من فكري أن الله محتاج الى حمدك وثنائك وتعبدك ،
وانه يقابل بالارتياح ما تقر له به من العظمة والجلال وأن تعبدك
يرضيه ويسترضيه .

ان التقوى والصلاة والعبادة والتقرب لله فائدتها للانسان
نفسه خالصة لا يشاركه الله فيها ، انها ترفع الانسان الى مستويات
تقر عينه بما فيها ، ويرضى عن نفسه بالوصول اليها ، فيتخيل أن
الله نزل اليه واستجاب دعاءه ورضى عن عبادته ، وليس فى ذلك الا
قلب الأوضاع .. ان الانسان بالتقى يرتفع الى حيث يصبح قادرا

على ما كان يعجز عنه قبل بلوغ ما بلغ من مرتبة وهو بذلك صاحب المنفعة في تعبدته لا ينفع بعبادته الا نفسه ، فان هوى الى حضيض الظلمة والعجز فائمه على نفسه ، والله غنى حميد والناس فقراء اليه محتاجون الى حبه وحمده ليرتفعوا بهما درجات .

لكى نفهم تعاليم جميع الأنبياء ومختلف الديانات يجب أن نضع أنفسنا في مكان النبي وأن ننظر الى الناس الذين ظهر فيهم ، عند ذلك يتضح لنا أن ما شرع لهم من عقيدة انما وضع لكى ينهض بقومه خطوة واحدة الى الأمام ، وأنها أدت رسالتها ولكن سمو قصد تلك الشريعة وتحقيقها ما هدفت اليه من رفع من نزلت عليهم ليس مبررا لأن تنقيد بحرفية بعض النظم بعد أن تطور المجتمع .

اننا ان أدركنا هذه الحقيقة ادراكا صحيحا على ضوء ما أشرنا اليه نستطيع أن نترك قشور التعاليم التى يعتبرها العامة لبها وأن نبحت فيما بين أيدينا منها عن لب نستسيغه ونقبله ففى الشرائع جوهر لا يزول ، جوهر يبقى على الزمن ينتفع به من يستطيع الوصول اليه ولكن لنحذر التقيد بالظاهر اذا انتهى وقته وراحت جدته ولنذكر الجوهر دائما ولنعلم أن ظاهر الشرع اذا أصبح غير منسجم مع مستوى الفكر وجب التخلي عنه ، لا يشفع له انه وحى وانه من السماء نزل ، ففى الشرائع ما نسخ نسخه الذى سنه وفيه ما يجب مع مر الزمن أن ينسخ كما نسخ ما قبله ، لنذكر الدعامتين

الأخريين من دعائم الأخلاق والسلوك دعائم دارما لنذكر الالهام والعقل ولنلجأ الى حكمهما ولكن لنحذر دائماً من أن نسكر من الشرع ومن أن ننكره وننكر أنه من السماء لأن ظاهره كان لزمان غير زماننا ولقوم غيرنا كانوا أهل ضراوة لسنا منها الآن على شيء . لنذكر أن الحدس لم ينقطع وأن وحي الروح ما زال يترى على البشر وأن أمرسون له من الحدس حظ لا يقل عن حدس أنبياء اليهود ، كان كل منهم اماما لعصره يسبقه ليسير خلفه الناس وان عجزوا عن ادراك ما جاءهم به أحيانا حتى لقد بلغ الفرق بينهم وبينه ان أنكره قومه فأساءوا اليه ومنهم من قتله قومه وقصص ذلك كثير .

ولا نخص امرسون بالذكر لأنه الوحيد انما نضرب به المثل لندل على غيره وهم كثيرون حتى في هذا العصر (١) .

فلسفة اليوجا تعترف بأن مذهب الالهام أو الضمير هو الدعامة الثانية للدارما وكما سبق القول ، عند ذكر هذا المذهب ، ان كثيرين ممن أقبلوا على دراسة الاخلاقيات هارين من العقبات والمصاعب التي تكتنف نظرية الوحي من السماء ، تلك العقبات التي جعلتهم ينكرون هذه النظرية ويقولون ان تلك الشرائع

(١) بعد هذا فقرة قدرنا أن الاستغناء عنها خير .

أعطيت لأقوام بدائيين في الأعصر الماضية ولا يصح التقييد بها في هذا العصر وأنها لا تصلح للناس الآن ، فهم لذلك ينكرون أن هذه الشرائع وحى من السماء ويتلمسون فيما حولهم نظرية تملأ الفراغ الذى يتخلف عن هذا الانكار فيلجأون الى نظرية العقل والمنفعة لأنها ترضى عقولهم ويستريح اليها تفكيرهم وان لم تشبع رغبة أرواحهم وتشعرهم بالرضا .

وغير هؤلاء قوم آخرون ينفرون من أثنائية هذه النظرية ، نظرية المنفعة ومن حاجتها الى حرارة الحياة ومع ذلك يمنعهم عقلهم من العودة للايمان بعقائد السماء فيلجأون الى نظرية الالهام أو الضمير يرون ان الالهام أو الضمير هو الفيصل فى الحكم على الأخلاق والسلوك ، وان شرائع الانسان كلها ترتكز على هذه القاعدة ومنهم من يتطرف فيقول ان صوت الضمير أو الالهام انما هو صوت الله يخاطب الناس ويجب عليهم أن يطيعوه وان الله يوحى الى كل انسان ويملى عليه ما يشاء .

وكما قلنا من قبل لقد هوجمت هذه النظرية فى عنف لأن ضميرين اثنين لا يتفقان وان الضمير وليد البيئة والسن والجنس والرأى العام والثقافة ويتأثر بها جميعا بدرجات لا نهائية التفاوت وانه لذلك لا يصلح هاديا ولا تؤمن قيادته اذ يكون لكل انسان امثله ومبادئه التى لا يلتزم بها غيره ولا ينزل على حكمها سواه . دارما توائم بين هذين المذهبين المتناقضين فى ظاهرهما فلننظر ماذا تقول فى الالهام أو الضمير .

الدرس التاسع

مزيد عن الدارما

ختمنا الدرس السابق ونحن على أبواب الحديث عن نظرية
الالهام أو الضمير ثانی الأعمدة التي تقوم عليها الدارما وها نحن
أولاء نبدأ الحديث حيث وقفنا به .

كل انسان يحس — وان تفاوت احساس كل انسان عن
احساس أخيه — يحس وجود صوت داخلي يتردد في حنايا نفسه ؛
انه شيء من المعرفة ظاهر الاستقلال عن القوة العاقلة (Intellect).
هذا الصوت يتحدث اليه اما بلهجة الأمر أو بلهجة المستدرج
الراجي — اما يأمره بأن يفعل كذا وكذا أو أن يمتنع عن فعل
كذا . يدفعه حيناً الى رفيع العمل وصالحه ويسكت حيناً عما
لا يليق به من سوء الفعال أو يحجب اليه فعل السوء .

هذا الصوت ندعوه الضمير اذا سما وارتفع فان هوى الى
ما سفلى من الأمر سميناه وسواسا (Temptation) يهتف الأول
بالانسان أن يعمل خيراً ويوسوس له الآخر بفعل السوء .

وبالإضافة الى صوت الضمير وتحريض الوسواس
(The urging of the tempter) نجد فينا (قيادة Leading) في
المسائل العادية وفي الأخلاق التي لا تتصل بالخير ولا بالشر عندما
نحزم أمرنا ونبت في شئون الحياة العادية من عمل أو صفقات
أو غيرها ، هذه القوة الثالثة نطلق عليها اسم (الالهام) .

كثير من الناس يستعمل هذه الأسماء الثلاثة ويعلم الفرق بين
كل منها والآخر ولكن لا يمكنهم ايضاح حقيقة كل منها
ولا مصدره .

فلسفة اليوجا تقدم ايضاحا ، ودارما تعتمد على هذا الايضاح
الى حد كبير في اعتمادها على ثانی الدعامات – الالهام والضمير –
(الدعامة الأولى الوحي السماوي والدعامة الثالثة العقل أو المنفعة).

هذه الدعامات الثلاث تمثل أولا صوت الله وثانيا صوت الالهام
في الانسان وثالثا صوت عقل الانسان ، واليكم ما تقوله فلسفة
اليوجا عن الدعامة الثانية صوت الالهام وطبيعة الرسالة التي تأتي
من هذه الناحية من نواحي الذات .

لكي تفهم طبيعة الضمير والالهام والوسوسة التي تتبع من
مواطن باطن الوعي المختلفة في العقل يجب أن نعود الى ما سبق
قوله في الدرسين الثاني والثالث من الدروس الأربعة عشر عندما

تحدثنا عن العقول المختلفة فى الانسان الواحد أو المستويات المختلفة التى يعمل فيها عقل الانسان وانكم لتذكرون ما قلناه عن العقل الغريزى والقوة العاقلة والعقل الروحى . ولقد قلنا عن ثلاثتها فى تلك الدروس وفيما تقدم من سلسلة الدروس الحاضرة ما يجعلنا نعتقد أنكم رسمتم صورة صحيحة لكل منها ، فالوسوسة أو الاغراء بفعل السوء أو الخطأ من الأفعال تأتى من الآفاق المنحطة فى العقل ، نواحى ذلك الجانب الذى نسميه العقل الغريزى الذى تتصل به الرغبات الحيوانية بما فيها الدوافع والاتجاهات والاحساسات التى ورثناها عن الماضى ماضى الانسان الأول أو البدائى وهى كلها حاجات الجسد . انها ليست سوءا فى نفسها ، ولكنها تبدو لنا سوءا لأنها بقايا مرحلة من مراحل تاريخ تطور النفس خلفناها وارتفعنا عنها الآن ولعلها كانت فى تلك المرحلة المتوغلة فى القدم تعتبر غاية ما يسمو اليه الانسان من لائق الفعال وجميل السجايا . كانت تعتبر فى وقتها ومحيطها من مستلزمات الحياة الكريمة بل لعلها كانت من أسباب المحافظة على الحياة نفسها وكانت بجانبها صفات وأعمال ينظر اليها أهل ذلك الوقت على أنها مليئة بالخسة والدناءة ، والصوت الذى كان يحفز الى فعل الأولى هو نفس صوت الضمير الذى يلهمنا الآن كريم الخصال ، لقد كان هو نفسه الذى يدعو الى أفعال على المستوى الحيوانى اذا قسناها بمقاييس هذا العصر كانت سوءا .

أما الآن وبعد أن اجتزنا المرحلة التي كانت فيها هذه السيئات — بالنسبة لمستوانا — الحالّي تعتبر أخلاقاً كريمة ، أما الآن وقد سما الأفق الذي نعيش فيه وتفتح وعينا لصور أرفع وأسمى ، فقد أصبحنا نرى حسنات تلك المرحلة التي خلفناها سيئات ، فإذا خرجت برأسها توسوس لنا من مستويات الوعي المنخفضة فزعنا لمآها وساءنا أن فينا من الحيوانية ذلك القدر الذي تمثله تلك السيئات .

ولكن لا مبرر لهذا الفزع من سوء مخبرنا الذي تدل عليه هذه الوسوسة ، انها بقايا الحيوانية التي اجتزنا مراحلها ، انها ميراث ذلك الماضي ، انها صورته وصوته . فاذا أحسست الوحش القديم يتحرك في طبقات وعيك السفلى يريد أن ينطلق من الغياهب التي وراه فيها ما علاه من طبقات التطور نحو الكمال ، فلا تفزع ولا تضطرب انك اذ تبصر به وتدرّك أنه شيء منفصل عنك يريد أن يدفعك الى فعل ما لا ترضاه وما تجد أنه لا يليق بك ، هذا وحده داييل الخير وبشراه . لقد كنت فيما مضى ذلك الوحش وأما اليوم فانه جزء منك فقط متوار فيك وعمّا قليل سيختفى من كيانك اختفاء تاما الى غير رجعة .

ارجع الى ما ذكرناه في الدرس الأول من هذه الدروس وسنزيد ما قلناه هناك ايضاحا بعد قليل في هذا الدرس عند الحديث عن

النسبية في الخير والشر ، وسنرى عند ذلك أن الشيء الذي كان حسنة في الماضي أصبح اليوم سيئة وأن ما نراه الآن حسنة سيصبح سيئة مع الزمن بعد الارتقاء الى مستويات أرفع وهكذا دواليك (هذا من ناحية النسبية فقط اذ عند كمال الوعي الروحي والنظر بغير عيز النسبية يتلاشى الخير والشر) .

أما ما يعنينا الآن ابرازه فهو أن ما تحسبه وسواسا يوسوس لك بفعل السوء انما هو تحرك غريزة قديمة دفينه ما تزال فيها بقية من حياة فهي تهتز وتختلج اهتزاز المشرف على الفناء — انه التثبيت بالحياة — انها حلاوة الروح تجعلها ترفع رأسها أملا في فسحة من البقاء استجابة لعوامل محيطه حركت ساكن تلك الدفينة فاهتزت ولكن اذا أنت لم تستسلم للاغراء فانها تموت وتذهب لغير رجعة ، هذا هو الوسواس بالسوء ، أما الالهام فانه يأتي اما ومضات من العقل الروحي تشرق على أفق الوعي أو من باطن القوة العاقلة وطبقاتها اللاشعورية ، ففي الحالة الثانية يحدث أن تبحث هذه القوة العاقلة مسألة يشغل الوعي كله — شعورى ولا شعورى — يبحثها حتى اذا نضج بحثها في العقل الباطن وهو الوعي اللاشعورى ووصل الى نتيجة مرضية تسلمها الوعي في الوقت المناسب بصورة الاملاء الذي يوحى بالاقتناع فالقبول .

ولكن أكثر الالهام يهبط الى العقل الواعي من العقل الروحي

الذى لا يفكر فيما يريد بل يعرفه معرفة يقين ، والعقل الروحى يعطينا دائما خير ما نحن مستعدون لقبوله حسب طاقتنا التى تتناسب دائما مع ما بلغنا من تقدم . والعقل الروحى يسهر دائما على خيرنا يهديننا سواء السبيل ، ويهيننا لنا من أمرنا رشدا حسب ما يسرنا خلقنا له . لا نريد التعمق فى بحث هذا الموضوع الآن ، وانما نذكره لنظهر مراتب الخلاف بين الالهام والضمير ، فالضمير يتصل بالخير والشر يبصر بهما العقل ، والالهام يتصل بما يجب فعله فيما لا صلة له بمبادئ الأخلاق ، الضمير يهدى للخير وينهى عن الشر والالهام يسدد خطوات الانسان فى طريق النجاح .

الضمير يحدثنا عن مدى انطباق فعل ما على أسمى ما يرسمه علم الأخلاق فى مرحلتنا هذه من مراحل التقدم ، والالهام ينبئنا بأحسن ما نصنعه لمصلحتنا فى شئون حياتنا — هل وضع الفرق ؟ . الضمير نور العقل الروحى يتسلل من خلال الحجب التى تحيط بالنفس . هذا تعريف سقيم يجب أن نصلح من شأنه .

نور العقل الروحى يحاول باستمرار أن يشق طريقه فى طبقات العقل فينفذ خلالها من أعلاها حتى يصل أدنى الطبقات ولكن نوره يكون خافتا لأن كثافة الحجب المضروبة على هذه الطبقات يمنع وصول الضوء قويا منيرا ، وكلما نزع حجاب بعد حجاب زاد الضوء نورا لا لأنه يقترب ولكن لأن مركز الوعى تسقط عنه

الحجب التي بينه وبين الروح . انه كزهرة تنحى أوراقها الخارجية وهي تتفتح فاذا فرضنا أن في قلب الزهرة جزءا مشعا يحاول أن ينشر نوره منعه أوراق الزهرة المحيطة به قبل أن تتفتح وكلما هوى صف من الورق المحيط به زاد ظهور النور من داخل الصفوف الباقية ، حتى اذا تفتحت الأوراق كلها وانحسرت عن قلب الزهرة المضيء ، أشرق الضوء واضحا لا يخفيه شيء . هذا تشبيه فيه عسف ولكن لعله يقرب الحقيقة من البلج .

ولنضرب مثلا آخر مصباحا كهربائيا التفت عليه طبقات من قماش طبقة فوقها طبقة – نور المصباح كالروح وطبقات القماش هي الحجب التي بينه وبين العقل كلما رفعنا طبقة تكشف لنا النور أكثر قليلا من ذي قبل فلا يزال يزداد تكشفنا كلما سقط عنه حجاب حتى اذا سقطت الحجب جميعا سطع النور فجاء الحق أبلج وزهق الباطل بظلامه .

ولنبداً والحجب كلها محيطة بالضوء . ان ما يسطع خلال الحجاب الخارجي من الضوء هو غاية ما سمحت الحجب التي بين الضوء والحجاب الخارجي بالنفوذ منها ، فاذا رفعنا ذلك الحجاب الخارجي وجدنا ما يظهر من الضوء خلال الحجاب التالي أكثر مما كان يظهر خلال الحجاب الذي ارتفع فاذا نزعنا الحجاب التالي ظهر الحجاب الثالث أكثر استضاءة من سابقه ، وهكذا كلما سقط

حجاب زاد ظهور النور حتى اذا كشفنا آخر الحجب عن المصباح
بهر ضوؤه الأعين .

لو أن قطع القماش التي تراكت على المصباح أول الأمر كانت
تستطيع التفكير لتخيلت انها هي والمصباح الذي في داخلها شيء
واحد يقول عن نفسه التي هي هذه الكتلة (أنا) ولو كانت كل
طبقة من طبقات القماش تستطيع أن تعقل لرأت أن الطبقة التي
تليها من الطبقات الداخلية أكثر من نفسها نورا ولحسبت ذلك
النور الذي تشرق به تلك الطبقة التالية لها أعلى درجات النور
وبدت تلك الطبقة الأكثر منها نورا كما يبدو الضمير بالنسبة للقوة
العاقلة وبذلك تكون كل طبقة من القماش بمثابة الضمير للطبقة
التي تليها خارجها لأنها أشد منها استضاءة وبذلك تكون الطبقة
التالية للخارجية مثلا أعلى في قوة الاضاءة ، فاذا قورنت هذه
بطبقة داخلية – الطبقة الرابعة ، أو الخامسة مثلا وما ينفذ فيها
من ضوء لكانت مظلمة بالقياس اليها . وهكذا تكون كل طبقة خيرا
من التي تليها ، فكل طبقة نور بالنسبة للخارجية وظلام بالنسبة
للداخلية ، فاذا جعلنا النور رمزا للخير والظلام رمزا للشر كانت
كل طبقة خيرا اذا قيست بالتي تليها شرا اذا قيست بالتي بينها
وبين النور .

واذا قلنا ان كل طبقة تمثل الضمير للتي تليها ، أدركنا كيف

أن كل ضمير يختلف عن غيره كثافة وشفاء تبعاً لسمك الحجب وعددها ومبلغ ما ألقى منها ، أى مبلغ شفاء النفس وقلة سمك الحاجز بينها وبين الروح مصدر النور .

أرأيت كيف أن النور الذى يشع من طبقة القماش يختلف شدة وقوة باختلاف بعد الطبقة عن مركز النور وقربها منه وان ما نراه نوراً اذا قيس بما هو أشد منه استضاءة كان ظلاماً . وان الضمير اذا اهتدى به كان الاهتداء على قدر ما بلغ الضمير من النور الداخلى ، وان مبلغ النور هذا قد يجعل الضمير مشرقاً وقد يجعله مظلاماً ، قد يرى صاحبه فى ضوءه مادق من الأمور فيضع كل أمر فى نصابه ، وقد يضعف نوره حتى يغيب عن صاحبه الكثير فلا يراه ولا يكون له فى حسابه وزن ، لذلك قد يفعل الرجل الفعلة الشنعاء فى نظرنا وهو يتيه على الناس من أمثاله اعجاباً بما فعل وهم يصفقون استحساناً لسوء فعلته ، لأنهم يحسبون انه يحسن صنعا . . . « اغفر لهم ياأبت لأنهم لا يعلمون ماذا يصنعون » .

ولكن ليس مما يقلل من شأن صوت الضمير وينقص من قدره اننا نرى ضمير الرجل المتأخر يحسن له فعل القبيح فى نظرنا وهو يستحسنه فان ذلك القبيح حسن اذا قيس بما هو أشد منه قبحاً . ولا تحسبن نفسك محسناً ففتيه باحسانك الذى أملاه عليك ضميرك ودعاك الى فعله لحسنه ، فان من الناس رجالاً بلغوا الشأو

الذى يجعلك تبدو فى نظرهم كما يبدو المتوحش فى نظرك . أتشك
فى قولنا هذا ؟ اليك الدليل :

انك تعتبر نفسك أمينا وصادقا . أتستطيع صادقا أن تقول
انك أمضيت شهرا واحدا لم تقل فيه غير الصدق ؟ والصدق
كله كاملا ؟ .

ان الكذب لدافع شريف ، كاتخاذ موقف أو لعدم الاساءة الى
من يطلب اليك ابداء الرأى فى أخلاقه كذب لا يخفف من وصفه
هذا نبل الدافع اليه . كذلك الكذب اذا تستر وراء (سر المهنة)
أو لعقد الصفقات^(١) أو بدافع الأدب ، أى كذب من هذا النوع
يجعل اجابتك على السؤال بالسلب .

(١) ضرب شيشرون الفيلسوف الخطيب والمحامى الرومانى
سنة ٤٠ قبل الميلاد المثل التالى « اذا كان فى كريت مجاعة والناس
يشترىون القمح باضعاف ثمنه ووصل الى كريت تاجر قمح قادم
بسفينته من الاسكندرية وقد علم ان عددا كبيرا من سفن القمح تتجه
الى كريت ويعلم ان وصول هذه السفن بالقمح بعد يومين او ثلاثة
على الاكثر سيضع حدا للمجاعة ويعيد أسعار القمح الى مستواها
الطبيعى هل له أن يستغل عدم معرفة الناس بأمر القمح الذى فى
الطريق اليهم ويستغل اندفاعهم لشراء قمحه بأثمان المجاعة الباهظة
وهل يعتبر رجلا شريفا وهو يبيع قمحه بأسعار يعلم انها بعد يومين
او ثلاثة ستهبط هبوطا شديدا ؟

ام انه يعتبر رجلا غير شريف !؟

ان شيشرون يجيب بأنه غير شريف ولو كان فى نظر الناس
والقانون بريئا من كل سوء .

المترجم

نحن لا نتهمك . والواقع اننا لا نستطيع أن نتصور أنك
تطالب بأن تبلغ من الأخلاق مدى لم تبلغه الانسانية في مرحلتها
هذه من التطور ، وحسبك أن تتهم نفسك ، وأنت تبذل أقصى
الجهد ، بأنك مازلت مقصرا وان مثلك العليا لا ترضيك .

وهذا المثل الذى ضربناه ما هو الا مثل بسيط ، فان الانسانية
في مرحلتها هذه ترتكب آثاما بالغة الخطورة اذا نظر اليها من
مستوى أعلى قليلا من مستواها الذى بلغته الآن . أليس في
الانسانية شعوب تعيش في هجير الفاقة والاحتياج ؟ أليس من
اخوتك في الانسانية محرومون من نصيبهم مما بلغته الانسانية من
رفاهية ؟ هل الأمور كلها على ما يجب أن تكون عليه من خير ؟
ألا تستطيع أن تقترح ولو تحسينا بسيطا للحالة الراهنة ؟ انك من
غير شك لست مطالبا باصلاح الحالة بمفردك ، ولكنك فرد من
الجنس البشرى تتمتع بما وصلت اليه البشرية من ميزات ، انك
فرد من ركاب السيارة الضخمة التى تطأ الضحايا الذين يسقطون
تحت عجلاتها . صحيح انك لا تملك من الأمر شيئا ولا بد لعجلة
التطور أن تدور ولا بد لها في دورانها من ضحايا حتى تبلغ آخر
الطريق وتخرج من هذه الحمأة وها هي فى تقدمها قد بدأت تشعر
بالآلام الضحايا وبدأت تتألم لآلامهم وما عليك الا أن تشارك فى
المناداة بضرورة الاصلاح حتى اذا بدأ ساهمت فيه .

ان تصريف الأمور في يد الله (يقربها بين أصبعيه) و عليك أن تؤمن وترضى بما يجيء به القدر فان الايمان والرضى سيرفعان عنك الكثير من البلاء الذي يعانیه من لا يؤمن ولا يرضى - وحتى هذا البلاء هو الآخر خير لأنه جزء من عملية التطور .

ولنعد الى موضوعنا ، أما زلت تشعر الآن بأنك صالح ومستقيم ؟ الدرس هو : لا تدينوا ، ومن كان بلا خطيئة فليرم أول حجر ، وليس منا من بلغ مرتبة الصلاح القصوى ومع ذلك فكلنا يسير الى الأمام .

لنعش أصدقاء يوما بيوم نعمل الخير جهد الطاقة ، كلمة طيبة هنا وعملا طيبا هناك ، غير مدعين الصلاح والتقوى ، نعطي الغير حقه كما نريد أن يعطينا الغير حقنا . لا نضطهد أحدا بل نحمل للناس الحب والتسامح والمواساة . ولنعلم أن كل الخلق جزء من الكل الأعظم وأن كلا يعمل على شاكلته ، وان كلا يسير لما خلق له . وعلينا أن نرى قدرة الله في أقل خلقه شأننا وأصغرهم كيانا ، وان الله مع أشد الناس جهلا وأمعنهم في السوء فعلا يسمع ويرى ويهدى على قدر الحال الى سواء السبيل . ليكن الرفق رائدنا ، الرفق بالناس جميعا .

هذا الدرس درس المصباح المضيء الذي تحيط به طبقات فوق طبقات من الحجب ، اذكره دائما واجعله ماثلا في تصورك وليكن لك سلام .

ان التأمل في هذا المثل الذي ضربناه للروح والحجب التي تكتنفها يجعلك ترى أن الضمير هو صوت الروح نستمع اليه من خلال جدران الفرائز الانسانية الدنيا أو بعبارة أخرى أن الضمير هو رواسب التجارب والخبرات الغابرة وما وصلنا اليه بفضلها من تقدم ، مضافا اليها ما اكتسبناه نحن بفضل ما ينفذ الى عقولنا من نور الروح خلال الحجب التي لم تتوصل بعد الى رفعها .

ان الانسان في تقدمه قد أفاد من خبراته السابقة فوضع مثلا عليا جديدة تتفق مع حاجات النفس وفيها استجابة لنزعاتها نحو أمور أسمى مما كانت تنزع اليه في الماضي ، وفيها شعور بروابط الاخوة التي تربط الانسان بأخيه الانسان وتربط الانسان بالله ، هذه أمور صاحبت نمو النفس - تقصد بنمو النفس اتساع دائرة النور الذي يخترق الحجب وظهور ما كان خافيا بسبب الظلام الذي بدده النور في هذه الدائرة التي تتسع رويدا رويدا رويدا - وكلما اتسعت الدائرة ظهرت في نورها مثل أرفع مما كان ظاهرا . وكلما شبت النفس زاد الحق وضوحا لناظرها . والانسان في كل مرحلة يصلها يعتبر ما وصل اليه المثل الأعلى الذي يجب التزامه ، هذا المثل الأعلى الذي سطع عليه من نور الروح ما نفذ من خلال الحجب يعتبر غاية ما يسمو اليه الانسان في مرحلته تلك ويحاول كل فرد جهد طاقته الوصول اليه فيكون هدف الانسانية ومقياس

الخلق عندها ، حتى اذا ألقى الانسان عن نفسه حجابا آخر وازداد
النور قوة وازدادت دائرته اتساعا ، بدا مثل أعلى أرفع من سابقه ،
ما كان يجول بخاطر السلف وجوده ، وكيف يستطيع الناس
العمل للوصول الى ما لا علم لهم به ؟! حتى اذا علموا به وعملوا
على الوصول اليه ووصلوا ، وجدوا بعد هذه القمة التي تخيلوها
الغاية التي ما بعدها غاية ، وجدوا قمة أخرى قد بدت في الأفق
فشدوا اليها الرحال ، وهكذا كلما ارتفع الانسان على سفح المرتقى
وكلما سقط حجاب من حجب الروح بدت مثل بعدها مثل ، كل
مثل أرفع من سابقه وأدنى الى الكمال ، حتى اذا بلغ الانسان القمة
العظمى وجد نور شمس الروح تشرق يكاد ضوءها يذهب
بالابصار .

ان من الخلق رجالا زاد اشراق أرواحهم حتى ظهرت لهم قمم
لا علم لنا بها كما أن من الخلق متخلفين قد خلفنا القمم التي يرونها
ويكدحون للوصول اليها منذ أمد بعيد . يجب أن ندرك هذه
الحقيقة ان كنا نريد أن ندرك حقيقة العمل والمثل العليا والضمير
في الغير . يجب أن يكون رائدنا ألا نلوم ذلك الغير اذا قصر عن
ادراك مثلنا العليا وأن نعمل على تشجيعه وأن نرشدته الى الطريق
القويم كما نرجو نحن أن يرشدنا من سبقنا على الطريق ووصل الى
ما لم نصل اليه من مرتقيات .

وأخيرا نود أن نذكر مرة أخرى أن الضمير ما هو الا دعامة
من دعامات الدارما وليس هو الدعامة الوحيدة ، ولكن يجب أن
يكون له نصيب كبير من التقدير ، وان كنا نعلم أنه غير معصوم
من الخطأ ، انه يشير لنا الى أعلى هدف نستطيع أن نتجه اليه وأن
نبلغه ، ولكن ذلك الهدف العالى ليس هو أعلى الأهداف اطلاقا .
ان وراء الضمير قوة معصومة من الخطأ ، قوة الله الخالق وقدرته ،
أما الضمير فهو مخلوق والمخلوق يخطئ ويصيب لأن ما يهديه من
ضوء الروح محدود فيصيب ما أظهره النور ويخطئ فيما تكتنفه
الظلمة ، ولكن علينا أن نتبع هديه ونسترشد به ، وأن نكتفى بما
اكتفى به صاحب هذه الأنشودة :

أرشدنى أيها الضوء الرفيق فى حلقة الظلام .

أرشدنى خذ بيدي للأمام .

الليل بهيم وأنا عن موطنى بعيد

أرشدنى وخذ بيدي الى الأمام

سدّد خطاي . لا أسألك الرؤية

رؤية المنظر البعيد

حسبى أن أخطو خطوة الى الأمام

أرشدنى خذ بيدي فى الظلام .

بقيت دعامة (دارما) الثالثة مذهب المنفعة الذى أشرنا اليه فى
الدرس السابق . دارما تعترف لمذهب المنفعة بما فيه من فائدة
ولكنها لا تغفل فى نفس الوقت عن قصوره عن أن يكون وحده
كافيا لحمل البناء .

كل القوانين التى وضعها المشرعون بمختلف أسمائها بنيت على
أساس المنفعة العامة ، وان حاول البعض أن يظهرها وكأنها تستمد
سلطانها من أمر الله . فالقانون ما هو الا محاولة الانسان وضع
قواعد يسير عليها الناس لخير البشرية . لذلك فقد تطورت القوانين
بتطور البشرية مع مضى الزمن ونمت وما زالت تتطور وتنمو
وتصلح أخطاءها فما هى بمعصومة من الأخطاء .

واذا كان الضمير دائما يسبو على عقل الانسان درجة أو درجتين
فان القانون دائما متخلف عنه خطوة أو خطوتين . فالضمير يشير
دائما الى ما يجب أن يرتفع الانسان اليه من الاخلاقيات بينما
القانون يوضع ليمنع المتخلفين من الزلل والآثام ، ويأخذهم
ببجريرتها حتى يرتفع آخر من فى قافلة البشر عن مستوى مقارفتها ،
وعند ذلك يعدل القانون ليتناول حاجات ما كان للمشرعين بها علم
عند وضع القانون القديم ، ولاختفاء الزلات التى وضع ذلك
القانون لمنع الناس من ارتكابها . ولكن القانون دائما يبقى فى
المؤخرة نافذ المفعول على مستوى فات أوانه .

القانون نتيجة لمتوسط قوة عقل الشعب مصطبغا بمتوسط ضميره . فالعقل يرى حاجات جدت ولا بد من أن يضع في القانون ما يعالج تلك الحاجات ، والضمير يوحى بأن بعض ما في القانون أصبح عبئا لا طاقة للناس بحمله ، أو أن فيه جورا يجب رفعه . فان اقتنع العقل بوحي الضمير ، حور القانون بالحذف والتعديل والاضافة فيرضى الضمير ويقتنع العقل بأن الصيغة الجديدة تواجه ما وصل اليه الناس من تطور .

وقد تتدخل الأهواء فتوضع قوانين فاسدة حين يعاون المشرع والذي لا خلاق له الحاكم الذي تتحكم فيه الأهواء .

وقد يسىء القاضى فهم القانون أو تفسيره فيكون في حكمه كمن يحكم طبقا لقانون فاسد فترتكب أخطاء وتقع مظالم ومرجع هذا كله ان الانسان والقانون كليهما غير معصوم .

ولكن اذا جعلنا الأغلب الأعم أساسا لحكمنا فاستبعدنا ما أشرنا اليه من عيوب ، وجدنا أن القانون في وضعه وتفسيره وتنفيذه يعطى صورة صحيحة لمتوسط ما يطيقه الشعب وما يسيغه وما هو أهل له .

فاذا تقدم الشعب — في متوسطه — خطوة تقدم القانون في أثره خطوة واذا أصبح الشعب في حالة يتطلب معها تشريعا جديدا

يتفق ويتناسب مع حالته الجديدة حصل الشعب على ذلك التشريع عاجلا أو آجلا .

وطبيعى أن ينظر الفريق الذى بلغ مستوى أرفع من متوسط عامة الشعب^(١) . الى القانون القائم الذى يرضى العامة نظرة الساخط لما يراه فيه من أخطاء وظلم وقصور ، بينما يرى فيه الفريق المتخلف عن متوسط عامة الشعب أيضا أخطاء وظلما وشدة، الأولون لأن القانون على مستوى لا يساير تقدمهم ، والآخرون لأنهم لم يرتفعوا الى مستوى القانون ، ذلك لأن القانون كما قدمنا نتيجة عقل أوساط البشر وضميرهم ، فاذا تطور ذلك القسم المتوسط تطور القانون بما يتفق مع حالتهم .

لقد رأى بعض المفكرين أن خير أنواع الحكم هو الحكم المطلق ، ملك غير مقيد بشرط أن يجلس على العرش ملك لا انسان . ويرى البعض أن تسمو الرعية وتتنزه عن الصغائر وأن تلغى القوانين اذ لا يكون للرعية عندئذ بها حاجة ولكن كلا الرأيين يتطلب الكمال ، فى الحاكم فى الحالة الأولى ، وفى المحكوم فى الحالة الثانية ، وهذا خيال .

ولكن الواقع أن كل شعب توضع قوانينه كما يريد أو كما يتمنى ويتخيل ، أعنى كما تريد الكثرة التى تمثل متوسط ما بلغ

(١) لا يقصد بعامة الشعب لهازمه ولكن أوساطه . (المترجم)

الشعب في تطوره من تقدم ، وهذا صحيح وهو يوشك أن يحدث في روسيا القيصرية (هذا في سنة ١٩٠٤) الاتوقراطية ، وهو الحادث فعلا في غرب أوروبا الديمقراطية . ان الشعب لا يوضع على أعنقه نير الا اذا طأطأ أعنقه لذلك النير ، فاذا تطور الشعب وأصبح لا يرضى بذلك النير ألقاه عنه^(١) ، غالبية الشعب لا الأفراد المتقدمون في الطليعة ولا الأفراد المتخلفون في المؤخرة^(٢) وقد يرضى الشعب اليوم بقوانين يراها في غده — اذا تطور — غير لائقة به .

القانون على الرغم من أنه معرض للخطأ واقع فيه الا أنه دعامة ضرورية من دعامات المجتمع وهو يمثل أوساط مبادئ الأخلاق مصورة في قواعد وأوامر وأحكام لتسيير الناس . والقانون في مجموعه حل وسط يجور على هذا أو ذاك ويزيد في ارضاء هذا أو ذاك ولكنه وضع ليكفل أقصى الخير لأكبر عدد .

يقول أصحاب مذهب (المنفعة) هذا ، ان الانسان يسمى الشيء (سوءا) أو (خطأ) لأنه مصدر تعب أو ألم له . فمثلا ،

(١) يؤيد هذه النظرية التي تحدث بها المؤلف منذ نصف قرن ما حدث في روسيا نفسها فقد رفع الشعب رأسه فأطاح بالنير والقيصر سنة ١٩١٧ . (المترجم) .

(٢) يقصد المؤلف بالمتخلفين الحثالة التي تعيش دائما خارج القانون فمن وقع منها في قبضة القانون اطلق عليه اسم (المجرم) (المترجم)

لا يجب الرجل أن يقتل أو ينهب ماله ولذلك نبتت فكرة اعتبار القتل والسرقة جريمة . ويتبع تلك الفكرة وضع عقوبة لجريمتي القتل والسرقة لمنع وقوعهما ويمتنع الانسان عن القتل والسرقة ليكفل امتناع غيره عن قتله هو أو سرقته . كذلك يرى المجتمع الضرر في عدم قيام الانسان بأن يعول أطفاله وعلى هذا يعتبر تقصير الرجل في هذا الواجب ذنباً يدفع نضج الوعي لوضع العقوبة لمرتكبه حفظاً للمجتمع ، ويمضى أصحاب هذا المذهب على هذا النحو في التفكير ، وتفكيرهم صحيح ، وهو أساس القوانين الموضوعية وهو جانب من جوانب التفكير في الحق والباطل أو الخطأ والصواب . ولكن اذا كان العامل الأساسي فيه هو المنفعة أو قل الأناية فان له سببين آخرين غير الأناية والمنفعة .

أصحاب هذا المذهب ينسون أن تطور روح المجتمع يزيد شعوره بالآلام الغير ، فاذا أصبح هذا الشعور لا يطاق ولا يمكن السكوت عليه نبتت مقاييس جديدة للصواب والخطأ تطبق على هذه الآلام لتخفف آثارها وتقتلع أسبابها وهذا يدعو الى وضع مبادئ جديدة للتشريع واطافة مواد جديدة الى القانون لتنفيذ تلك المبادئ .

وكلما تطورت روح المجتمع وزاد فيه الشعور بالآلام الغير ، تفتحت روح الفرد فزاد احساسه بما يحس به غيره من الأفراد

فيتقارب الأفراد بعضهم من بعض ويزداد اقترابهم من الهدف الأعلى - وحدة الكون .

ان ازدياد شعور الانسان بحرمة العدالة لا يستند الى ارتفاع مستوى قوة العقل وتقديرها للعدل فقط ، ولكن يستند أيضا الى نمو وعيه الروحي ، ونمو شعوره بصلته الروحية بمن حوله مما يجعله غير مستريح ازاء ما يعاينه الغير من شدة وما يثقل كاهلهم من متاعب ، ولا يعود كما كان ، كل همه منحصر في نفسه وما عداه لا يعنيه من أمره شيء . انه يبدأ بزوجه وأولاده ، يحس أنهم كنفسه ، ثم تتسع الحلقة فتشمل أسرته كلها ثم قبيلته ثم القبائل المتشابهة مع قبيلته ، ثم أمته ، ثم غيرها من الأمم التي تتحدث نفس اللغة وتؤمن بنفس الدين ، ثم تتسع الحلقة حتى تشمل البشرية كلها ، أحمرها وأسودها ، مؤمنها وكافرها ، ثم تتسع لكل الخلق من زاحفة وذات جناح ، ثم كل شيء في الوجود . انه يحس أنه جزء من كون واحد . عند ذلك يحس بمعاني العدالة وآثارها تنبسط وتتسع ، لم تعد المسألة مسألة تصور بالعقل انما هي أشعة الروح تزداد قوة وسناء والادراك يزداد استنارة والمأما ، واذا معانى العدل والحق تتبدل وتظهر في ثوب قشيب .

مذهب المنفعة أو المصلحة لا بأس به حتى يبلغ مداه ولكن بعد هذا المدى ، مدى يصبح هذا المذهب فيه قاصرا لا يرضى به صاحب الأفق الأكبر .

لا يكفى صاحب هذا الأفق ولا يرضيه (أكبر سعادة لأكبر عدد) فانه لا يرضى بأقل من السعادة الكاملة — لا أكبر سعادة فقط — لكل الخلق ، لا لأكبر عدد فقط . فهو يرى أنه لا يمكن أن يهنأ بشيء من السعادة طالما أن هناك تعسا واحدا ، وهو يرى أن العدالة لا تقوم وفي الناس مظلوم واحد ، ولهذا فهو يبضى في سبيله قدما يبذل أقصى ماله من جهد ، يخطىء ويصيب ويكبو وينهض يدفعه دائما الى الأمام ذلك الحافز الخفى المسيطر على عقله دون أن يدركه (الى أن تنفتح عينه) ولكنه يملك عليه حواسه ويقض مضجعه جريا وراء شيء لا يدري ما هو .

الآن وقد رأيتم سير الأمور لعل آلامكم تخف ولعل فهمكم يصح فتقفون جانبا تنظرون موكب البشرية مندفعا في تقدير الحق والباطل وكيف تتعذب البشرية بالجهل . ولكن حذار من أن تحاولوا أن تقولوا ما تبصرون أو تصلحوا فاسد ما تدركون فساده من آراء والاقيلت لكم كل كلمة شريرة ووصفتكم بكل وصف قبيح، اتركوا الناس وقوانينهم ومثلهم العليا في الأخلاق وما يرتاحون اليه من عادات فتركوا اليوم ما تمسكوا به بالأمس ويتمسكوا اليوم بما تركوه بالأمس ، واتركوهم يحكموا على مخالفيتهم بما يشاءون فانهم لا يستطيعون الا أن يفعلوا ، وكل ميسر لما خلق له . ولكن لا تفعلوا فعلهم ، لا تدينوا مخطئا فان التطور لا بد له من أن يأخذ

مجراه ، المخطيء والمحسن كلاهما لا غنى عنه ولا مفر من وجوده ، وكل عمل فيه خطوة من خطوات التطور وليست خطوة بذاتها صوابا أو خطأ . كل ما خلا الله باطل . كل ما خلا الشعور بأبوة الله للبشر وباخوة الانسان للانسان باطل ، كل ما عدا الشعور بالوحدة الشاملة باطل ولا استقرار ولا سلام مع وجود باطل ، قفوا جانبا وانظروا الأطفال يلعبون — انما الحياة لهو ولعب .

مفتاح الاطلاع على هذا التيار الجارف من التبدل والتطور وعدم الاستقرار هو نمو الروح وتفتحها فهو الذى يريك كيف يحاول الناس أن يضعوا لحاجاتهم قانونا يسهل قضاءها ولمصالحهم قواعد تكفل المحافظة عليها وهم فى محاولتهم هذه يضعون مقاييس يقيسون بها وموازين يزنون بها وكلما بدت حاجة لا يغطيها القانون أضافوا للقانون ما يغطيها به من ردف واذا وجدوا القانون قد أصبح فضفاضا يغطى أكثر مما يريدون قصصوا ما زاد منه على ما يريدون أن يغطيه القانون وهم يضعون القاعدة ويلزمون أنفسهم ويلزمون الناس بالتزامها ويوقعون العقوبة على من يخالفها ما دامت القاعدة تكفل مصلحة أو نفعاً يريدونه . فاذا تعارضت القاعدة مع المصلحة والمنفعة بسبب تطور الظروف وتغير الأحوال ، عمدوا الى القاعدة فأطاحوا بها ووضعوا مكانها ما يحفظ المصلحة فى ظل الظروف الجديدة ، ووضعوا العقوبة لمن يخالف هذه القاعدة

الجديدة . وهكذا يضع الناس القواعد ويبدلونها ويضع الناس القوانين ويعدلونها ، والهدف دائما هو المنفعة .

تمسك بخير ما تعتقد انه الخير عليك في تمسكك هذا أن تعلم أن هذا الخير انما هو خطوة للأمام ، خير خطوة ، ولا تلم من يعمل ما تراه شرا فقد يكون ذلك الذي نراه شرا أجمل الخير في نظره — طبقا لما بلغ من مستوى — ولا تهزأ بقانون من قوانين الناس مهما بدا لك من خطئه وسوء نتائجه فهو خطوة على ما فيه من نقص وهو درجة من درجات السلم وخير ما يناسب أغلبية الناس في حالتهم هذه وزمنهم هذا ، واذكر دائما أن الكمال لله وحده ، للواحد الحق الذي لا شيء مثله ، وان الجنس البشرى يسير نحو الكمال ، يقطع مراحل الفهم فالوعى ثم الاتحاد بذلك الواحد المطلق . وانك في تقدمك خلال هذه المراحل الثلاث — الفهم ثم الوعى ثم الاندماج ، يجب أن تعلم أنك كالصخرة التى تتلاطم عليها أمواج البحر ، تضربها فى عنف وشدة ، ولكن لا تعباً فلن تنال منك شيئاً ولا أثر لها اللهم الا أن تطهرك وتغسل عنك وزرك فاذا انحسرت عنك بقيت ثابتا فى مكانك .

ومثلك أيضا كمثل من ينظر من نافذة فى داره الى صبية يلعبون ويصخبون ويتجادلون ويدعون ما ليس لهم به علم ويظهرون بمظهر السيد تارة والخادم أو اللص تارة يوقعون العقوبة ويعطون المثوبة

ثم ينفض سامرهم فتبقى آثار لعبهم الى أن يجرفها الكناس
— الزمن .

فانظر الى الرجال والنسوة من حولك تر فيهم وجوه الصبية
اللاهين اللاعبين وهم يحاولون أن تظهر عليهم سيما الجد وكأن
ما هم بسبيله حق ، ولكن بعد قليل أيضا ينفض سامر هؤلاء كما
انفض سامر الصبية ، وان طال الزمن في حالة عن الأخرى ، ومع
ذلك فكما تبسم للصبية في لهوهم ولعبهم وتدعو لهم بخير ، كذلك
ابسم للرجال والنساء من حولك وادع لهم بالخير ، ولو أنهم
لا يدركون دعائك ، ولو نظروا اليك نظرة القادر الى العاجز القعيد .

لعلنا قد أوضحنا أن النظريات الثلاث أو المذاهب الثلاثة —
الديانة السماوية (الوحي) والالهام أو الضمير والمنفعة أو العقل —
لا تضارب بينها وأن كلا منها يتم الآخر وان كلا منها فيه جانب من
الحقيقة وان دارما تجمع بينها كلها وان ثلاثتها تشترك في بناء هذه
الفلسفة الشاملة أو أن هذه الفلسفة الشاملة تحتويها كلها وتقرها
كلها لأن دارما هي العمل الصالح أو بقليل من الايضاح : دارما
هي سبيل العمل والحياة في أحسن صورهما انطباقا على مصلحة
الفرد وعلى مساعدته ليخطو الخطوة السديدة التالية نحو الكمال
أو كما قلنا من قبل اذا تحدثنا عن دارما الرجل قصدنا أسمى
ما يستطيع أن يعمل لصالح نفسه وصلاحها حسب درجة تقدمه .

ولا بد أنه قد وضح الآن للطلاب أن الحق والباطل أو الخير والشر في فلسفة دارما نسيان وان الحق المطلق عند الله وفيه وبه ومنه وانه ليس ثمة شر مطلق أبدا وان الشر أو الباطل الذي تحدثنا عنه انما هو نسبي مقيد ، فهو ناتج عن فهم لصورة من صور الخير في مستوى منخفض بالنسبة لمن بلغ مستوى أرفع ، وان العمل الواحد يبدو خيرا لمن يعيش في مستوى أقل من المستوى الذي عليه ذلك العمل بينما يرى أهل المستويات العليا انه شر .

ألا ترى كيف ينظر الأغنياء المترفون الى وليمة الفقراء ؟ اللهم يرون فيها مظهرا من مظاهر الجوع والحرمان بينما يرى فيها الفقراء الذين يتمتعون بها فرصة من فرص السعادة . أو كيف يرى المعذب بالمرض في فترة سكون الألم عنه بفعل الدواء فترة من السعادة بينما لا يكاد السليم يرى تلك الفترة الا مرحلة من مراحل المرض الطويل .

ليس في الدنيا شر أو سوء مطلق ، انما الشر أو سوء هو بقدر البعد عن الخير والحق في كل حالة . هذه نظرية يبدو فيها خطر كبير ولكن لننعم فيها النظر كرة أخرى .

عند استعراض تاريخ تطور الانسان نجد أن أعلى مثل الانسان الأول ما كانت تزيد على حالة الحيوان كثيرا ، فما كان عليه جناح . أن يقتل أخاه ويسرقه ، حتى لقد كان القتل مفخرة للانسان القوي .

وكان له أن يأخذ من القتل ما شاء حتى اذا تكونت الأسرة والقبيلة ضاقت دائرة القتل المباح فأصبح قتل فرد من القبيلة أو الأسرة عملا سيئا ولعله اعتبر كذلك حتى لا تنقص قدرة القبيلة على القتال والقتل نتيجة لقتل أفرادها بعضهم بعضا ، وبذلك دخل القتل في نطاق الشر والجريمة اذا كان القتل من أفراد أسرة القاتل أو قبيلته، ولكنه عمل من أعمال المجد والبطولة اذا كان القتل من قبيلة أخرى . ونحن نرى في هذه التفرقة وحشية فالقتل عندنا هو القتل والقاتل معتد سواء كان القتل قريبا له أم غريبا عنه .

ومع ذلك فما زال هذا الانسان الأول موجودا فينا يستبيح القتل والنهب ، فقط يجب أن تكون حالة الحرب قد أعلنت ، فعندها يكون القتل بأبشع صورة مجدا وفخارا يزداد في نظرنا كلما ازداد عدد القتلى وكبرت الغنيمة ، وكل الفسق بيننا وبين الانسان المتوحش أن الأخير لا ينتظر اعلان حالة الحرب لأنه في حالة حرب دائمة .

ونحن نرى أن الانسان البدائي كان يفعل كل ما نعتبره نحن اليوم جريمة بدون أن يشعر بأنه يأتي أمرا اذا ما دام من يقع عليه اعتداؤه ليس فردا من قبيلته وكلما كبرت (الجريمة) ازداد فخر من يرتكبها . ومع تطور البشرية تحولت أعمال المجد والفخار هذه التي كانت أحسن الخير وأجمل الحق الى جرائم ينظر اليها الانسان فترتعد فرائصه .

هذا التطور كان الفضل فيه للأنبياء والمرسلين ولمن تبع هديهم
من الكهنة سدنة الدين ورعاة الوحي بعد الأنبياء في رأى المؤمنين
باليانات السماوية .

وكان هذا التطور نتيجة ليقظة الضمير والهامة الناس أن يفعلوا
الخير وأن يتجنبوا الشر عند أصحاب مذهب الالهام والضمير .
وأخيرا كان نتيجة لتقدم الانسان العقلى وتفكيره فى مصلحة
المجتمع وبوضع القوانين التى تمنع الجريمة وتعاقب عليها فى رأى
أصحاب مذهب المنفعة والعقل .

لقد نظر الناس من بضع مئات من السنين الى أمور على أنها
أحسن الخير ونحن نعتبرها الآن شرا ما بعده شر وكذلك ستكون
الحال عندما ينظر أحفادنا ومن بعدهم الى الكثير مما نحسبه نحن
خييرا فيرون فيه الشر والاثم .

اقرأ شيئا عن الحياة فى العصور الوسطى مثلا لتحكم على
مدى تطور المثل العليا للسلوك والأخلاق ، انظر الى الرقيق وكيف
كان الانسان يبيع الانسان وهو يحسب أنه يحسن صنعا ، أو انظر
الى الرجل يسجن الرجل طول حياته بغير محاكمة فلا يجد الناس
فى ذلك سوءا ، وانظر كيف كانت الناس تحرق أحياء بتهمة السحر
مرة والزندقة أخرى .

اننا نرى في ذلك وحشية بينما كان الناس يتلهون بالحديث عنها في ذلك الزمن ويهرعون للاستمتاع برؤيتها .

ولا نذهب الى ما طواه التاريخ ولكن لننظر حولنا نجد الخلاف بين الناس اليوم لا يقل عن الخلاف منذ بضعة قرون .

فالخلاف شديد في وقتنا هذا على ما يعتبر خيرا أو شرا وحتى إذا اتفق الناس على أمهات المسائل نجد خلافا على الفروع ، والقانون في كل أمة يصور ما بلغ الضمير في أوساط تلك الأمة من تطور ، ولو أنه كما قلنا من قبل متخلف دائما بعض الشيء كما أن الضمير متقدم دائما بعض الشيء عن متوسط قواعد الأخلاق .

الرجل العادي — المتوسط — دائما راض قانع بما يفرضه القانون من قيود وبينما يرى المتخلفون أن للقانون وطأة ثقيلة ويبدأ حديدية وانه وضع طبقا لمثل أعلى من مستوى الناس ، ترى للصفوة التي نمت أرواحها انه قاصر لا يفى بالحاجات وانه وضع على أسس أحط مما كان يجب أن يوضع عليه وانه كان يجب أن يخلق الى آفاق أعلى من الآفاق التي رسم عليها دوائره .

وكما أن الأشياء التي يراها الناس خيرا تصبح في نظرهم شرا مع تطور الحال ومضى الزمن ، كذلك بعض الأشياء التي تعتبر شرا قد تصبح مع الوقت خيرا عندما يرتفع مستوى الناس ويزداد علمهم

ونضجهم فكم من المحرمات التي حرمتها أديان غابرة لأمر رآه الكهنة اما لصالحهم أو لصالح الدين رفعت من قائمة المحرمات عند زوال تلك الديانات .

ولا بد أنكم تلاحظون أن متوسط الذكاء ومتوسط وعى الضمير ممثلين في الرأى العام والقانون يفرضان على الانسان مزيدا من الرعاية لبنى جنسه ويطالبانه بأن يكون أكثر رحمة وتعاطفا مع مضى الزمن ، ذلك لأن وعى الانسان وفهمه لقرب أخيه الانسان منه يزداد كل يوم اشراقا ولو لم يشعر الانسان بهذه الحقيقة لأنها كامنة في وعيه الباطن .

ونعود الى دارما وحكمها بأن ليس ثمة خير مطلق ولا شر مطلق ، وان الخير والشر يتغيران تبعا للمقاييس التي يقاس بها فعل الانسان في مراحل تطوره المختلفة ودرجات وعى البيئة التي يعيش فيها ، فنقول : ان هذه الفلسفة لاتبيح للانسان أن يفعل شرا أو قبيحا مما تحرمه العقائد أو المذاهب الاجتماعية الأخرى فليس اعتناق مبادئ هذه الفلسفة وانكار وجود الشر المطلق مبررا لمقارفة ما يراه الناس سوءا وشرا ، انما هذه الفلسفة تلزم اتباعها بالسير على أسمى ما ارتقى اليه مستوى البشر من الخير والحق ، وأن يسير السيرة المثلى حتى ولو لم يكن القانون والمجتمع قد بلغا مستواها حبا في المثل العليا لا رهبة للقانون . وكذلك تطالب

اتباعها بالترفع عن فعل ما يروونه باطلا أو شرا ولو كان الناس والقانون يرون فيه غير رأيهم . ان تابع هذه الفلسفة يسبق الناس والقانون ولا يسير معهم ولا خلفهم .

ودارما لا تقول بأن الرجل المتخلف يجب أن تترك له الحرية فيأتى الجريمة ما دام يرى أن فيها خيرا ، ان فى فعله أذى لجيرانه واعتداء عليهم ولذلك فانها تمنعه من أن يفعل السوء ولو اعتقد انه ليس بسوء ، ألا ترى أن القط وهو يسرق الطعام أو الثعلب وهو يقتل الدجاج دون أن يعتبر القط لصا ولا أن يعتبر الثعلب قاتلا ولا جناح عليهما ولا يقال لهما انهما أشرار ، ألا ترى أنه من الحق مع أنهما يسيران على طبيعتهما أن يمنعا من السرقة والقتل ما أمكن المنع ؟ كذلك الرجل المتخلف اذا قتل لأنه لم يبلغ من التقدم المرحلة التى تمنعه من القتل أو لجهله أو لأن المثالية لم تبلغ فيه المبلغ الكفيل بمنعه من ارتكاب هذه الجريمة ، كل هذه الأسباب لا تبرر تركه يعيش فى الأرض فسادا ويقتل من شاء متى شاء ، ولكن يجب منعه لوقاية المجتمع لا للاضرار به هو . ويجب أن نعتبر عقوبته لا صلاحه لا للتشفى فيه والانتقام منه والواقع أن المجرمين بدائيون متوحشون وأن (جرائمهم) ليست جرائم اذا نظر اليها من مستوى نضجهم أو من المستوى الذى كان الانسان يعيش فيه فى عصوره البدائية ، عصور التوحش ، ويجب

علينا أن ننظر اليهم على أنهم أخوة صغار في البشرية ام يتعلموا بعد ولم ينضجوا ولكنهم أخوة على كل حال^(١) .

ان دارما تأمر بأن يعيش الانسان كأحسن ما وصل اليه علمه ووعيه سواء كان ذلك عن طريق الوحي السماوى أو الالهام والضمير أو العقل . والواقع أن هذه الثلاثة لها في كل انسان أثر تحد ما ، وان الدرجة التى بلغها من الوعى تشترك في تحديدها هذه الثلاثة مجتمعة ، فاذا غم على الانسان أى السبل يسلك وأى الأفعال أقرب للصواب والحق . لجا إلى ضوء روحه فاستهداه الطريق واستلهمه الصواب . وفي ذلك الضوء يتضح له الطريق المستقيم فيتبعه .

وأمر آخر تأمر به دارما ذلك أن تمسك عن المعيرة والنقد وادانة من لم يبلغ ما بلغنا من مستوى فانه وان لم ينظر الى الأمور نظرتك ولم يقف منها موقفك ؛ فلعله يلتزم اتباع أحسن ما تهديه اليه نفسه أكثر مما تلتزم أنت اتباع أحسن ما تأمرك به نفسك فكيف تجرؤ على أن تدينه ؟ أبلغنا حد الكمال حتى نجعل أنفسنا ديانين للناس نلزمهم بفعل ما نفعل واجتناب ما نجتنب ؟ أين يقع ما بلغنا نحن من كمال المولى سبحانه اذا قيس به ؟ هل فكرنا في

(١) هذه نظرة أكثر انسانية من نظرة علم الاجتماع الحديث الذى يعتبر المجرمين مرضى فهم ليسوا مرضى بل انهم أخوة صغار فى الروح .
(المترجم)

أنا لو كنا مكان ذلك الأخ أو تلك الأخت لما فعلنا خيرا مما فعل
أو مما فعلت؟ وحتى لو وضعنا أنفسنا مكان أيهما فإنا نحكم بما
اكتسبنا من تجارب وما بلغنا من نضج، لا بما اكتسب هو أو
اكتسبت هي من تجارب، ولا بما بلغ أو بلغت من نضج، ولذلك
فحتى لو وضعنا أنفسنا مكانهما لما استطعنا أن نحكم هل عملا بما
اعتقدا أنه الخير كله أو لا، فلكى يكون حكمنا صحيحا يجب
أولا أن نتجرد من شخصيتنا وتجاربنا وما بلغنا من وعى ثم
نستولى على تجاربهم ووعيتهم وبعد ذلك نرى ماذا يكون عملنا
فنحكم على عملهم. ولن نستطيع أن نفعل واذن فليس لنا أن نعير
أو ندين المخطئين^(١).

ولا بد للطالب الذى تتبع ما قلناه عن المذاهب الثلاثة التى يقوم
عليها كلها هيكل دارما وبنائها من أن يسأل عن قمة البناء وتاجه
الذى يعلوه، وعن المثل الأعلى الذى تقدمه دارما لمن يدخل
الهيكل القائم على الأعمدة الثلاثة ما الذى يجده هناك حتى يتبعه؟
فلننظر ما تقوله دارما.

ان النقطة الرئيسية التى يجب أن نجعلها نصب أعيننا عند
بحث (العمل الصالح) فى رأى دارما ونظرها هى أن روح الانسان

(١) واياكم والمعيرة فإنى والله ما عيرت أحدا بشيء الا عيرت بمثله
(من وصية عمرو بن كلثوم لبنيه) المترجم

في تطور لا سكون فيه ولا توقف ، انها تتحرك صعودا من مستوى الى مستوى ومن طبقة الى طبقة ، من حيث اعتقاد الانفصال والانفراد الى العلم بالاتحاد والوحدة ، ان التقدم هو هدف الحياة وسنة الخالق فان صح هذا وضح ان كل ما يدفع الانسان الى الأمام نحو الهدف صالح أو خير أو حق وكذلك يتضح أن كل ما يعيق التقدم أو يؤخره أو يعود بالانسان الى الوراء سوء وشر وخطأ .

قد يكون الأصح بدل قولنا سوء وشر وخطأ أن نعبر بقولنا ليس صالحا أو ليس خيرا أو ليس حقا أو أن نقول أقل صلاحا وأقل خيرا وأقل حقا ، ولكن النتيجة واحدة وان اختلف التعبير فالصالح أو الخير أو الحق يساعد على التقدم والتطور بينما السوء والشر والخطأ يحول دون التقدم أو يرد الى الوراء أو يهبط بالانسان الى مستويات كان قد ارتقى عنها بفعل الخير من قبل .

انه من اللائق للنمر أن يكون شارب دماء شرسا لأن مستواه يتفق مع هذه الصفات ، ولكن الرجل الذي ارتقى في سلم الحياة أن فعل مثله كان فعلة خطأ وشرالأنه ينزل به الى مستوى خلفه منذ أمد بعيد . ان الرجل الذي تتردد في نفسه أفكار القتل والشار والحسد وما اليها مما ينهاه ضميره عن مقارفتها لأنه جاوز مرحلتها وارتقى الى ما فوقها ، هذا الرجل أن يعمل سوءا ينزل به عن

مستواه بدل أن يرتقى ويرتفع الى المستوى الذى يليه بفعل الخير
والابتعاد عن هذا السوء .

وفى فلسفة دارما قد يكون رجل على الدرجة الثالثة من السلم
ورجل آخر على الدرجة الخامسة فان هبط الأول بعمله الى الرابعة
كان عمله شرا لأنه نزل به عن مستواه ، وان ارتفع الثانى بعمله
الى الرابعة كان عمله خيرا لأنه رفعه عن مستواه ، ومع أن الرجلين
وصلا الى الدرجة الرابعة الا أن أحدهما عمل سوءا (بجهالة)
والآخر عمل عملا صالحا . ان قانون التطور والتفتح الروحى يقود
الى فوق ، فكل ما ارتفع بالانسان كان منطبقا على القانون فهو
خير ، وكل ما نزل بالانسان كان ضد القانون وهو شر .

اذا كان المدرس يبذل مع تلميذ كسول متأخر جهدا يثمر ولو
تقدما بسيطا بيديه ذلك التلميذ فان المدرس يسره من غير شك
ذلك التقدم مهما كان تافها ويشكر التلميذ تشجيعا له ، ولكن هذا
المدرس نفسه لاشك يغضب على أى من التلاميذ النابهين اذا فعل
ما استحق الكسول عليه الشكر . ولا شك أن مكافأة الكسول
ومعاقبة النابه مع أن فعلهما واحد يبدو تصرفا غريبا لمن ينظر للأمر
نظرة سطحية فيعجب لأن المدرس فرق تفرقة لا تدركها تلك النظرة
وتعرفها جيدا نظرة الفاحص — نظرة المدرس . لعل الهدف من هذا
المثل لا يغيب عن فطنة القارىء .

واصلوا السعى والدأب أيها الأصدقاء وعيشوا أقرب
ما تكونون لما تعتقدونه حقا وخيرا مهما لقيتم في ذلك السبيل من
مشقة وارجعوا الى ما سبق ذكره في درسنا الأول « ابحثوا في
القلب عن مصدر الشر واستأصلوه » وكونوا مروضين للوحوش
الرابضة في حنايا طبيعتكم وتعلموا تطهير تلك الطبيعة من مخلفات
الماضى هذه .

وشدوا وثاق الغرائز الحيوانية الكامنة في داخلكم – احصروا
الوحش في ركن قفصه غير عابئين بما يكشر عن ناب أو بما يقلب
من مخلب .

جاهدوا لتنموا بالروح وتتنهروا وترتفعوا على سلم الوصول
حتى تبلغوا الدرجة التي ترون فيها دارما وقد أصبحت جزءا من
طبيعتكم فعند ذلك تكونون قد بلغت دائرة صفاء الروح التي ان
دخلتموها أشرق نورها على عقولكم من كل مكان كما يدخل نور
الشمس الحجرة المغلقة اذا تفتحت نوافذها فيحيل ظلامها نورا
يبدو كل شيء في ضوئه واضحا وتختفي الأوهام التي ولدها الظلام
أوهام الوحوش التي كان الظلام سبب وجودها وليس لها في
الحقيقة من وجود .

أعملوا على رفع الحجب عن الروح حجابا بعد حجاب واذكروا
ما جاء في كتيب (ضوء على الطريق) : اسجدوا في خشوع لذلك

النجم الذى يضىء فى داخلكم ترونه ضوءا خافتا بعيدا أول الأمر
فكلما طال السجود وزاد الخشوع ازداد النجم لمعانا وازداد ضوءه
قوة. عند ذلك تعلمون أنكم اهتديتم الى بداية الطريق ، حتى اذا
وصلتم الى آخره تحول نوره فجأة الى النور اللانهائى — نور
السموات والأرض .
ليكن لكم سلام .

..

الدرس العاشر

لغز الكون (The riddle of the universe)

أشرنا في الدرس السادس (جناني يوجا) الى جانب واحد من جوانب ذلك الفرع من فلسفة اليوجا وقلنا اننا سنعود الى تناول جوانبه الأخرى فيما بعد وها نحن نواصل الحديث .

موضوع (جناني يوجا) متسع اتساعا يسمح بأن تكتب فيه مجلدات ومجلدات ، والواقع أنه قد وضعت عنه مؤلفات بلغت آلاف الكتب وضعت كلها بوحى تعاليمها وستتناول في درسنا هذا بعض نواحيها الهامة محاولين تقديمها في بساطة تمكن من معرفة أسسها وادراك قواعدها ولو لحد ما لمن وجد صعوبة ومشقة في فهم الشروح المعقدة العويصة الأخرى .

قلنا في الدرس السادس ان : كل الوجود الظاهر منه والباطن فيض للواحد الذي لا ثاني له .

هذا الواحد أصل الوجود ، أطلق عليه الكثير من الأسماء نجد أحسنها (الروح) أو (المطلق Absolute) وتقصد بالمطلق غير المقيد بشروط ، المنزه عن الحدود التام بنفسه ، الغنى عن السند

المتعالى الحق ، وبتعبير آخر انه الشىء الحقيقى لأنه دائم وغيره باطل لأنه زائل ونود أن نوضح المعنى المقصود من الكلمة فان اختلاف الفهم يودى الى الكثير من الأخطاء . سنكثر من استعمال كلمة (نسبى Relative) نريد بها عكس المطلق (Absolute) فانها تعنى — غير التام ، المقيد بشروط ، المحدود ، المفتقر الى غيره ، الجزئى (لا بمعنى الجزء المنفصل ولكن بمعنى الناقص غير التام) . المتغير القابل للزوال .

وعند بحث (الأشياء على حقيقتها أى كما هى) سنستبعد صفة بعد أخرى أو مظهرا بعد مظهر حتى يبقى الشىء الذى لا يتجزأ ولا يقسم ولا يحلل الى أجزاء يتكون منها — الشىء المطلق . ويتحدث اليوجيون عن هذا الشىء المطلق بقولهم الشىء كما هو كائن ويصفون النسبى بقولهم الشىء كما يبدو أو يظهر .

وللتقريب للفهم تفكر فى المطلق على أنه (الشىء الكلى كما هو كائن) وفى النسبى على أنه المظهر الناقص غير الكامل لناحية أو صفة من (الشىء الكلى) .

انه من غير الممكن وضع الوصف الصحيح لكلمة (المطلق) اذ لو استطعنا وصفه لأدركناه وهذا مستحيل فالكلمة ما هى الا محاولة من العقل لنقل ما يتصوره الى ادراك عقل آخر ولما كان العقل فى حالته الراهنة (نسبيا) أى (مقيدا محدودا) فمن

المستحيل أن يدرك المطلق . وكل ما يستطيعه أن يرسم صورة لحدوده هو وقيوده هو ثم يقول ان المطلق هو ما عدا هذه الصورة .

والعقل عاجز لنفس السبب (أى لأنه محدود) عن ادراك المكان المطلق (اللانهائية) والزمان المطلق (الأبدية) والعقل المطلق ولكنه يتصور قسما محدودا منها ثم يفرض أن (غير المحدود) هو ما عدا صورة ذلك القسم المحدود . فهو مثلا يرسم دائرة على الورق ، انها المكان المحدود أما المكان غير المحدود (اللانهائية) فلا يدركه الا بالقياس لهذا المكان المحدود .

كذلك يحاول أن يعرف الزمان غير المحدود (الأبدية) بأن يحدد الثانية والدقيقة واليوم والسنة وكلها نسبية وما زاد من جانبي الوقت المحدود في الماضي والمستقبل الى ما لا نهاية له هو الزمان غير المحدود ، الأبد . والمكان اللانهائي والزمان اللانهائي يحويان الزمان النسبي والمكان النسبي اللذين حُددهما الانسان بحدود طاقته . ولكن الزمان والمكان النسبيين لا حدود حقيقية لهما في الزمان المطلق والمكان المطلق (الأبدية والانهائية) انما هذه الحدود في ادراك الانسان وتصوره فقط . فاذا قال الانسان أمس أو اليوم ، لا يفصل هذا اليوم ولا ذاك أمس من الأبدية بتحديد الانسان لهما . وكما أن الانسان اذا نظر خلال منظار يرى قسما

كبيراً من البحر إلا أن ذلك القسم الذى وضع له بصر الإنسان
حداً لا يفصل بينه وبين سائر البحر شيئاً . فالعقل عاجز عن ادراك
الله (المطلق) إلا إذا قصر تفكيره على صفة محدودة من صفات الله
يدركها كما يدرك الجزء من الزمان أو المكان اللذين يحددهما من
الأبدية واللانهائية .

وكلما ارتقى وعى الإنسان واتسع يتفتح روحه واشراق نور
الروح على العقل ازداد فهمه وتصوره ، ولكن لا يدرك المطلق
إلا المطلق نفسه . وعلى هذا فالسر الأعظم لا كاشف له فى عقل
من العقول المحدودة ولا يدركه إلا هو ، وإن كان ازدياد الوعى
يجعلنا أقرب إلى الحقيقة ، وكلما سقط حجاب ازدادنا قرباً وازدادت
الحقيقة اقتراباً وعلى الضوء المتزايد يستطيع العقل أن يرى ما كان
من قبل خافياً ، وما كنا نطالب بالإيمان به من غير بحث أو تفكير
لأنه فوق مستوى العقل البشرى ينجلي الكثير من ألغازه تحت
ضوء أشعة الروح التى تنير السبيل أمام القوة العاقلة وتمكنها من
تمييز الأشياء حين تخف كثافة الحجب .

صحيح أن أول خيوط الضوء لا تظهر إلا نتيجة للإيمان الأعمى
فى أول الأمر ، وصحيح كذلك أن المعرفة (العلم اللدنى) دائماً
وليدة الإلهام لا نتيجة فحص العقل ومحاولاته ، إلا أن هذه القوة
العاقلة أداة كبيرة الأثر فى ادراك الكثير من صفات الحق وتلقى

ارشاده . وهى لاتتعارض مع الالهام ولا يتعارض الالهام مع ادراكها
السليم الا أن كل ما فى الأمر أن الالهام يزيد عليها وانها دائما
متخلفة عنه وهى ليست كما يقول عنها غلاة الروحانيين خادعة كاذبة
فانها تمدنا بالكثير من الحقائق السليمة الصحيحة وكثيرا ما تصل
بكلحها ودأبها الى ما قد يلقيه الالهام للمحظوظ فى طرفة عين ،
وان أخطأت وضلت الطريق فى أحيان كثيرة .

يجب فى بحثنا عن المعرفة وسعيها وراء الحقيقة أن نستعين
بكل وسائل الادراك فلا نغالى فى الايمان بغير بحث أو فى الحط
من العقل واتهامه بالعجز والقصور والتضليل ، كما يقول رجال
الدين ، ولا أن نقول ان العقل هو كل شىء وان الالهام والوعى
الروحي والوحي حديث خرافة كما يقول الماديون الملحدون .

الواقع أن القوة العاقلة والوعى الروحي أو الالهام ما هما
الا انتاج العقل على مستويين مختلفين انهما شقيقان ييران يدا
فى يد اذا سمحنا لهما بالتعاون والعمل كل فى محيطه ودائرة
اختصاصه ولم نكبل أحدهما أو الآخر بقيود التعصب والتحيز
لنتركهما يتعاونان ويتقارضان النصيحة ويتبادلان المعونة ذلك خير
من أن يقف كل منهما من الآخر موقف العدا .

لنسمع ما تقوله القوة العاقلة المحدودة عن قوة الخالق غير
المحدودة ، انها لا تستطيع أن تدركه كما قلنا ، ولكننا بدونها

لا نستطيع في دورنا هذا من أدوار التطور وفي كياننا هذا البشري،
لا نستطيع بدونها ادراك شيء عن الخالق وقدرته ، فلا جناح علينا
أن سألنا العقل رأيه في الخالق ولكن لا بد بعد سماع رأيه أن نلجأ
الى ما تسلمناه عن العقل الروحي وما هو الا طبقة عليا من العقل
تنكر الطبقات الدنيا وجودها وسلطانها .

عقل الانسان عندما يصل الى المرحلة التي يستطيع فيها أن
يفكر في الكون والحياة والوجود ويحاول أن يتصور مدى صلة
الأسباب بالمسببات المترتبة عليها — العلة والمعلول — عندما يصل
الى مرحلة — أنا أفكر فأنا موجود — يعقل حتما وجود (شيء)
(وراء هذا كله) .

أول ما يتصور العقل من أفكار تكون أفكارا فجة بدائية غير
صقيلة ، ولكنه كلما أمعن في الاستقراء والبحث ازدادت فكرته
نضجا وسدادا ، وكلما زاد العقل نضجا ازداد فيه الشعور بوجود
(قوة خفية) وراء مظاهر الكون وهذا الشعور هو الذي يتحول
مع الوقت فيصير الايمان الذي مظهره الدين ، وينسج العقل حول
رأيه في الكون نظريات تتأثر بالدين والتعليم ويخلق آلهة يدعّم بها
رأيه ونظرياته ، ثم يتخذ العقل طريقين مختلفين يسير في كل منهما
فريق ، هذا يتفق مع وجهة نظر الكهنة ومصالحهم وذاك يقول به
الفلاسفة .

ويمضى الكهنة فى طريقهم قائلين ان الهمم أو آلهتهم هم الذين خلقوا الكون ويصفون ، ما وسع خيالهم ، أسلوب الخلق وغاياته ودعاماته وهذا الوصف يتطور مع الزمن ومع خيال الكهنة .

والفلاسفة وان أنكروا ما يقول به الكهنة ، الا أنهم دائماً حذرون يجعلون تعاليمهم ونظرياتهم متفقة مع الدين السائد ويستعير الكهنة أسلوب الفلاسفة فيأخذون فى وضع علوم الدين يضمنونها الآراء التى ترضى العقول بعض الرضى اذ يضعون مقدمات يبنون عليها نتائج كما يفعل الفلاسفة .

ثم يظهر الماديون الذين يريدون أن يجعلوا المادة أصل كل شىء ، وقد اختلف هؤلاء مع الفلاسفة والكهنة وحارب كل منهم الآخرين فى غير هوادة يتهمهم بالغباء والغفلة ويوقع بهم ، ان استطاع ، النكال — هذا فى الغرب .

أما الشرق (اليوجا) فان مفكره رأوا فى الدين والفلسفة والطبيعة وجوها متعددة لمسألة واحدة ، وسيصل المتنافسون فى الغرب يوماً الى التفاهم ، فكل منهم يسلم بوجود قوة وراء الوجود ووراء الحياة وأن اختلفوا فى شأن هذه القوة ومدى اتصالها بالحياة .

يرى فريق ان هذه القوة خارج الكون وانها صنعتها .
ويرى فريق أن هذه القوة هى الكون وهى الحياة ويسمياها علماء اللاهوت الله .

ويسميا الميتافيزيقيون الحقيقة والفاعلية والحق وغير ذلك
من أسماء .

ويسميا الماديون وعلماء الطبيعة المادة والقوة أو الطاقة الكامنة
في المادة وهي في نظرهم أصل الحياة .

وهذه التسميات كلها يراد بها سر الوجود مجردا من هذه
المظاهر التي تتركب وتتحلل ، تأتي وتذهب .

هذا السر يجمع عليه المختلفون ويرضى العقل عن وجوده وان
لم يرض أحد عن التفاصيل التي يأتي بها الآخرون ، ويرضى العقل
عن حقائق هي :

الأولى — هناك قوة مطلقة .

الثانية — واذن فكل مطلق هو هذه القوة ولا يمكن أن يكون
هناك قوتان وكل ما ظهر في الوجود فهو من هذه القوة أو بها
أو فيها .

الثالثة — وان كل ما كان وكل ما هو كائن وكل ما سيكون
من هذه القوة .

انها الكل الآن وهي كل ما كان وكل ما سيكون .

وان الكل هو الكل لاشيء خارج عنه .

وأن لا بداية له فلم يكن قبله شيء .

وان لا نهاية له فلا يبقى بعده شيء .

الرابعة - هذه القوة في كل مكان في نفس الوقت ، وهذه حقيقة واضحة اذ لا يمكن أن يخلو مكان من الكل فالمكان جزء من الكل كما أن الزمان جزء من الكل أو هو الكل فلا يمكن أن يوجد مكان خال فالفناء أو العدم لا يمكن تصوره بالعقل .

الخامسة - هذه القوة غير محدودة لا تعجز عن فعل ولا يقع فعل الا بها ، فهي مصدر القوى جميعا .

السادسة - هذه القوة هي العلم بكل شيء لا علم الا بها ومنها .

السابعة - هذه القوة لا حد لها .

الثامنة - هذه القوة لا أول ولا نهاية لها .

التاسعة - هذه القوة لا تنجزأ ولا تنقسم .

العاشرة - هذه القوة لا تتحول ولا تتغير .

الحادية عشرة - كل شيء من هذه القوة منتسب اليها والا فلا وجود له .

هذه كلها حقائق لا يمكن أن يتصف بها شيء من الوجود ولكن هي صفات حق لأصل هذا الوجود .

المظاهر أو النسبيات الثلاث العظمى

يستحيل على العقل العادى أن يرى أو يتصور المطلق فى ذاته
ولكن مظاهر هذا المطلق تبدو واضحة للعيان وقد يشرق العقل
الروحى نظرة نحو هذا المطلق حين تصفو الروح ويتسنى للأشعة
العليا النفوذ خلالها .

ونود أن نسبق سباق الحديث قليلا فنضع السؤال الذى لا بد
أن يتردد فى عقل الطالب « وأين أنا من المطلق والمقيد ؟ » أو كما
قال أحد الأميركيين أخيرا (أين أدخل أنا فى كل هذا) سنجيب على
هذا السؤال بالتفصيل فى الدرس الأخير ولكن نقول سلفا ان
الانسان كما يبدو لنفسه الآن فيه كلا الاثنين فيه المطلق والمقيد —
يعنى العنصرين ، الروحى والمادى ، فيه الروح وهى من المطلق
وحولها النسبى الجسم والقوة والعقل والأسماء بالسنسكريتية هى
(أتمان) الروح (اكازا) الجسم أو المادة (برانا) الطاقة والقدرة
(شيتا) جوهر العقل ، وترى فلسفة اليوجا ان هذه الأربعة
موجودة فى كل شىء .

فالروح وهى الحق موجودة فى كل مكان فى كل شىء ، ولكن
لا على أنها وحدات منفصلة ، فى كل شىء قطعة منها يحتويها ذلك

الشيء ، لا : بل يمكن التعبير بأنها تخيم على الوجود ، وأنها في كل شيء ، تحته وفوقه وحوله ، ولقد سبق القول ان الانسان فيه قطرة أو أن كيانه هو كنقطة في محيط الروح أو شرارة من نار القدرة أو شعاع من نور الشمس العظمى هذا كله استعارة ومجاز لتقريب الحقائق ولكن ليس هناك انفصال أو تجزئة للروح . فهذا غير ممكن الحدوث .

ان المظاهر الثلاثة التي يتجلى فيها الحق (الروح) هي كما يدركها عقل الانسان :

١ - المادة (اكاذا) .

٢ - الطاقة (برانا) .

٣ - العقل (شيتا) .

هذه الثلاثة يعترف بها علماء الغرب الحديثون وان حاول بعضهم التملص من القوة الثالثة بينما يرى اليوجيون أن هذه ليست ثلاثة أشياء انما هي ثلاثة مظاهر لشيء واحد اذ يرون أن المادة ما هي الا طاقة كثيفة وكذلك الطاقة ما هي الا عقل كثيف . وان العقل في أعلى درجات صفائه يقترب كيانه من كيان الروح التي انبثق عنها ا

المادة

المادة كلمة يستعملها العلماء للتعبير عن كل ما صنعت الأشياء منه وهي منتشرة في (المكان) وليس في المكان خلاء غير مشغول

بها، والمادة صلب وسائل وغاز لا قرار لها على حال ، والمادة هي هي تختلف الطاقة التي تتخللها - كالحرارة مثلا - فتختلف صورتها كالصخر يتحول الى رماد والجليد الى ماء والهواء الى سائل وهكذا مما يعرفه الناس جميعا ويتحول الرماد الى غذاء للنبات والى مادة الحياة فيه وهكذا ترى ان ما كان جزءا من الصخر أصبح جزءا من النبات واذا به يتضوع ريحا من روائح الزهر أو لونا من ألوانه ويتحول النبات الى غذاء للانسان حتى يصل الى ذرات المخ وبهذا ينتقل الصخر الى أرقى ما في الوجود - عقل الانسان - وفي هذه العملية الطويلة المعقدة تتحول المادة من صورة الى صورة ، ومن حال الى حال ، دون أن تتغير ذرة واحدة من عنصرها ودون أن تبيد أو تبنى ذرة واحدة ، وتخرج المادة من جسم الانسان في أغلظ وأرق صورها - غاز ثانى أكسيد الكربون الخارج مع الزفير من الرئتين بعد أن ينقى الأكسجين الدم وهكذا تعود المادة الى الهواء ليمتصها ورق الشجر غذاء للنبات فتصل الى جذور الأشجار التي تتحول مع الزمان فحما حجرا . وسبحان مسير الكون الخلاق المبدع الحكيم (١) .

يقول فلاسفة اليوجا ان هذه الظاهرة ظاهرة المادة وتسلسل التغييرات فيها ما هي كلها سوى مظهر لعنصر أصلى لا وجود لغيره

(١) هذه الفقرة ترجمت بتصريف فى الألفاظ مع المطابقة التامة للمعنى .

المترجم .

وان العناصر المختلفة التي تتحدث عنها الكيمياء ما هي الا مظهر
لذلك العنصر الواحد وان الكيمياء اذا بلغت من التقدم درجة
أعلى ستكشف عن هذه الحقيقة ، وعلم الطبيعة في طريقه الى
الوصول لنفس النتيجة وأن كان الآن عاجزا عن اثباتها بالتجربة
فان العلم يقرر أن المادة تتركب من ذرة غير قابلة للانقسام وقد قال
البعض أن هذه الذرات هي أصل الوجود وهي تحل عندهم محل
(الله) عند أهل الديانات لولا أن التطور لا يجعل لهذا الرأي قيمة .
الا أن العلم يبحث عن ذرة داخل الذرة وقد لمح الى ذلك العلماء
نتيجة لبحوثهم وربما ظهر قريبا عندما يتوغل بحث العلماء داخل
الطاقة حتى منابعها ، وربما اجتمعت الطاقة وقوة العقل في مصدر
واحد هو القوة المطلقة . أن بين العلم وهذا الهدف أمد بعيد والى
كان اليوجيون قد أدركوه منذ زمان طويل (١) .

(١) كتب هذا سنة ١٩٠٤ ولا شك أن القارىء قد وضح له أن
هذه النبوءة قد تحققت فعلا بعد ان اثبت العلم ان المادة كما عرفها
علماء القرن التاسع عشر اصبحت في ذمة التاريخ وبعد ان تحطمت
الذرة ونشأت عن تحطيمها قدرة لا حد لها ولا يعرف مدى نتائجها
الا الله .
(المترجم)

الدرس الحادى عشر

المادة والقوة

اتهى الدرس السابق بالحديث عن المادة وكما قلنا ، أن المادة تتألف من ذرات غير قابلة للانقسام ، وأن العلماء أصبحوا يظنون بهذه النظرية الظنون بعد اكتشاف أشعة اكس والرادىوم فأصبحوا يعتقدون امكان تحليل الذرة بعد أن كان العلم استراح الى أنها أصل المادة وأنها عنصر لا ينتج عن تحليله غيره . ويبدو أن العلم الآن على وشك التسليم بتعاليم اليوجا وهى أن المادة فى أرق حالاتها تذوب وتنتهى الى الطاقة وان المادة ما هى الا طاقة غير صافية صفاء الطاقة ، طاقة أقل صفاء من الطاقة البحت .

عنصر المادة كما تقول الصحف والمجلات هو الالكترون وهو شحنة كهربائية وقد قرب أحد العلماء فكرة الالكترون بالنسبة للذرة فقال : تصور غرفة طولها ٢٠٠ قدم وعرضها ٨٠ قدما وارتفاعها ٥٠ قدما وفى فضاء هذه الغرفة ألف شرارة كهربائية كل منها فى حجم النقطة (•) المستعملة فى الكتابة العادية ، وبنسبة الفراغ الذى تتمتع به هذه النقط داخل الغرفة الشاسعة تكون

نسبة الفراغ الذي تتمتع به الالكترونات داخل الذرة . فاذا رجعنا الى حجم الذرة ، وتذكرنا أن العين البشرية لا يمكن أن تراها ، أدركنا مدى العجز عن تصور حجم الالكترون الذي يهيم داخل الذرة كما تهيم النقطة في فراغ الغرفة الشاسعة .

ولا شك أن هذا العجز سيزيد ويتضاعف اذا قيل لنا أن هذه الالكترونات في حركة دائبة تدور حول نفسها وحول بعضها كالكواكب في عالم دقيق .

وقد اضطر العلماء للالتجاء الى هذه النظرية واعتقاد صحتها ليفسروا بها ظاهرات طبيعية . ونحن لا نقول اننا نسلم بها على أنها الكلمة الأخيرة في الموضوع ، ولكن لأنها اقتربت اقترابا شديدا من نظرية اليوجا التي تقول ان المادة والطاقة شيء واحد وسيرى الطلبة من وقت لآخر أن كل كشف علمي جديد سيشير الى هذه الحقيقة وكيف أنه سيتم آخر الأمر ادراك حقيقة أخرى هي أن الطاقة في أشكالها الأكثر صفاء تذوب وتنتهي الى العقل . وربما ابتسم قارئ وهو يتلو قولنا هذا بعد خمسين سنة أو أكثر عندما يشاهد مدى تحقق هذه النبوءة^(١) ونحن نمد أيدينا عبر الخمسين سنة الى هذا الطالب الذي لعله لم يولد بعد .

(١) نحن الآن (في عام ١٩٥٧) بعد نحو ٥٣ سنة من القاء هذه المحاضرات ولا شك أننا نبتمس جميعا لتحقيق هذه التكهينات التي وصل الكاتب اليها وحققها تحطيم الذرة ، وهو تحول المادة الى طاقة ، وربما وصل العلم الى تحويل الطاقة الى عقل فتم أجزاء النبوءة جميعا .
(المترجم)

أما العقل فربما لا يكون أحد قد توصل الى فهم شيء عنه حتى في المستقبل الذي نشير اليه ، اللهم الا اذا فهم على أنه مظهر من مظاهر المطلق يعلو القوة أو الطاقة بقدر ماتعلو الطاقة المادة .
العقل والقوة والمادة ثلاث صور أو ثلاثة أشكال لمظهر واحد وراءهما جميعا (المطلق) (المبدع) (الخالق) مظهر المظاهر .

ولنلخص مسرعين النظريات الحديثة العلمية عن المادة لنرى مدى قربها ومسها لتعاليم اليوجا . يرى العلم الغربي أن المادة تشغل الفضاء (المكان) الى ما لا نهاية (الأثير مادة) وهو يرى أيضا أن المادة لا تتغير ولا تفنى ، وانها غير قابلة للزيادة ولا للنقصان وان كميتها هي هي الآن وكما كانت وكما ستكون ، وانها وجدت منذ الأزل اذ لا يعقل أن تكون وجدت من لا شيء وانها ستبقى اذ لا يمكن أن يصبح شيء لا شيء . وهكذا نرى أن العلم الغربي اتخذ من المادة الها اذ نسب اليها صفات المطلق القائم بذاته الذي لا أول له ولا نهاية ، بدل أن يضعها في مكانها ويعلم أنها مظهر فقط للقوة ، فلا ينسب اليها ما ليس لها كما أن القوة أو الطاقة مظهر للعقل وكما أن العقل مظهر للمطلق .

أما فلسفة اليوجا فتقرر أن المادة بنفسها لا وجود لها وما هي الا حالة من حالات القوة انبعثت من الطاقة التي انبعثت من العقل والعقل مظهر لقدرة الله (المطلق) . وهي تتكلم عن العقل والطاقة

والمادة على أنها مظاهر ثلاثة تنبثق كل منها عن الأخرى وستكلم
نحن أيضا على طريقتهم هذه في دروسنا هذه .

قال بعض العلماء أن المادة هي (الكل) لا شيء قبلها وأن
الطاقة والعقل آثار لهما . وقال آخرون ان الطاقة هي (الكل)
وأن المادة منها والعقل من آثارها . وقال الفلاسفة أن العقل هو
(المطلق) وأن المادة والطاقة مظهر كالسراب لا حقيقة لهما واتبعهم
بعض من يخلطون بين الدين والطبيعة وما وراءها .

أما اليوجا وفلسفتها فهي تقبل هذه النظريات كلها على أن في
كل منها شيئا من الحقيقة ولكن وراء هذه المظاهر كلها التي وصفت
بأنها الأصل الخالق حقيقة واحدة والها واحدا هو علة هذه كلها
وما هي الا مظاهر لقدرته وقوته ، ولا تعارض فلسفة اليوجا أحد
هذه الآراء انما توفق بينها وتجمع شتاتها وتقرر أن كل شيء يتفرع
من الواحد المبدع الذي يعلو كل شيء ومنه كل شيء .

وقبل أن ندع ما يقول به العلم وما يراه العلماء الطبيعيون في
المادة نود ألا يفوتنا أن نشير الى نوع من المادة لجأ العلم اليه
يملا به الفراغ الذي بين النجوم والكواكب والفراغ الذي بين
الالكترونات في الذرات وما بينها وسموا هذه المادة الأثير وقالوا
انها أرق أنواع المادة وألطفها فهي لا تدرك بأية وسيلة من وسائل
الادراك أو الحواس ولكن وجودها ضروري لتكون موصلا

للضوء والكهرباء أنشأ العلماء هذا النوع من المادة حتى لا يكون في الكون فراغ لأنهم قالوا ان المادة في كل مكان لا أول لها ولا آخر ولا حدود وهكذا قامت نظرية الأثير .

وحتى هذه المادة (الأثير) لا تنكرها فلسفة اليوجا ولا تختلف مع العلم بشأنها لأنها تقول عن المادة (اكاذا) انها موجودة في الكون كله ومنها تتكون أنواع المادة في صورها المختلفة من الأثير بأنواعه الستة التي تتدرج في الكثافة ثم الهواء والغازات والأبخرة ثم السوائل ثم الصلب من المواد وان الاكازا (المادة) تتكون منها أدق المواد وأغلظها ، منها الشمس والقمر والنجوم والهواء والماء وأجسام الانسان والحيوان والنبات والأرض والصخر وكل ماله شكل وحجم مما يدرك بأحدى الحواس ومن الاكازا ما دق من الأشياء حتى لا تدركه عين ولا حاسة من الحواس .

والأرواح التي تسبح بعد أن فارقت الأجساد لها أجسام دقيقة لا ترى ولا تحس . كذلك الأرواح التي في عالم أعلى من عالمنا هذا لها أجسام من المادة في شكل من أشكالها الرقيقة ومن هذه المادة الرقيقة ما يشيع في أجسامنا فيمسك بعضها ببعض أن تتساقط وتتناثر .

والمادة بصورة من صورها الدقيقة الست ضرورية للطاقة أو القوة تعمل عملها بواسطتها ومن خلالها ، والعقل كذلك لكي يؤدي وظيفته لا بد له من مادة كالأثير ينقل عمله خلالها ويظهر أثره فيها .

الله يظهر مشيئته بأن يخلق خلقه والعقل أدواته ، والعقل ينقل المشيئة بواسطة الطاقة الى المادة ، انها أدوات أو وسائل للإبداع كالورقة والمداد والقلم للخيال يستطيع بها أن يصور صورة يدركها خيال الناس كأقرب ما تكون من الصورة التي ارتسمت فيه .

نذكر ذلك كله ليعلم القارئ أن المادة لها صور وطبقات تدق أعلاها حتى تغيب لرقتها لا عن الأنظار ولكن حتى عن الأفهام . ولقد أدرك الباطنيون منذ القدم ذلك حتى قال أحدهم (ان المادة ثوب الله) وهذا التعريف قد يساعد القارئ على ادراك قداسة المادة وكرامتها ولو كانت هي السفلى في الميزان .

يجب أن تتجنب السخافة التي تقول ان الله هو المادة .

ويجب كذلك أن نبتعد عن سخافة لا تقل عن الأولى تلك هي قول بعض الغلاة أن المادة شيطان دنيء أو القائلين بأنها لاشيء . لم تقصد أن نذهب بك في الحديث عن (اكارا) في هذا الدرس الى تفاصيلها الدقيقة ولكن سنجتزئ بالقول مجملا أن كيان (اكارا) يبلغ من الدقة حدا لا سبيل معه الى ادراكها حتى لأدق الأفهام اللهم الا (أولى الألباب) تلك الأرواح التي تتخذ من هذه المادة لرقتها أجساما لها ، انها حجاب المادة الرقيق الأخير الذي يفصل تلك الأرواح عن القدرة الالهية ، انها أطف كيان للمادة حتى لقد قال بعض الیوجيين انها (المادة البحت) .

في بدء الأدوار العديدة الرئيسية في خلق الحياة في مختلف أجزاء الكون أو الأكوان المتعددة ان شئت تفضيل هذا التعبير ، تكون أكازا في ألقى صورها هي مادة الكون الأولى ثم يستعمل الله العقل الأول المنبثق عنه وهو أول مظهر لقدرته ، يستعمله في ايجاد (القوة) أو (الطاقة) أو (برانا) في هذه المادة النقية وهذه تتصور بصور الأثير الست التي أشرنا اليها على أنها ألطف أشكال المادة ثم تنزل الى شكل الغازات والأبخرة الأكثر كثافة ثم الى السوائل ثم الى المواد الصلبة وهكذا يتم خلق الكون من ألطف الصور (أكازا) الى أكثف أنواع المادة الصلبة . حتى اذا قاربت الخليقة نهاية دورها وخاتمة تطورها انقلبت عملية التطور من جديد فترتفع المادة من درجاتها الكثيفة الى الدرجات العليا فتبدأ المادة الكثيفة بعد ملايين ملايين السنين في التحول الى ما هو ألطف من سائل الى غاز الى الأثير في صورته الست الى (أكازا) المادة النقية ثانية فتظل هذه في نقائها حتى يأتي أمر الله ويبدأ دور خلق جديد — من جديد .

ولا بد أن يسبح بالطالب خياله فيتساءل ان كان من المحتمل الممكن في احدي هذه الدورات العظمى من دورات الخلق أن (أكازا) هذه تتحول من المادة النقية ، غاية النقاء الى الطاقة ، وتتحول الطاقة فتندمج في العقل الذي يندمج هو الآخر في الله .

أوليس القول بأن هذه العناصر تتجلى في صورها قدرة الله
يمكن أن يؤدي الى القول بأن هناك بدءاً لمشيئة الخلق هذه وأن
هناك نهاية لهذه المشيئة وان هذا البدء وهذه النهاية يترتب على
تقريهما أن عمليات الخلق تتكرر وتتكرر حتى يكل العقل عن
الاستمرار في التصور والادراك ؟

ونحن نجيب على هذا التساؤل المرتقب بأن عمليات المخلوق
تسمو وتعظم حتى يجعل فهمها على أرفع العقول وأعظمها قدرة —
على الملائكة^(١) وأقطاب الملائكة .

لقد سلمنا المعلمون هذه الكلمات وهم حين سلموها لنا يقررون
ويعترفون بأنهم لمحوا بوارق وخوارق تجاوزت حدود ادراكهم
بدرجة جعلت عقولهم الجبارة تترنح ترنح الثمل فقد وعيه . فنحن
والحالة هذه لنا الحق في أن نسأل الطالب أن يقصر بحثه على دور
خليقة واحد ربما تحدثنا عنه في درس أو دروس في المستقبل .

ولكن اذكروا هذا أيها الأخوة في الطريق . اذكروا أن تأملنا
في عجائب أكوان الله ربما جعلنا تتخيل أن الله بعيد عن هذه الأرض
بعيد عنا ولكن الواقع أنه بالرغم من عظم وجسامته تدير الأكوان

(١) هنا يضيف المؤلف كلمة (الآلهة) لأن فلسفة اليوجا تسلم
بوجود قوة بين المبدع والملائكة يسمونها (آلهة) ولكن هذه الكلمة
ينفر منها المسلم والمسيحي على السواء للايمان بأن الله واحد وتليه
الملائكة من خلفه .
(المترجم)

فان الله جل جلاله معنا هنا دائما ، هنا حولنا هنا فينا . انه أقرب للأخ من أخيه أقرب من الأم الى رضيعها أقرب من الحبيب لحبيبه أقرب اليكم من قلوبكم من دمائكم من عقلكم .

ان الروح دائما معكم فتشجعوا ولا تخورن عزائمكم فان هذا حق حتى بالنسبة لأخس الناس وأتفه الناس وأقل الناس شأنًا ، ان هذا حق حتى بالنسبة لأرفع الناس وأعلى الناس وأطهر الناس والفرق الوحيد كائن في مدى شعور الانسان نفسه بهذا القرب .

فان كنتم لا تدركون هذه الحقائق العلمية وهذه التعاليم أو لا تتذوقونها فلا يكون ذلك سببا لمضض أو أسى . ليس من الضروري أن تؤمنوا بها وأقل ضرورة أن تفهموها وأقل من ذلك أن تقبلوا على دراستها . كل ما هو ضروري هو هذا : تعلموا أن تعرفوا أن الله فيكم وفي جميع الآخرين وانكم من الضرورة له بمكان ضرورته لكم لأنكم جزء من فكرته ومشيبته تعلموا أن الحياة في كل شيء واحدة . وافتحوا قلوبكم لفيض الحب الالهي والحكمة العلوية وكونوا راغبين في النمو . تقدموا وازدهروا .

ستجدون في دراستكم أن قانونا واحدا نافذ في أعظم الأشياء وأقلها في هذا العالم — عالم الكون والفساد . انه قانون واحد يسير تطور العوالم كما يتحكم في حياة الذرة — كما في السماء كذلك على الأرض — وكلما أمعنتم في الدراسة وضحت لكم هذه

الحقيقة . ادرسوا الأشياء القريبة منكم تجدوا مفتاح الأشياء
البعيدة .

ليس في العالم كبير ولا صغير . آمنوا وتشجعوا وامتلئوا
أملا . وأكثر من هذا كله اتجهوا للحب والاحسان .

والآن لننتقل لدراسة المظهر الثانى :

القوة أو الطاقة (برانا)

القوة أو الطاقة من خواص الطبيعة ويمكن تعريفها بأنها قوة
المقاومة أو التغلب على المقاومة أو ما يسبب الحركة فالقطعة
الصلبة من الصلب اذا ضغطت كانت فيها قوة تعمل عملا يؤدي
الى عودتها الى وضعها الأصلي . وكمية البارود فيها قوة لأنها اذا
انفجرت عملت عملا والجسم المشحون بالكهرباء فيه قوة لأنه
يعمل عملا عند تفريغ شحنة الكهرباء وكل الذرات التى تملأ الفضاء
تموج بحركة دائمة ويعتبر العلم هذه الحركة دائمة أبدية بمعنى
أنها لا تنتهى .

وكل تحول طبيعى وكل عملية كيمياوية يصحبها تغيير فى الذرات
التي تكون المادة وكل أنواع القوة كالكهرباء والمغناطيسية والحرارة
وقوة الأعصاب وأنواع الحركة التى تصاحب تغيير مراكز الذرات
بالنسبة لبعضها كل هذا فيه طاقة أو فيه مظهر من مظاهرها ولأولئك

الذين لا يشتغلون بالطبيعات يمكن تعريف الطاقة بأنها الخاصية التي تسبب حركة المادة كلها أو جزيئاتها .

ونظرية العلم الحديثة بالنسبة للطاقة تشابه نظرية العلم بالنسبة للمادة فتقول ان الطاقة مهما تحولت من صورة الى صورة فان كميتها لا تزيد ولا تنقص .

(الطاقة لا تبنى) كما أن المادة لا تبنى .

يظهر من هذا أن العلم يؤيد أنه ليس في قدرة أية قوة مادية أن تخلق ذرة من المادة من العدم كما أنه لا تستطيع قدرة مادية أن تزيل من الوجود ذرة من الطاقة الموجودة فكلتاها ثابتة الكمية .

قد يتغير شكل المادة بتعديل نسب الذرات المكونة لها كما أننا نستطيع أن نحول الطاقة من صورة الى صورة أخرى ولكن لا هذه ولا تلك قابلة للفناء . الطاقة هي التي تتحكم في صورة المادة وتسبب التغيرات التي تطرأ عليها ويتحدث بعض العلماء عنها على انها صفة للمادة أو خاصية من خاصياتها بينما يعتبرها البعض الآخر شيئاً قائماً بذاته يعمل جنباً الى جنب مع المادة ويمكن توضيح كيفية تحول الطاقة من صورة من صورها الى صورة أخرى بالمثال التالي:

المصباح الكهربائي يظهر نورا وهذا النور ناشئ عن مرور تيار كهربائي في خيط من الكربون يقاوم مرور الكهرباء وهذه المقاومة تسبب تحول طاقة الكهرباء الى حرارة ونور والطاقة الكهربائية

يولدها (دينامو) طاقته تولدها آلة بخارية وهذه الآلة البخارية تستمد قوتها من قوة البخار التي تتحول في الآلة الى حركة ، وقوة البخار أو طاقته تتولد من تمدد الماء في مرجل الآلة بفعل الحرارة ، والحرارة قوة مستمدة من الفحم يولدها احتراقه وقوة الفحم مستمدة من قوة الشمس التي أودعت في الأشجار التي تكون الفحم منها والشمس قوتها مستمدة من قدرة الله .

أرأيت أن المسألة مسألة تحول القدرة من شكل من أشكال الطاقة الى شكل آخر ، أو من مظهر من مظاهرها الى مظهر آخر ؟ ويمكن متابعة عملية التحول هذه الى مدى أبعد اذا تابعنا القوة الكهربائية - بدل تحولها الى ضوء في المصباح الكهربائي - في مظهر آخر اذ تدير محركا معقدا يدير آلات تولد قوى تستعمل في أغراض أخرى ولكن النظرية قائمة لا تقض لها - تحول الطاقة من شكل الى شكل - ويحسن بالطالب أن يرجع الى بعض المؤلفات في الفلسفة الطبيعية أو علم الطبيعة ليطلع على المزيد من العلم بالطاقة والقوة والحركة وتحولها .

ان تحول الطاقة لا ينقطع . ومن أمثلة ذلك - وهي ماثلة في كل شيء - قذف الكرة . نمسك الكرة باليد وبإشارة تنتقل من المخ الى عضلات معينة في الذراع والكتف تنقبض العضلات وتنسبط فتتحرك اليد وتقذف الكرة وتضرب الكرة هدفا تلقيه

أرضاً . وإذا تصورنا قوالب آجر يستند أحدها الى الآخر في صف يدور حول الأرض فاننا نستطيع أن نولد حركة حول الأرض اذا دفعنا أقربها اليها فيدفع الذي يليه وهذا يدفع الذي يليه وهكذا . وكمية البارود اذا انفجرت في المدفع قذفت قوة الانفجار القنبلة فتتحرك حتى تتدخل قوة أخرى — قوة جذب الأرض — فتجذب القنبلة الى الأرض .

يقول العلم (الطبيعي والباطني المكنون على السواء) ان المادة في حركة دائبة أي أن الذرات في حركة دائبة أو ذبذبة وهذه الذبذبة تولدها الطاقة . نحن لانستطيع ادراك هذه الذبذبة لأنها لا ترى ولا تحس ولكن المقرر أنها موجودة ولولاها لكانت الحياة في شكلها الحاضر مستحيلة . وكل شكل من المادة ناشئ عن سرعة الذبذبات فيه ولا يتسع المقام هنا لبحث هذا الموضوع فان أراد الطالب التوسع فيه فما عليه الا أن يرجع للكتب الخاصة به وهي شائعة .

لقد أجملنا النظرية من الناحية العلمية ومنتقل الآن الى تعاليم اليوجا في (برانا) التي تطابق تماما نظريات العلم في الطاقة . والواقع أن المجال ضيق جدا لا يسمح بالتعرض لأوجه الخلاف بين المشتغلين بالبحث في أمهات المسائل .

تقول تعاليم اليوجا ان المادة أو جميع الأشكال التي تتشكل

بها (أكازا) فى حركة دائبة فلا سكون فى عالم المادة وما يبدو ساكنا من الأشياء انما هو أمر نسبى فقط . الحرارة والضوء . ما هما الا حركتان — مظهران للطاقة — .

الشموس والعوالم تتحرك مندفعة فى الفضاء وذراتها فى حركة دائمة وتحول مستمر ، والتفاعل الكيماوى بين المواد دائم لا ينقطع والتركيب والتحليل والبناء والهدم ما هى الا حوادث الحياة ، حياة الخلايا وحياة الذرات لا استقرار فى الطبيعة . عمل دائم دائب ينتج شيئاً بانضمام خلايا أو ذرات الى بعضها طبقاً لقانون معين ولكن لا خلق لجديد اذ لا يمكن أن يوجد شىء من لاشىء .

هذه القوة أو الطاقة التى تولد الحركة تعرف فى السنسكريتية بكلمة (برانا) برانا كالمادة (اكازا) موجودة فى كل مكان . يقول علم الطبيعة الحديث انهما أبديتان — قديمتان — دائمتان بذاتهما ولكن فلسفة اليوجا تقول انهما مظهران فقط للقدره الالهية وانهما أبديتان بالقدره الالهية لا بذاتهما . هما نسبيتان وليستا مطلقتين . ان لهما علة ، انهما قد ظهرا منبثقتين عن القدره الالهية وحين تشاء القدره فانها تطويهما (طى السجل للكتب) فتختفيان وتبقى القدره . ولولا ذلك ما كان وجودهما هذا الذى جعل العلم اذا تحدث عنهما يقول انهما أبديتان قديمتان . يعتبرهما العلم الحديث — المادة والطاقة — شيئين مختلفين كل منهما مستقل عن الآخر

ولكن فلسفة اليوجا تقول (ان المادة « أكازا » صورة غليظة للطاقة « برانا » وأنها منبثقة عنها) ولكن عند بحث الكون سنتحدث عنهما على أنهما شيئان مستقلان لأنهما يعتبران كذلك في كل الأحوال .

(برانا) تتجلى في كل صور الفعل والطاقة والحركة كما بينا في الحديث عن الطاقة ولكن بدرجات وحالات مختلفة وان كان المبدأ واحدا دائما .

ومن الممكن أن تتحول حالة من حالاتها الى حالة أخرى كما ذكرنا . ويتفق العلم الحديث مع الفلسفة الشرقية في هذا كما يتفقان على أن الطاقة في الكون لا تزيد ولا تنقص ولكن - وهنا الخلاف - يقول اليوجيون أن الطاقة صورة غليظة للعقل وان القدرة الالهية تخرجها من العقل كما تستطيع أن تستردها بنفس الوسيلة وقد تقبل نظرية الغرب على أنها فرض معقول عملي عند البحث بصفة عامة .

يقول العلم الغربي أنه لا يمكن أن توجد المادة بدون الطاقة ولا الطاقة بدون المادة .

وتتفق فلسفة اليوجا معه على أن المادة بغير طاقة غير ممكن تصورها ولكنها تقرر أن هناك طاقة بلا مادة فقد كانت الطاقة (برانا) موجودة قبل أن توجد المادة (اكازا) ولو أن الذي كان

موجودا في ذلك الوقت من الطاقة هو جوهرها ، كان موجودا في الحالة الكامنة بدون حركة كتلك التي تظهر نتيجة لتأثير الطاقة في المادة ، كانت الطاقة بدون فعل بخلافها بعد أن وجدت المادة (من الطاقة) وظهر أثرها .

على أن الكون بوضعه الراهن كما نحسه لا وجود فيه للمادة غير طاقة كما أنه لا وجود للطاقة الا في المادة ونتيجة لها ، وعلى هذا يجوز للطالب أن يقبل نظرية الغرب على أنها فرض عملي بشرط ألا يغيب عن ذهنه التعليم الصحيح .

لقد تكلمنا عن (برانا) أو القوة الحيوية في كتيبنا (علم التنفس) وفي بعض دروسنا الأربعة عشر السابقة وفي (هاتا يوجا) وسنتناول عند حديثنا عن (راجا يوجا) بعض المسائل الهامة في (برانا) من نواح أخرى غير اعتبارها قوة حيوية كما كان سيطرة العقل والارادة عليها مثلا .

ولكن الطالب الآن يعلم أن (برانا) مكثفة من العقل وهي في الواقع مظهر له أو امتداد لحالته الأصلية وان الذي عنده علم بالقوانين التي تتحكم فيه يستطيع بواسطته (العقل) وتحت اشراف الارادة أن يكون ذا سلطان على برانا هذه القوة الحيوية ، وهذا السلطان داخل في نطاق الراجا يوجا وسنتحدث عنه كذلك عند الحديث عنها .

وحسبنا الآن أن تقول انه معلوم أن الموجب له الاشراف دائما
على السالب والتحكم فيه ، وموقف العقل من البرانا كموقف
الموجب من السالب بالارادة يمكن أن يتسلط العقل على القوة اذا
عرف الطريق . وما يسميه اليوجيون (برانا ياما) هو علم أو فن
التحكم في القوة الحيوية بالعقل والارادة وهذا التحكم في ذروته
الذى يتمتع به الذين تقدموا بالروح في الشرق والغرب هو الذى
يتميز به الأقطاب والمعلمون ويجعل العالم يعرفهم ويعرف به
فضلهم . ولكن قواعد هذا العلم الكبرى وأسراره يحتفظ بها
قليلون في حرص شديد خشية أن ينحدر الناس بها في مزلق
الخرسة وسيئوا استعمالها ان ذاعت فيهم أسرارها وشاع بينهم
العلم بها ومع ذلك قسما لا يستهان به من هذه الأسرار قد أصبح
الآن مسموحا باذاعته بين المستحقين له المستعدين لحمل أماتته
وفي مقدرة كل طالب يجد في نفسه روح المثابرة والانصراف الى
النمو الروحى أن يطبق ما يتيسر له من العلم على العمل وأن
يستخدم حسب مقدرته علم (برانا ياما) في التحكم في القوة
الحيوية بعقله و ارادته وهناك أمور أخرى بجانب هذا التحكم
تدخل في الراجا يوجا وان كان هذا من أهم أهدافها .

وقبل أن تترك موضوع الطاقة أو برانا نود أن نلفت نظر
الطالب الى أن بعض المنقطعين للبحث العلمى فى الطاقة ومظاهرها

قد اتاحت لهم ومضات ولمحات من أسرار تعاليم اليوجا ونظريتها
القائلة بأن الطاقة مظهر كثيف للعقل وأنها ترقى وتصفو حتى تمتزج
به وأن هؤلاء الباحثين جابتهم حالات حملتهم على الاقتناع بأن
الطاقة في بعض حالاتها تتصرف كما لو كانت عاقلة لا تخبط خبط
عشواء فاذا اتجه اهتمام الباحثين الى هذه الناحية (وهو متجه قبل
مضى وقت طويل) فانهم بعد أن يولوها حقها من البحث ستتكشف
لهم حقيقتها وسيضعون لها نظريات توضح غامضها وتقربها للفهم ،
وعندها يسلم العلم بصحة تعاليم اليوجا ويتقبلها .

وننتقل الآن الى ثالث المظاهر العظمى للنسبية .

العقل

لنستمع أولا الى ما يقوله العلم الطبيعي عن العقل . لقد تقدم
العلم الغربي المادى بالكثير من النظريات بعد أن اتفق علماءه على
نبذ نظريات الفلاسفة وعلماء ما وراء الطبيعة السابقين وحاولوا أن
يحلوا محلها نظريات مبنية على المادة تفسر الظواهر العقلية فحاولوا
أن يضعوا النظرية على أساس أن العقل ما هو الا أثر من آثار
المادة أو نتيجة تفاعلات كيميائية فيها أو نتيجة ميكانيكية لها أو
شيء ينبت منها أو اشعاع لها حتى لقد قال أحد العلماء أن المخ يفرز
العقل كما تفرز المرارة الصفراء !!! :

لقد بدأ العلماء من النهاية فأخطأوا . لقد أرادوا أن تكون المادة أصل الوجود وانها الكائن الأول المطلق وأن الطاقة والعقل أثنان لها بينما العكس يجعلهم أقرب للصواب وهو ما يقول به اليوجيون . وان كان رواد العلم قد بدأوا يدركون خطأ العلماء هذا وبدأوا يميلون الى الأخذ بأن العقل والطاقة والمادة شيء واحد في صور متعددة وسموا هذا الشيء (المادة substance) انهم يقتربون بسرعة من أحلام الباطنيين (الحالمين) الذين كانوا يزدرونهم .

ويقول وبستر في تعريف العقل أنه (القوة المفكرة أو المدركة في الانسان أى الفهم الذى هو القوة التى تتصور أو تحكم أو تعلق) وهذا التعريف يتغاضى عن الحقيقة الثابتة أعنى وجود العقل فى الحيوانات الدنيا وفى الحياة النباتية وحتى فى المعادن . وان كان الذين يقصرون العقل على الانسان يسمون عقل الحيوان (الغريزة) ويطلقون عليها فى المعادن الجاذبية الكيميائية .

وبذلك يسلم الذين يجعلون العقل وقفا على الانسان بوجود قدرة مشابهة للعقل فى الحيوانات الدنيا والنبات .

ولقد اعتبر بعض الباحثين أخيرا تفاعل ذرات المعادن (بما فيها الزيوت المعدنية) . منقادا وراء نوع من العقل وهذا هو رأى اليوجيين الذين يقولون أن العقل والطاقة والمادة لا تنفصل عن بعضها فى أصغر ذرة وأكبر مجموعة من الذرات ويقولون أن كل

صور الوعي من مجرد الاحساس الى أعلى درجات الوعي الروحي،
ما هي الا مظاهر للعقل .

ولا يتسع المقام في هذا الدرس للحديث عن علم النفس فان
الحديث فيه يكون غريبا عن أغراض الدرس ولكن لكي ننقل
للطالب فكرتنا عن معنى العقل يجب أن نقول اثنا نعني بقولنا
(مظاهر العقل) كل عمل فيه وعى ونقصد بالوعي كل دليل
أو مظهر للملاحظة أو الانتباه من مجرد الاحساس الى الوعي في
أكمل صورته وسيرى الطالب لماذا وضعنا هذا التعريف .

الاحساس وهو أول درجات الوعي يعرفه وبستر بقوله : أثر
ينطبع في العقل عن طريق أعضاء الحواس : شعور توقظه عوامل
خارجية أو تغير طارئ على حالة الجسم الداخلية .

والاحساس هو الوعي المعروف بالشعور وهو يختلف عن
الادراك لأن الاحساس عن طريق الحواس والادراك عن طريق
العقل ، فمثلا اذا وقفت ذبابة على يد انسان أحس بوجودها على
يده ثم أدرك وجودها بعقله . واذا شم الانسان بأنفه عير وردة
تنبه العقل الى وجود الرائحة فيميز أنها رائحة الورد ، لعل الفرق
واضح . على أي حال هذا ليس درسا في علم النفس وانما كل
ما نريده تحديد معنى الاحساس عندما نتكلم عنه على أنه دليل
على وجود العقل .

لا يمكن وجود احساس بدون وجود العقل بصورة من صورته
يتميز أو يدرك بها ، فكما أنه لا يمكن أن يوجد احساس بدون
شيء يثيره كذلك لا يمكن وجود الاحساس ان لم يوجد ما يتلقاه
وهذا الذي يتلقاه هو العقل بشكل ما وعلى درجة ما . هذه هي
النقطة التي تريد أن تذكرها دائما .

والوعى أو الشعور نوع من الاحساس على مستوى رفيع .
وأبسط أنواع الاحساس فى المخلوقات البسيطة التركيب يختلف
عن أرفع الوعى فى الانسان أو الكائنات الأرقى من الانسان فى
الدرجة لا فى النوع .

وما خلا المطلق ، كل كائن ادراكه انما هو من عمل العقل
على تفاوت فى الدرجة . فالعقل عنصر شامل للكون كالمادة والطاقة
وهو مثلها فى اختلاف المظهر والتفاوت فى الدرجة .

ولنعد الى آراء العلم الحديث متخذين أرست هاىكل باعتبارها
رائد علماء الطبيعة فى هذا العصر (١٩٠٤) فكتبه تعتبر آخر
ما وصل اليه هذا العلم وتمثل أصدق وأحدث نظريات الفكر
المادى .

لا يرى هاىكل شيئا فوق المادة ولا وراءها ويؤمن بأن الكون
وجد بذاته ولم تتقدمه علة ولكن كتبه تدل على أن العلم الحديث
قد انشق على رأى نظرية المادية القديمة القائلة بالمادة (غير

الحية) أو المادة (الخام) وأنه وصل الى أسمى نظرة مادية عرفها العقل البشرى ، والواقع أن المدرسة التي أسسها هايكل والتي تسير على الخطوط التي رسمها لا بد وأن تصل سريعا الى حيث لا يفصلها عن رأى الروحانيين التقدميين شىء حتى انى لأذكر الآن كيف ان الذين شقوا النفق الهائل فى جبال الألب الذين شرعوا فى العمل من جانبى الجبل التقوا فى الوسط تماما وتلاقى نصفا النفق وتطابق بدقة متناهية ، كذلك هذان الفريقان الباحثان عن الحقيقة — فريق اليوجيين وفريق العلماء الماديين الطبيعيين — سيلتقيان عند نقطة يجدان فيها المطلق وان سماه كل منهما بتسمية تختلف عن تسمية الآخر .

وضع هايكل فى كتابه العظيم (عجائب الحياة The wonders of life أساس نظرية لوحدة الوجود قوامها (المادة المثلثة) يفصح عنها فى الافتراضات الثلاثة التالية :

- ١ — لا وجود للمادة مجردة عن الاحساس وعن الطاقة .
- ٢ — لا وجود للطاقة مجردة عن الاحساس والمادة .
- ٣ — لا وجود للاحساس مجردا عن المادة والطاقة .

ويسترسل فيقول عن هذه الحقائق :

« هذه الصفات الثلاث الجوهرية الأساسية توجد متحدة لا انفصام لها تتخلل الكون جميعا فى كل ذرة وكل جزيء » .

هذا أعظم تسليم يتقدم به أحد قادة الفكر المادى الحديث از
لم يكن رائدهم وقائدهم ، ولا شك أن الطلاب الذين يعرفون
رأى الماديين القدامى ومناقضته لتعاليم اليوجيين يقدرون قيمة
هذا الرأى الجديد الذى يقرره هايكل عميد الماديين اليوم ويضع
أسسه .

يقول هايكل فى أوجه المادة الثلاثة « ان المادة تملأ المكان
اللانهاى وانها أبدية لا تتغير وان القدرة أو الطاقة مثلها لا نهائية
أبدية الحركة ثابتة القيمة طبقا لقانون (الطاقة لا تفسى) وان
الاحساس المتحد بالمادة والطاقة على أنه الصفة الثالثة للمادة المثلثة
ينطبق عليه القانون نفسه فهو لانهاى أبدى غير متغير ويرى هايكل
ان ما يطرأ على الاحساس من تغيرات مثل ما يطرأ من تغيرات على
المادة والطاقة ما هو الا تغير له من حال الى حال آخر من أحواله
فيتخذ شكلا بدل شكل .

وواضح أن ما يسميه هايكل الاحساس هو الذى نسميه نحن
العقل (فهو يقول « ان الحياة العقلية فى البشر تبنى على احساسات
كل فرد ») ويستدل على ذلك بقول ناجيلى « ان عقل الانسان
هو غاية تطور العمليات الروحية التى تبعث الحياة فى الطبيعة
بقاطبة » .

اذكر أن هذا القول صادر عن مركز قيادة الفكر المادى التقدمى

وتأمل الفرق بين فلسفة اليوجيين ومذهب الواحدى العلمى الذى يقول به هايكل وزملاؤه من علماء المادية الحديثة .

تقول الفلسفة اليوجية بوجود حقيقة واحدة مطلقة وان هذه الحقيقة تتجلى فى ثلاثة مظاهر المادة (اكاذا) والطاقة أو القوة (برانا) والعقل أو القوة المفكرة (شيتا) والأخير جوهر لطيف لا قوام له كالمادة .

هذه المظاهر الثلاثة ما هى الا ثلاث صور لقوة واحدة تتطور من العقل الجوهر اللطيف الى صورة تليه لطافة وتقل عنه وهى الطاقة وهذه تتطور الى شكل أقل منها هى الأخرى لطافة وهى أكثف الثلاثة كيانا أو قواما وهى المادة وتتماوج الثلاثة فى بعضها وتتحول الواحدة الى الأخرى كما أوضحنا فى هذا الدرس .

وهذه الخواص الثلاث أو هذه الصفات الثلاث تنبثق عن الواحد (الحكيم القدير المبدع) ثم تعود اليه يستعيد بها بقدرته فتعود فانها منه ولا وجود لها بنفسها فلا وجود لها الا به .

المطلق هو الكائن الوحيد الحق القائم بنفسه لا يستمد وجوده من شىء . لا يتغير ولا يتبدل ولا يتحول وكل شىء منه وكل شىء زائل الا هو .

ويقول أصحاب المذهب الواحدى العلمى ان كل ما هو كائن شىء طبيعى يسمونه المادة ، وهو ذو ثلاث صفات أو خواص ، هى :

المادة والطاقة والاحساس ، فالمادة هي ما يشغل المكان ، والطاقة هي القوة المحركة ، والاحساس هو الشعور وبالتالي التفكير . ويقولون ان هذه المادة المثلثة كائنة بذاتها لا تتغير كميتها وان تغير المظهر الذى تبدو به .

فلسفة اليوجيين تقول بوجود الروح تلك القوة الالهية المستقلة عن مظاهر الكون الثلاثة (المادة والطاقة والعقل) وليس لدى المذهب الواحدى العلمى ما يقوله عن الروح فانه لا يعرفها ولا يعترف بها . فهو لا يفصل بين مجموع المادة المكون من ثلاثة عناصر وشىء فوق هذا المجموع ينبثق عنه كل شىء فليس لدى هذا المذهب شىء يقابل الروح فهو يرى المادة شيئاً طبيعياً وينكر على الأشياء أن يكون فيها عنصر روحى .

نظن أننا قد أحسنا عرض رأى المدرسة المادية العلمية والفكر الحديث أو هذا ما حاولناه على الأقل ، ان هذا المذهب يقول ان العالم قديم قائم بذاته لا مبدع له ولا خالق له وان وجوده محض صدفة . أى أن العالم هو اله نفسه ، وهذا (المذهب) بطبيعة الحال يجحد وجود حياة أخرى بعد الموت أو خلود النفس لأنه يرى أن النفس ما هي الا شىء ناشىء عن الاحساس ، وعلى الطالب أن يتبين أوجه الاتفاق والخلاف . فالمذهبان — اليوجى والمادى — يقولان بالواحدية ولكن شتان بين فهم كل منهما للواحد ، ونحن

نرجو أن تشرق روح الطالب على عقله بنور يضيء له الطريق الصحيح في هذا المضطرب من الطرق التي وان اختلفت تتفق على شيء واحد هو فكرة الواحدية .

وان الذين أشرق عليهم نور الروح ليستطيعون أن يتبينوا في يسر وجلاء النقطة التي تنحرف عندها الفلسفة الواحدية عن الطريق السوي الى ذلك المسلك الجانبي غير المعبد الذي لا بد وأن يرجعوا عنه يوما الى الصراط المستقيم .

سنحاول في الدرس القادم أن نبسط طبيعة العقل وصفاته وكذلك التعاليم المتصلة بالروح (أتمان) وصلة الانسان بالمطلق .
وليكن لكم السلام .

الدرس الثاني عشر

العقل والروح

في هذا الدرس سنتناول الموضوع من حيث انتهينا في ختام الدرس السابق عند الحديث عن طبيعة العقل (شيتا) وصفاته ، أول مظهر من المظاهر وأعظمها شأنًا .

وأينا من الخير عند الحديث عن هذا المظهر الأعظم أن نذكر الكلمة التي يستعملها اليوجيون للدلالة عليه — شيتا — بالسكريتية ومعناها (جوهر العقل ومادته) لا العقل فان كلمة العقل لا تدل على ما يعنيه اليوجيون بكلمة شيتا على التحديد . فبينما (العقل) يقصد به الادراك ، يقصد اليوجيون بكلمة شيتا (المادة التي تدرك) ولا يقصد بالمادة الأجسام التي تتشكل من المادة انما تقصد المادة التي وراء تلك الأشياء والتي تستمد منها الأشياء وجودها ، ولذلك فان استعمال كلمة شيتا حين يراد التعبير عن المادة التي تدرك يؤدي الغرض الذي يقصده اليوجيون عند الحديث عن العقل . انهم لا يريدون الفهم أو الادراك أى ما يقوم بالفهم والادراك ، انما يريدون ما عبر عنه الفلاسفة بالعقل الكلى الذى ليس هو عين المطلق .

يقول اليوجيون ان شيئا (جوهر العقل) موجودة في كل مكان في الكون ، وان كميته ثابتة لا تزيد ولا تنقص ولا تتغير وان كانت كالمادة والطاقة تظهر في مظاهر متعددة نتيجة وجود مركبات جديدة بنسب مختلفة منه .

ويمكن اعتبار جوهر العقل طورا من أطوار الطاقة أو المادة كما أن المادة يمكن اعتبارها طورا من أطوار جوهر العقل أشد منها كثافة وأغلظ قواما فقد سبق القول ان جوهر العقل هو أول مظاهر المطلق ومنه تكونت الطاقة ومن الطاقة تكونت المادة . وهكذا ترى أن الجميع أجزاء شيء واحد مختلفة الدرجات . انها المظاهر الثلاثة المختلفة للمطلق أو الفيوضات الثلاثة الصادرة عن المطلق .

جوهر العقل يتشابه والطاقة وهو بالنسبة الى الطاقة كالطاقة بالنسبة الى المادة ولنحاول أن نوضح هذا القول نوعا ما .

في أطوار المادة العليا تكاد صفة المادة أن تكون من مميزات الطاقة . خذ مثلا المغناطيسية أو الكهرباء تجد أن المادة والطاقة تتحدان اتحادا يثير الاهتمام حتى تبدو الطاقة وكأنها شيء يمكن أن يقطع بسكين ، كذلك نجد الكهرباء في صورها اللطيفة العليا ذات طاقة ومقدرة توحى للانسان أنها تكاد أن تعقل لشدة ما تقترب من الحد الفاصل بين الطاقة والعقل . ان علم الطبيعة سيكتشف في أعوام قلائل أنواعا أخرى من الطاقة تقدم أمثلة جديدة من

أمثلة التفكير أو العمل المتعقل أكثر من أى شىء معروف ، وستسبب الاختراعات التى ستأتى فى أعقاب اكتشاف الراديووم تطورا فى محيط الطبيعة يهز الانسان هذا فان العلم يكاد يقف على الحد الفاصل بين المادة والعقل – سينظر اليهما فى القريب العاجل على أنهما شىء واحد والطاقة كمرکز متوسط بينهما .

اننا لا نستطيع أن نضع بين أيدي الطلاب قطعة من جوهر العقل لعرضها على حواسهم للتدليل على وجوده ومع أن المتقدمين فى دراسة علم النفس والراسخين فى التصوف رأوا رأى العين مظاهر كثيرة له ، الا أن العلم لم يقتنع بعد ولم يأخذ بأقوالهم لاثبات وجوده ، ولكن انكار العلم لا ينفى ما يحس به كل انسان لجوهر العقل من نشاط يطلق عليه اسم الفكر . يجب أن نسلم بوجود جوهر العقل كما نسلم بوجود الطاقة والمادة على الأساس النظرى لأن هذه المظاهر الثلاثة لا يمكن أن تعرف الا عن طريق آثارها الظاهرية . فالأثير وهو أعلى أشكال المادة لا تدركه حواس الانسان الا اذا تألفت من ذراته الأجسام الصلبة أو السائلة أو الغازية ، كذلك الطاقة المجردة لا سبيل الى اظهارها لعقل الانسان الا اذا ظهرت آثارها عن طريق المادة فى صورة الحركة أو القوة ، وهكذا بجوهر العقل لا سبيل الى معرفته الا على أنه أفكار أو قوة الفكر .

المادة هى الشىء الذى تتشع به النفس لتظهر به ، والطاقة هى

الشيء الذي تستعمله النفس لتعمل بواسطته ، وجوهر العقل هو أداة النفس التي تفكر بها .

جوهر العقل هو الشيء الذي تتولد منه الطاقة التي تتسبب في حركة المادة ، وهذا قريب من نظرية الماديين التي يطلقون عليها (الحلقة المفرغة) انه قريب الشبه بها قريبا يكاد يكون انطباقا بين نظريتهم وفلسفة اليوجيين ، الا أن هؤلاء ينقلون النظرية الى محيط العقل بدل قصرها على محيط المادة .

ونظرية اليوجيين هي :

« ان ذرة المادة (دوامة) صغيرة من الأثير في الأثير تتكون من فعل الطاقة في الأثير ، ولما كان الأثير مجردا من الاحتكاك فان حلقة الدوامة لا تفقد شيئا من قوتها وبذلك تصبح حركتها (دائمة) وان كان دواما غير أبدي بالنسبة لدوام المطلق — وهي تتمتع بكل ما ينسب للمادة من خاصيات : الطول والعرض والارتفاع والكمية والمرونة والجاذبية والحيز والتمدد الخ كما أن لها حركتها الداخلية (ذبذبة) .

وهذه (الدوامات أو الحلقات) تختلف في أحجامها وسرعة ذبذبتها وهذه الحقيقة هي السبب في وجود الأنواع المختلفة من الذرات التي حيرت العلم وهي تلقى ضوءا على العناصر السبعين من عناصر المادة التي فرضت نفسها على علماء الطبيعة . وانه لمن

المستطاع أن نرى بوضوح انه اذا أمكن تغيير سرعة ذبذبات هذه الدوامات تحقق حلم الكيميائيين القدامى بتحويل مادة الى مادة وأمكن تحويل الرصاص الى ذهب ، والويل للرأسماليين ان عثر أحد الحالمين صدفة على هذا السر الذي يعرفه الأقطاب والمعلمون ولكنهم لا يأنهون له ولا يستعملونه اذا لا حاجة لهم بالذهب فهو والرصاص في نظرهم سيان اللهم الا اذا تقرر قلب الأوضاع الاقتصادية السائدة للعودة بالانسان الى حياة الاكتفاء بالضروريات .

لقد اصطدم أصحاب نظرية (الحلقة المفرغة) من رجال العلم أمثال هلمهولتز Helmholtz بما اصطدم به أصحاب نظرية المادة بمواجهة مشكلة السبب الأول في بدء الحركة في هذه الحلقات لأنهم لم يسلموا بوجود قوة عاقلة في الأثير تدفعه للحركة التي تكمن فيه القدرة عليها حين يريد ، وهنا يأتي الیوجيون لنجدة زملائهم علماء الغرب ساعة حاجتهم لهذه النجدة وان كان هناك شك في أن يقبل الغربي مساعدة أخيه الشرقي ويمد يده لليد التي امتدت لنجدة .

ان فلسفة الیوجا تقول بأن مادة العقل ، بالطبع ، تعرف نفسها وتظهر معرفتها لنفسها (بالفكر) وهذا الفكر حركة في جوهر العقل والحركة كما نعلم مظهر من مظاهر العقل منبثقة عنه ، وهذه الحركة

تنتقل الى الأثير فينشأ عن ذلك حركة (الحلقة المفرغة) وهكذا
تنشأ الذرة أصل المادة وفيها العقل والطاقة والحركة — عناصر
الوجود الثلاثة التي ذكرناها في الدرس السابق (المادة والطاقة
والاحساس) وهي نظرية هايكل وأضرابه من علماء الطبيعة .

ويفضل بعض علماء اليوجا وصف العملية كما يلي ، ان الأثير
بعد أن ينبثق عن جوهر العقل بفعل الطاقة ، تكون فيه صفات أيه
وجده (جوهر العقل والطاقة أو شيتا وبرانا) بالوراثة التي يملك
حق استعمالها ولذلك فهو يفكر في الحركة والحركة توجد (حلقة
الذرة) لتتمكن من الظهور وهذه الفلسفة تجعل المادة حائزة للعقل
والقدرة على الحركة وهذا صحيح لحد ما اذ كل من هذه المظاهر
الثلاثة تختلف بعض الاختلاف وكلها صادرة عن مصدر أصلي
واحد هو المطلق .

وهكذا ترى أن اليوجيين يرون أن المادة كما ندركها بحواسنا
نتيجة الفكر وان الفكر هو (العقل في حالة العمل) وأن العمل
وليد الطاقة وأن الطاقة ثمرة جوهر العقل واذن فالمادة في الحقيقة
هي العقل والعقل هو كل شيء ، ليس في الخيال أو التصوير
الصوفي ولكن في الحقيقة . ان هذه النظرية تحمل الحقيقة التالية
— كل شيء في الدنيا أصله الفكر وهذا يتفق مع أصحاب نظرية
(ان كل شيء عقل) وان المادة لا شيء وينبون على هذا الأساس

مذهبا قائما بذاته وهؤلاء غالبا ما ينسبون الحقيقة العظمى وهي ان العقل والمادة كليهما مخلوقان وانهما مظهران للمطلق الذى لا وجود لغيره الا به ولا حق الا هو فاحذروا أن تؤلّوها العقل أو المادة فكلاهما اله باطل والمطلق وحده هو الحق .

لقد أشرنا الى علم الطبيعة الغربى أثناء بحثنا تعاليم اليوجا فيما يتعلق بالمظاهر الثلاثة الكبرى لكى نبين أوجه الخلاف وأوجه الشبه وحتى نسهل على العقل الغربى قبول رأى الشرق عندما يراه مقترنا بما تعوده من رأى ووجهة نظر ، وعلاوة على ذلك لكى يتضح للقارىء أن العقل البشرى فى رحلته نحو النضج يحاول دائما أن يجعل الحق صراحا واضحا أبلج . وكذلك نريد أن نقرر هنا أن أقطاب اليوجيين القدامى والمعاصرين على السواء ولو أنهم يسرون فى أبحاثهم بالعقل كالغربيين الا أنهم يحققون ما يتوصلون اليه من نتائج بعرضها على مراكز العقل التى تفتح وعيها — العقل الروحى . وفى حالات كثيرة عندما يصل الباحث الى درجة عليا من النمو الروحى يجد نفسه عارفا بغير جهد عقلى يبذله فى سبيل هذه المعرفة . هذه المعرفة لا يستطيع أن يدرك كنهها من يعيشون فى محيط القوة العاقلة العادية ، ولكن الذين أشرقت أنوار الروح عليهم يعلمون أنها نوع من الادراك أسمى من ادراك العقل انها تهوقه ولكن لا تتعارض معه ، وكثير مما بدأ العقل الغربى يدركه الآن شىء مقرر لدى أصحاب الوعى الروحى منذ أمد بعيد .

لقد يحدث كثيرا أن تتكشف للإنسان حقيقة من الحقائق عن هذا الطريق ، ولكنه لا يستطيع التعبير عما يتكشف له تعبيرا واضحا منطقيا يرضاه العقل ، بل انه ليعجز عن تفسيرها حتى لنفسه انه واثق من وجود شيء ولكنه لا يستطيع أن يأتي بدليل يبرر ثقته هذه ، ولا يستطيع أن يفسر وجود هذا الشيء ولا صلته بغيره .

يقول اليوجيون أن علم ما في السموات والأرض أودع مادة العقل في طبقة من طبقاتها ولما كانت كل ذرات مادة العقل متجانسة متشابهة تجانس قطرة الماء مع الماء كله ، فان عقل الانسان أو قوته العاقلة فيها أسرار الكون كلها ، والمسألة مسألة كشف تلك الأسرار .

وكلما اتسعت دائرة القوة العاقلة اتسع أفق معرفتها وألمت بشيء مما في العقل الباطن من معرفة ، ان كل شيء موجود في العقل ، ولكن المسألة مسألة الوصول بالقوة العاقلة الى الأسرار التي لم يسبق أن وصلت اليها ، وفي آخر الأمر سينكشف كل شيء وسيعرف الانسان كل شيء . ان وعينا الحالي (الأنا) هو الذي يتقدم الى درجة وعى أكبر وأوسع أفقا حتى يصل الى آخر مدى العقل وأرفع طبقاته . ولكن هذا المدى يقصر عن ادراك ما وراء دائرته ، انه لا يحيط بالمطلق علما ولا يدرك علم المطلق فليس يعلم المطلق الا المطلق ان محيط معرفة العقل يبدأ من حيث بدأ العقل من عند المطلق لا من وراء ذلك .

ان العقل يدرك نفسه وما يليه تحته من طاقة ومادة أما ما يحيط به ويسمو عليه فان معرفته وادراكه يقفان عنده ، عند المطلق .
ولكن الروح (الاتمان) ذلك المبدأ الالهى ، ذلك النور الذى يشرق على العقل ، تلك البضعة من روح الله ، أما الروح — النفس الحقيقية أو النفس العليا ، فانها تعلم ، أنها تعرف المطلق وما عند المطلق ، وعندما تنحسر عن الانسان الحجب جميعها حتى العقل الروحى نفسه ، وحين لا يبقى من الانسان الا روحه ، عندها يدرك الانسان بقوتها كل شىء ، وعندها لا يكون الانسان انسانا انه لم يعد بعد انسانا اذ يصبح روحا عادت الى بارئها .

لعل المهتمين بالعلوم منكم يطيب لهم أن يعلموا أن المتعمقين فى الناحية العلمية من الفلسفة من اليوجين يقررون أنه لا المادة (أكازا) فى أرق صورها وهو الأثير ولا القدرة أو الطاقة (برانا) ولا العقل نفسه ، ليس شىء من هذه كلها ذريا ، ليس واحد منها ذريا ، وما يقال له الذرة منها ما هو الا (حلقة مفرغة) تبدو ذرة ، ومن مجموع الذرات يتكون جزىء تدركه الحواس ، فمثلا جوهر العقل يتكون من الحلقة المفرغة فيه بالاشتراك مع الحركة ، ذرة يقال لها الفكر ، والطاقة تتكون من حلقاتها المفرغة ذرات يقال لها الحركة ، أما الطاقة نفسها فهى سلبية وكذلك المادة (الأثير) اذا تأثرت بارادة العقل تكونت فيها ذرات تقع تحت الحس منها الصلب والسائل والغازى .

وحتى لا تتهم بأننا نستغل ما وصل اليه الغرب من معرفة
فننقلها تعاليم اليوجا ، نرجو القارىء أن يعود الى الكلمة
السنسكريتية (ثريتا) التى وردت فى الفيدا (كتب اليوجيين المقدسة
القديمة) ان معناها موجات العقل أو ذبذباته التى يتكون منها
الفكر ، والمعنى الحرفى لكلمة ثريتا (الدوامه) وكما أن الكلمة
المستعملة فى الغرب للدلالة على الدوامه هى التى استعملت للتعبير
عن الحركة التى تكون المادة (الذبذبات) . من ذلك يتضح أن علم
اليوجيين انما هو الذى يتردد فى نظريات الغرب الآن .

ليس هذا مكان الاسترسال فى عمل العقل وقوته وما يترتب
على قوة الفكر من آثار فان هذه القوى والقواعد المنظمة
لاستخدامها تدخل فى دائرة الراجا يوجا التى سنتناولها بالشرح
فى دروسنا القادمة .

وهنا نود أن ننبه القارىء حتى لا يخلط بين المخ ومادته
بجوهر العقل ، فمادة المخ ما هى الا الأجهزة المادية التى يستعملها
جوهر العقل ليظهر عن طريقها ، ويجمل بالطالب أن يعتبر جوهر
العقل أقرب لأن يكون قوة من أن يكون جسما ماديا . قد يحمل
استعمال كلمة (جوهر) فى الحديث عن جوهر العقل على هذا
التصور المادى ولكن هذا يخالف الحقيقة والواقع ، ولكننا
لا نستطيع أن نقول بدل جوهر العقل قوة العقل خشية أن يفهم

أنا نقصد حركة العقل عندما يعمل ويتكون من عمله الفكر ،
جوهر العقل نوع رفيع من الطاقة وهو كالطاقة نفسها يظل سلبيا
ساكنا بلا حركة . انه لا يتحرك الا اذا تكونت الأفكار فيه فيتحد
عندئذ بالحركة . اذكروا هذه النقاط .

ونختتم هذا البحث في جوهر العقل بأن نقول انه في كل مكان
وانه كالطاقة والمادة — وليدته أو بعارة أدق احدهما وليدته
والثانية حفيدته — لا يتغير ولا يزيد ولا ينقص ولا ينقسم
ولا يفصل بين أجزائه فاصل وان بدا انه كذلك ، فان عقل كل
فرد يبدو كأنه قدر معين من جوهر العقل منفصل عن سائر جوهر
العقل الا أن الحقيقة ان كل العقول متصلة ببعضها البعض وانها
جميعا متصلة بجوهر العقل ، بالعقل العام التي هي جزء منه (١) ،
ان جوهر العقل لا يفصل عن بعضه بوجوده مجزأ في الأفراد أكثر
مما يفصل الأثير عن بعضه في الأجسام المنفصلة المتباعدة أو كالطاقة
اذا ظهرت مقسمة في حركات الأفعال المتباينة .

(١) الدكتور كارل يونج ثالث الثلاثة — فرويد وأدلر ويونج
الذين اشتركوا في ارساء قواعد علم النفس الحديث — اوضح هذا
الاتصال في أحدث كتبه (علم النفس والكيمياء Alchemy) حيث
قرر أن العقل اللاواعي (الباطن) في الانسان متصل ببعض كالمياه
الجوفية تتصل ببعضها وأن بدا كل بشر ارتوازي مستقلا عن الآخر .
المترجم

كذلك ننبه الى أنه لا يوجد شيء ميت في الكون ، لأن الكون
حتى جميعه ، وكل ذرة في الكون فيها مادة وطاقة وعقل (جوهر عقل).
الكون شيء هائل حتى متحرك عاقل من الذرة الى الشمس وان
اختلف الفكر بين الاحساس الغامض (حتى التجاذب والتنافر
الكيميائي كما سبق القول نوع من الاحساس) في أبسط أشكاله ،
والمجهود الفكرى فى الانسان وفى الكائنات الأرفع من الانسان .

أتمان أو الروح

نتقل الآن الى بحث (أتمان) أو النفس الحقيقية أو الروح
ومظهرها فى الانسان ، وفى بحثنا سوف لا نستعمل الكلمة
السنسكريتية (أتمان) وانما نستعمل بدلها كلمة الروح لنعبر عنها
وما ذكرنا (أتمان) الا لكى نوضح ما يقصد بها حتى تدركوا
معناها فيما تجدون من كتابات عن الموضوع .

ولكى تتمكن من فهم فكرة الروح يجب أن نعود للتفكير فى
موضوع المطلق . فى درس سبق حاولنا أن نثبت ما وصلت القوة
العاقلة اليه فى معرفة المطلق وكيف انها اضطرت للتسليم والايمان ،
وان تسليمها أيده ما تكشف على مدى الأجيال للنفوس التى
نضجت وانحسرت عنها الحجب فكان ما رآته مطابقا للتسليم الذى
اتهبى اليه العقل فى بحثه . ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن
ما وصل اليه العقل مهما سما واتسع أفقه لا يتجاوز نطاق نفسه

ومحيط قدرته وحتى العقل الكلى وفيه كل ما انبثق عن المطلق. من العقل لا يحيط الا بما فى داخل محيطه — بما فيه لا يتعداه الى ما هو خارج عنه لأنه مقيد محدود قيده المطلق وحدد مقدرته فلا يستطيع أن يحيط بما لا يدخل فى نطاق قدرته ولذلك لا يمكنه أن يعرف شيئاً عن طبيعة المطلق أكثر مما أودع المطلق فيه من القدرة على معرفته .

العقل الكلى ليس هو المطلق .

اذكر ذلك دائماً ، انما هو منبثق عنه . ولذلك فالعقل يهديننا الى مبلغ ما أودع فيه من العلم عن المطلق ، ونحن نقول اننا بناء على ما شهد العقل به يجب أن نصدق على أساس تلك الشهادة أن المطلق كائن وأن للمطلق صفات تفرد بها .

ولكن من سقطت عنه الحجب يرى أن هذا الايمان وهذه الشهادة حق مخلوق وليس الذى تؤمن به أو نشهد به هو الحق المطلق غير المخلوق لأن الحق غير المخلوق اختص المطلق به نفسه ولا يمكن أن يحيط به العقل المخلوق لأنه غير محدود والعقل محدود ولا يمكن أن يحيط المحدود بغير المحدود .

ان العقل — حتى العقل الكلى — ليس عالماً بنفسه وليس علمه من صنع قدرته ولا يحيط بكل شىء علماً . انه يعلم بكل ما فى نفسه وما فى الكون لأنه محيط بالكون ، ويستطيع أن ينفذ

فيه حتى الى جوهر الذرة والى ما هو في داخل الذرة لأنه يحيط
بنفسه وبالعالم كله لأنه يتخلل العالم . ولكنه لا يستطيع أن يتناول
فيخترق حدوده التي تنتهي عند الحجاب الذي يفصل بينه وبين
المطلق وهذا الحجاب نفسه نسبي مخلوق ، انه موجود بالنسبة
للعقل ولكن لا وجود له بالنسبة للمطلق .

العقل الكلى يعرف قطعاً و يقيناً ان المطلق موجود لأنه يعلم
حدود نفسه ويعلم أن المطلق وراء تلك الحدود وانه به محيط ،
ولذلك فانه يحس وجود نفسه حتى الحدود التي ينتهي عندها لأنه
محدود غير مطلق ويرى وجود المطلق عند نهاية نفسه وهو يعلم
ما في نفسه ولا يعلم ما في نفس المطلق لأن علمه ينتهي عند نهاية
دائرة قدرته على العلم فيعلم ما بداخل الدائرة ولا يعلم ما يخرج
عنها ، فيعلم أن مالا يعلمه لأنه خارج عن دائرة علمه هو المطلق الذي
لا يعلم عنه الا وجوده الذي ينتهي وجود نفسه عنده ، واذن فهناك
مالا يدركه العقل ، لا على أنه لم يصل اليه بعد وانه مع الوقت
سيصل اليه فيدركه ، ولكن على أنه فوق علمه وخارج محيط
قدرته على العلم رغم احساسه بوجوده . وعلم مالا يعلمه العقل
عند الذي لا يعلمه العقل وان كان يراه — عند المطلق . فانطلق
يعلم ما في العقل كله لأنه محيط بالعقل وبما في العقل من كائنات
وهو يعلم كل شيء ولا يغيب عن علمه شيء فعلم المطلق كامل

محيط بكل شيء وما عدا علم المطلق علم محدود مقيد مهما اتسع أفقه فانه قاصر لأنه ينتهي عند حدود ، وأما علم المطلق فلا حدود له .
ويجب أن يعلم الطالب أن ما نسميه العقل الكلي ليس الوسيلة التي يعلم المطلق بها الأشياء . ليس العقل هو الذي يعلم المطلق به انما هو الوسيلة التي يدرك بها الكون والكون ليس مطلقا انما هو مخلوق محدود لأنه يشمل ما انبثق عن المطلق ولكنه ليس هو المطلق ، بل هو فيض من المطلق .

والنفس البشرية تستطيع أن تستمد من العقل الكلي ما فيه من علم بكل شيء وهذا ما يتمتع به الأقطاب على حسب ما بلغوا من درجة ومكانة في السمو وهؤلاء الأقطاب يبلغون الناس ما تكشف لهم من وجود المطلق مؤيدين بذلك ما استطاع العقل ادراكه بواسطة القوة العاقلة — من ضرورة وجود المطلق مفيض كل شيء ومصدر وجود كل موجود وكل وجود ، ولكن أولئك الأقطاب يشهدون كذلك بعجزهم عن اجتياز الحدود ، حدود الوجود وحدود كل موجود .

وهكذا ترى أن المطلق لا يمكن أن تعرف ذاته وأن كل ما يمكن أن يعرف عن المطلق للعقل الكلي هو ما عدا الله أما ما في نفس المطلق ذاته ففي علمه وحده .

لانا نستطيع أن ندرك لغز الكون اذا بلغنا غاية النمو ووصلنا

الى آخر حدود العقل ولكننا لن نعلم شيئا عن ذات المطلق حتى تتجاوز تلك الحدود ، وتتجاوز أعلى مستوى من مستويات العقل وندخل منطقة الروح فهي الحق ، هي في كل منا ذرة من المطلق غير محدودة ولا مقيدة ، في كل منا من المطلق الروح (أتمان) انها قطرة من المحيط المطلق غير المحدود . شعاع من شمس المطلق ونوره هي شرارة من الشعلة القدسية .

هذه الروح لأنها من المطلق تعرف المطلق ذاته وصفاته أسرارها ومعنياته فاذا اتتهينا الى داخل الوعي الروحي لا الاستمداد منه فقط ، عرفنا كل شيء وأصبحنا من المطلق في كل شيء متحدين به ، هذا من أقدم تعاليم فلسفة اليوجا .

هذا السر هو أن الروح ذلك الجزء الصغير من المطلق الذي يبدو منفصلا عن المطلق وما هو بمنفصل عن الواحد ، هو المبدأ الأسمى في كل نفس حتى أحط النفوس فيها ذلك القبس ، انه فينا أبدا لا يزيد ولا ينقص ، ولكننا نحن نزداد ابصارا لنوره كلما تقدمنا وارتقينا على السلم درجة بعد درجة . ان الروح موجود دائما لا يتغير ولا يتبدل ولكن وعي الانسان ينمو مقتربا من الروح ولا بد أن يندمج يوما فيه ، وهذا هو هدف النفس وغاية التدرج والتقدم والغرض من كل جهاد وكفاح . ان الحياة وسيلة النفس وفرصة كفاحها للتخلص من حجبها وقيودها لتصل الى ميراثها وتتمتع به .

لقد أقبلنا الآن على السر الأعظم وأشرفنا عليه فان الطالب
الذى واصل تتبع هذه التعاليم لابد وأن يجد في نفسه السؤال
الذى رددته الأتفس في جميع الأجيال عندما ينتهون في أبحاثهم
الى هذه المرحلة . وهذا السؤال يمكن أن يكون بالصيغة التالية :
لماذا فصل المطلق جزءا منه وقسمه أجزاء أو ما يبدو أنه أجزاء ؟
أو لماذا يبدو كأنه فصل هذه الأجزاء ، ما الفائدة وما معنى هذا
كله ؟ ما الحكمة ؟ .

لا يمكن أن تكون هناك ضرورة ملجئة فان المطلق فوق
الضرورات ، ولا يمكن أن يكون للحصول على غرض أو هدف
فان المطلق يملك كل شيء ، ولا يمكن أن يكون ذلك لرغبة فان
المطلق منزه عن الرغبات ، واذن فلماذا أفاض من نفسه الكون ولماذا
أوجد هذه الأتفس ولماذا نفخ من روحه بضعة في كل نفس .

إذا كان كل شيء صدر عن المطلق وإذا كان كل شيء يعود الى
المطلق فلماذا كل هذا وأية فائدة له ؟ .

لعلنا أوضحنا السؤال غاية الوضوح ويسرنا أن نعلن عجزنا
عن الاجابة عليه واننا لم نعر على اجابة أو تفسير يستحق النظر
أو الذكر .

ان الجواب عند المطلق في حرز حريز ، ولما كان العقل مظهرا
فقط فانه لا يستطيع أن يدرك ما وراء المظهر .

لقد حاول كثير من المفكرين الاجابة عن هذا السؤال ، ولجئت
مدارس الشرق والغرب في شتى الافتراضات حوله .
قال البعض ان هذا الانفصال لا وجود له ولا ظل له من
الحقيقة في الواقع وان الجهل أو الوهم يرينا الواحد الأحد في
صورة الكثير المتعدد ، ولكن هذا القول لا يحوى الاجابة على
السؤال اذ كيف حدث هذا الجهل ومن أين صدر وكيف يكون
في المطلق جهل أو وهم (ان كان المطلق كما قررنا مصدر كل شيء
ولا وجود لشيء الا به) .

وان كنا نحن الذين اثبتنا عن المطلق نعجز عن أن ندرك
صلتنا به فانه هو سبب عدم الادراك هذا .

يقول البعض اننا نحن الذين أوجدنا في أنفسنا هذا الخيال
فتصورنا أنفسنا منفصلين وليس هذا جوابا شافيا والا كان المطلق
صاحب هذا الخيال وهذا التصور ، وهذه فكرة تدعو الى السخرية
وشبيه بهذا التعليل قول القائلين بأن الكون ما هو الا حلم أو رؤيا
يراهها المطلق ، فكيف يرى الله رؤيا ؟ (أهو نائم فيحلم !!) .

وقريب من هذه التفسيرات المزعومة قول القائلين بأن الدنيا
بما فيها الانسان وليدة لعب يتسلى المطلق به وهذا قول سخيف
لأنه ينزل بالمطلق (براهما) الى مستوى طفل يلهو أو رجل يعبث
فيشبه الشيطان لا الاله .

وقال آخرون ان الدنيا لا حقيقة لوجودها وانما هي فكرة
لله ، ولا غناء في هذا القول فان في كل نفس ما يحملها على الاقتناع
بوجودها ، لا انها فكرة أو حلم من أحلام اليقظة . ان شعور النفس
بأنها شخصية مبعثه انعكاس للروح في النفس يشعرها بأنها تنتمي
الى الله ولسنا غرباء عنه .

أما القول بأن الله يلهو بالدنيا اذ يبسطها ثم يعود فيطويها
عندما ينتهي من اللهو كما قال بعض الهنود اتباعا لما في الخرافات
التي وضعها سلفهم فهو نتيجة خيال من خيالات الطفولة البشرية
وتصوراتها جريا وراء دين يؤمنون به فتخيلوا الله انسانا يلهو
كما يلهون .

اتنا مضطرون لأن نسلم بوجود الخداع الذي يسببه النظر غير
السليم الى الأشياء فتبدو على غير حقيقتها ، ولا شك أن الطلاب
يعلمون أن من لا يزال مقيدا بقيود الجهل يرى الكثير من الأمور
على غير ما هي عليه ، وانهم أدركوا الكثير من الأخطاء تدوب تحت
ضوء المعرفة . ولكن هذا الانخداع بمظاهر الأشياء وان ثبت
وجوده لا يعتبر حلا للمشكلة ولا جوابا للسؤال انه قد يجيب
على السؤال عن الطريقة (كيف حدث) ولكنه لا يجيب عن الحكمة
(لماذا حدث ؟) .

أما (كيف حدث ؟) فسؤال داخل في المظهر والعقل يحده
لذلك في حدوده ويستطيع الاجابة عليه . ولكن (لماذا ؟) هذا
سؤال خارج عن حدود العقل والأبواب دونه موصدة في وجه
العقل .

انا نستطيع أن نصل الى المعرفة وقد وصل اليها الكثيرون
فعرفوا ان الله كائن حقا ، لا لأن العقل مضطر لأن يسلم بذلك ،
ولكن لأن الأفق الأعلى من العقل فيه اليقين بوجوده ، والنفس
اذا تفتحت تجد في حناياها الروح وتسلم بأنها شيء آخر غير العقل
وأسمى منه ، والأقطاب استطاعوا أن يجولوا في آفاق العقل
الكوني ووجدوا أن المطلق محيط به فعرفوه معرفة يقينية لا معرفة
استنتاج وتفكير أو ايمان كإيمان العجائز . ولكن النفس عاجزة
عن ادراك سر الروح بعقلها كما ان العقل الكلى عاجز عن ادراك
سر المطلق .

لقد حاولت العقول في كل العصور أن تدرك سر المطلق وسر
الوجود وباءت محاولاتها بالفشل .

لقد رأى أفلوطين الفيلسوف اليونانى أن المطلق لا يمكن أن
يكون وحيدا ولذلك فانه يفيض أنفسا من ذاته ، كما رأى بعض
الهنود أن الحب وحتى الرغبة كانا السبب في وجود هذه المظاهر ،

الرغبة في وجود شيء يجب . كل هذا قيل كما قيل ان روح التضحية هي التي دفعت الواحد لأن يتعدد وهنا نكف عن سرد ما قيل في هذا الموضوع ذاكرين أن سبب هذه الاجابات كلها واحد وهو أن أصحابها بنوها على تصورهم ان المطلق مثل الانسان وأنه يعمل بنفس دوافع الانسان ويتأثر بما يتأثر به من مؤثرات .

وهذه طريقة تفكير تحتضر ، ولكن يبدو أنها لا تموت موتا هيئا فانها ما زالت ترفع رأسها حتى في الفلسفات التي تدعى أنها أودعتها الرمس منذ أمد بعيد . وانا لنحذر الطلاب من الوقوع في حبال العقل والفكر ونريد أن يعلموا أن السلامة في البعد عن هذه الأسباب والنظريات والتفسيرات التي مبعثها جميعا أننا ننسب صفات المخلوق الفاني الزائل المحدود الى الحي الباقي الأبدى غير المحدود ، ننسب صفات الانسان الى المطلق .

ان الجواب على هذا السؤال (لماذا ؟) لن يأتي الا من عند الله وموعده اشراق الروح أما الآن فحسبنا أن نعلم أننا بشر وأن نعترف بأن الانسان في حالته الراهنة لم يؤت من العلم الا قليلا .

وإذا كنا لا نستطيع أن نعلم سبب الخلق فاننا نستطيع أن نبحث كيفية الخلق في كل مظهر من مظاهر الوجود فانها تحت تصرفنا ان أردنا الغوص في أعماقها والواقع أنها معروفة للعقل

الكونى (العقل العام) وقد عرفها الذين جاسوا خلاله حتى وصلوا الى أقاصى حدوده . وفي العقل البشرى علم العقل العام فى الحالة الكامنة عقل كل فرد فيه معرفة الكون كلها ، وتحليل ماء المحيط لا يتطلب سوى تحليل قطرة منه والراسخ فى العلم يعلم كل علم فى الكون باستقراءه ما فى عقل نفسه ، وعقله يستطيع أن يحصل على ما فى جوهر العقل من معرفة وأن يستقبل كل ذبذبات العقل الكلى ، فكل قطرة ، فيها ما فى الكل من خواص . العقل الكلى فيه كل المعرفة وما يصل الى علمنا منه ليس جديدا بل هو موجود فى ذلك العقل ميسور لمن يستطيع أن يستمده بعقله الفردى منه كلما اتسع أفقه وزاد عمقه حتى يصل الى محيطه ويلمس وجود ما وراءه — حقيقة وجود المطلق — ويطلع على دورة القدر بل ويشارك فى جهوده ان أراد .

يمكن استخدام العقل فى تشكيل المادة بواسطة الطاقة وبذلك يأتى أمورا ويصنع أشياء تبدو للرجل العادى معجزات ولكنها تدخل فى نطاق الأسباب والمسببات ، نطاق الممكن المعقول لا اعجاز فيها ولا مستحيل .

وتستطيع النفس التى تقدمت أن ترتفع بعلمها الى حيث تكون فوق متناول قانون العلل والأسباب والنتائج الذى يسيطر على مجريات الأمور فى مستويات الوجود الدنيا .

لا يسأل اليوجيون تلاميذهم أن يصدقوا كل شيء على علاته
مؤمنين بما يقال لهم لأن أَلغاز الكون يمكن أن يحلها العقل ، وكل
خطوة يمكن تحقيقها بالتجربة عمليا . من الايمان ايمان يورث
المعرفة ومن اليوجيين من يتمتع به ولكن احذروا المعلم الذى
يدعى أنه يستطيع بعقله أن يفسر لعقولكم سر الوجود ويجب
على سؤالك (لماذا ؟) الذى اختص الله به نفسه ولا يعلمه الا هو
فان ساورك الشك وسبب لكم هذا السؤال أسى فاهدأوا والجاؤا
بالعقل الى الروح وسلطانه تجدوا الهدوء والسلام ، السلام الذى
يفوق الافهام .

النفس (مركز وعى) ونصفها بهذا الوصف لأننا لا نجد خيرا
منه . وفيها القبس الالهى تحوط به حجب وهذه الحجب على
درجات وأشكال ، من جوهر العقل والطاقة والمادة .

وحتى بعد أن تترك الجسد (عند الموت) لا تتخلص النفس
من المادة فان لها مراكب أو أجساما من المادة الشفافة فى درجات
مختلفة من الصفاء . فجوهر العقل الفردى نفسه بصوره المتعددة
تحوطه طبقة من المادة تحجبه عن العقل الكلى لحد ما ، يجعله
وحدة قائمة بذاتها وفى نفس الوقت تتصل بالعقل الكلى والعقول
الفردية .

تسمى النفس أحيانا (الأنا) (E.G.O) أو غير ذلك من الأسماء التي لا تقدم ولا تؤخر وتوضع النفس في جسد من المادة في أكثف صورها ثم تعمل جاهدة نحو الرقى والتقدم والرفعة متخذة صورا يتسامى بعضها فوق بعض حتى تبلغ من التقدم درجة الملائكة (في الأصل الآلهة) وبعدها تندمج في المطلق لا كما يلقي الشيء في البودقة فينصهر مع ما فيها ولكن بمعنى أنها تدرك المطلق وتدرك وحدتها معه وهذه الحقيقة الأخيرة عرفت بشهادة أولئك الذين بلغوا المرحلة التي تؤهل لهذه الوحدة - نيرفانا - لأن هناك مرحلة قبل هذه الوحدة تقف النفس فيها فترة قد تبلغ ملايين السنين وفي خلال هذه الفترة قد تتنازل النفس عن امتيازاتها التي بلغت لتعود الى الكون لتأخذ بيد غيرها من الأتفس المكافحة صعدا .

أما (لماذا ؟) هذه الرحلة الطويلة على الطريق من المادة الكثيفة الى درجات الصفاء العليا ، أما سبب هذا فعلمه عند الله كما أسلفنا . ولكننا نستطيع أن نرى بكل وضوح خطوات التقدم في هذه الرحلة كما نشعر بجذب الله وتوجيهه لنا نحوه من ناحية ، وبالذافع الالهي في نفوسنا من الناحية الأخرى يحدونا الى ارتقاء سلم الوصول فنستطيع من ذلك أن نستنتج بقوتنا العاقلة وبما أودع فينا من ملكات أسمى من القوة العاقلة ، نستنتج أن تلك القوة التي تقود النفس الى العلاحق وخير وأن ما يعترض تقدمنا في

الطريق فيعيق اضطراده في مرحلة من مراحل شر وخطأ . وبين هذا وذاك نستطيع أن نستخلص دستوراً للأخلاق والسلوك وان كانت الأخلاق والخير والشر كلها نسبية كما سبق القول في الحديث عن (دارما) .

كل خطوة تجعلنا نشعر بأن الكل واحد خير من الخطوة التي لا تتميز فيها هذا الشعور بنفس الوضوح ، وعلى هذه القاعدة يبنى كل ما نعرف بالخطأ والصواب — الخير والشر .

أما كيفية دخول الروح في المادة أو لنقل كيفية مولد النفس فإن بعض النفوس التي سمت وبلغت المستويات التي تستطيع منها أن تطل على الكثير من أسرار أحداث الكون تقول ان ذلك سببه ارادة الهية تشبه الرغبة الملحة في الانسان . يريد الله فيكون ما يريد ويحدث ذلك المظهر وبديهي أن ما يحدث ليس ارادة بالمعنى الذي نعرفه للكلمة ولكننا لا نجد له تسمية أخرى أو وصفاً آخر .

وإذا جاز لنا أن نستعمل تشبيها مأخوذاً من الحياة العادية على أن تذكروا رأينا في سخف كل مقارنة بين فعل الله وفعل الانسان ، يمكن القول ان عملية تكوين (مركز الوعي) أو مولد النفس أو دخول الروح حجب العقل والطاقة والمادة تشبه في طبيعتها ما يسبق تكوين الجنين ومولده فالارادة الالهية تشبه الخلية المتكوّنة من بويضتى الذكر والأثتى ، والروح تشبه الطفل الذى

يتكون منها ولا بد أن تكون في الطفل طبيعة الوالدين وصفاتها
أى أن الروح من الله وأنها نفس النفس ، وإن الحجب — العقل
والطاقة والمادة — هي جسد الطفل وكل من نفس الطفل وجسده
لا بد أن يكونا من نفس العناصر التي تكون منها الوالدان فليس
ثمة شيء آخر يمكن أن يتكون منه الطفل . ويقول كاتب غربي
اسمه كالتروب Calthrop بحق (من جوهر المطلق نفسه « طبقا
لقانون الأبوة » تأتي نحن أطفاله جسدا وروحا على السواء اننا
مولودون ولسنا مصنوعين اذ أننا أولاد في الحقيقة ونفس الأمر) .

وكالطفل الذى يولد ويكون في صورة مادة بسيطة أول الأمر
ثم ينمو فيعى ثم يعقل ثم يدرك ثم يبلغ مبلغ الرجال حتى يصبح
كأبيه شكلا وعقلا ، كذلك هذا الطفل الالهى يبعث في أبسط
شكل من أشكال الروح (التي يمكن أن تسمى جسد الله) وكلما
نمت ارتفعت وارتقت وبلغت ذرى الارتفاع التي يصاب فيها العقل
بالدوار ، حتى اذا بلغت آخر الطريق وجدت نفسها أمام بيت أبيها
فتقرع فتفتح لها الأبواب وتدخل وتلقى نفسها في أحضان أبيها
الذى يكون في انتظارها ثم تقفل الأبواب فلا نعلم مما يجرى في
الداخل شيئا . لقد عادت لنفس آمنة مطمئنة بعد أن بلغت الغاية
من النضج عادت بعد أن عانت مشاق الطريق ووعثاء السفر عادت
ودخلت بيتها بسلام .

وتشبيه آخر فيه معنى يروق للطلاب المتقدمين .

كما تنعكس الشمس على البحر وعلى كل نقطة فيه اذا انفصلت
عن غيرها كذلك ينعكس نور المطلق على صفحات العقل الكلى
الأعظم وعلى كل ذرة من ذرات ذلك العقل ، على كل نفس .

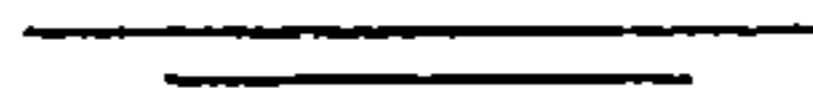
اذا انعكست الشمس على بحر العقل الكلى فهي نور المطلق .
واذا انعكست على قطرة من العقل الكلى التى يقال لها النفس
سميت الروح .

ليس ذلك الذى يبدو فى الانعكاس هو الشمس نفسها ولكنه
فى نفس الوقت ليس وهما ولا خيالا ولا شيئا مزيفا فان الشمس
قد أرسلت جزءا من نفسها من قدرتها من حرارتها من نورها من
مادتها ، ولهذا فالبحر والقطرة تأخذان من نفس الشمس . ان
روح القطرة حق وهذه معجزة السر . فعلى حين تكون الشمس
حاضرة فى القطرة الا أن الشمس نفسها بعيدة ، وليس الحاضر
منها الا مظهرا فقط . ان من يرى الانعكاس فى القطرة يرى الشمس ،
شكلها ونورها ، ومع ذلك فالشمس فى السماء ، وهكذا نرى
الشمس فى القطرة وهى فى السماء ونرى الشمس فى السماء وهى
فى القطرة . هذا هو اللغز الالهى الذى فى طياته الواحد المتعدد
والمتعدد الواحد الحق الكل الذى يبدو منفصلا ولا انفصال .

تنعكس الشمس على ملايين القطرات فاذا ملايين من الشمس
ولكن مع أننا نرى في كل قطرة شمس الا أن الشمس واحدة
والشمس في السماء ، ان من يستطيع أن يدرك هذا اللغز يدرك
سر الصلة بين الروح والمطلق بين المتعدد والواحد . هذه رسالتنا
الى طلابنا نختم بها هذه الدراسة فأصبحوا اليها .

ألا ليت كل قطرة تدرك أن في داخلها شمس الحياة وتعرف
كيف تدرك وجودها فيها الادراك الصحيح . والسلام لكم ومعكم .

النهاية



فَهْرَسْت

صفحة									
٣	إهداء ...
٥	كلمة الناشر ...
									الدرس الأول :
٧	بعض الضوء على الطريق
									الدرس الثاني :
٤٦	مزيد من الضوء على الطريق
									الدرس الثالث :
٨٣	الوعي الروحي ...
									الدرس الرابع :
١٢٠	صوت الصمت
									الدرس الخامس :
١٥٨	كارما يوجا
									الدرس السادس :
١٩٢	جناني يوجا
									الدرس السابع :
٢٢٥	بهاكتي يوجا (طريق الإخلاص والعبادة)

صفحة

									الدرس الثامن :
٢٦٠	دارما
									الدرس التاسع :
٢٩٢	مزید من الدارما
									الدرس العاشر :
٣٢٩	لغز الكون
									الدرس الحادي عشر :
٣٤٢	المادة والقوة
									الدرس الثاني عشر :
٣٦٨	العقل والروح

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

الناشر

عربان يوسف سعد

٤ شارع عبد السلام زكي - بمصر الجديدة

تليفون ٦٦٦٧٠

س . ت : ١٠١٩٨٤

Bibliotheca Alexandrina



0355443